ثورة العرب

أسعد خليل داغر



ثورة العرب

ثورة العرب

مقدماتها، أسبابها، نتائجها

تأليف
أسعد خليل داغر



ثورة العرب

أسعد خليل داغر

رقم إيداع ١٩٠٠٠ / ٢٠١٤
تدمك: ١ ١٣٩ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

إهداء

إلى أرواح شهداء الوطن

سليم الجزائري، وعبد الغني العريسي، ومحمد المحمصاني، وتوفيق البساط، وجلال البخاري، وأحمد طباره، ورفيق رزق سلوم، وعبد الحميد الزهراوي، وعبد الكريم الخليل، وشفيق المؤيد، ورشدي الشمعة، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليجي، وسيف الدين الخطيب، وعارف الشهابي، وغيرهم.

آثاركم في العلى　　متضحات السنن
وموتكم بعثنا　　يا شهداء الوطن

مقدمة

مضت قرون على العرب الكرام كانوا فيها خالدين إلى الاستكانة، صابرين على أحكام الزمان الجائرة صبرَ الكريم إذا جُرِحَتْ نفسهُ الكبيرة، فإن هذه الأمة الكريمة التي شهد لها التاريخ بالمجد والسؤدد والارتقاء، هذه الأمة التي أقر لها العالم أجمع بالتفوق والسبق إلى العلوم والاختراعات، هذه الأمة التي دوخت الأمصار ونشرت لواء فتوحاتها من نهر السند إلى الأتلانتيك، هذه الأمة التي بلغت من العظمة والسيادة ما لا يطمع معهُ بمزيد؛ أصيبت أخيرًا بعزة نفسها، فسقطت من أسمى درجات المجد إلى حضيض الانحطاط، ولكن هذا السقوط لم يكسر شوكة إبائها ولا أطفأ شعلة الحماسة في صدرها، ولكنه طمى عليها برماد الظلم، فاضطرها إلى الاستكانة والصبر زمنًا طويلًا كان السعد فيهِ مرافقًا للترك، فأخلد العرب إلى ظل شوكتهم عن طيبة خاطر، ورضوا من الغنيمة بصيانة معالم قوميتهم والاحتفاظ بدينهم الشريف، حتى إذا هبت عليهم رياح الاتحاديين في السنوات الأخيرة، وسُلَّ فوق رءوسهم سيف الاستبداد قاطعًا أواصر قوميتهم، مشتتًا شمل عنصرهم، مفككًا عرى دينهم واتحادهم؛ سفت تلك الرياح الرمال المتراكمة، فنفضوا عنهم غبار الاستكانة والضيم، وهبوا في وجه الظلام طالبين الاستقلال بشفار السيوف، ورفع جلالة الملك الحسين أمامهم راية الحرية، فجعلوا حولها من مهجهم وأكبادهم حصونًا ومعاقل لحمايتها.

هذا كل ما يعرفهُ الرأي العام عن ثورة العرب وأسبابها، وقد جهل أمورًا خطيرة الشأن عن ماضي هذه الثورة وحاضرها ومستقبلها، فرأينا أن نجمل منها في هذا الكتاب ما يسمح المقام بنشره الآن على أن نعود إلى طَرْقِ هذا الموضوع قريبًا إن شاء الله.

ولما كانت ثورة العرب من نتائج هذه الحرب، وكانت المسألة العربية من فروع المسألة الشرقية التي أُعْلِنَتْ الحرب الأوروبية من أجلها، رأينا أن نأتي في مقدمة هذا

الكتاب على وصف المسألة الشرقية وبيان فروعها وإظهار مشاكلها؛ نظرًا لعلاقتها العظيمة بمسألة العرب، وذلك ليكون القراء على بينة من سير الأحوال في الماضي والحاضر، وما قد تكون عليه في مستقبل الزمان في غرب آسيا وبلاد البلقان.

الفصل الأول

الحرب الأوروبية والشرق

المسألة الشرقية وأدوارها وفروعها

مسألة البواغيز – مسألة مكدونية – مسألة ألبانيا – مسألة البوسنة والهرسك
مسألة نوفي بازار – مسألة أرمينية

* * *

أُعْلِنَتْ الحرب الأوروبية من أجل الشرق، وستنتهي من أجل الشرق بحل المسألة الشرقية حلًّا نهائيًّا معقولًا، فالعاصفة التي هبت في العالم القديم في سنة ١٩١٤ قد تؤثر في أوروبا من الوجهتين السياسية والاجتماعية، ولكنها ستقلب البلقان وغرب آسيا من حال إلى حال، فتنقرض دول قديمة وتقوم على أنقاضها دول جديدة، وتذل أمم، وتعتز أمم أخرى، ويكون ذلك في مصلحة الكون.

(١) المسألة الشرقية في الماضي

عرَّف رجال السياسة وكبار الكتاب المسألة الشرقية بقولهم: «إنها نزاع شديد بين الأمة التركية والأمم التي تحت حكمها أو التي كانت تحت حكمها من جهة ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لسد أطماعها وتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى»، وقد ظهرت هذه المسألة في عالم الوجود بظهور الترك في أوروبا، وتعقدت بدخول روسيا في

مصاف الدول العظمى وإصرارها على حلها حلًّا يلائم مصلحتها، وكانت بروسيا أكبر مزاحمة لروسيا في أوروبا، وكانت النمسا أكبر مزاحمة لها في الشرق، فنشأ عن ذلك أن بروسيا جعلت تدخل في مسائل الشرق على قلة مصالحها فيه؛ رغبة في عرقلة مساعي روسيا، وأن سياسة النمسا الأوروبية كان محورها الشرق وغايتها جعله في إمن من روسيا جارتها القوية.

وقد كانت المسألة الشرقية سببًا في معظم المشاكل التي وقعت في العالم من القرن السادس عشر إلى اليوم، وبلغت أقصى شدتها لأول مرة في التاريخ بعد انهزام العثمانيين في معركة كالنبرج وإبرام «المحالفة المقدسة» التي كانت ترمي إلى طرد الترك من أوروبا وتقسيم الشرق بين روسيا والنمسا، وقد أسفرت تلك المحالفة عن حروب عديدة مع الدولة العثمانية انتهت بمعاهدتي كارلوفيتز (سنة ١٦٩٩) وباساروفيتز (سنة ١٧١٨) اللتين جلا الترك بمقتضاهما عن هنغاريا وترنسلفانيا واسكلافونيا وبوداليا وقسم من البوسنة وقسم آخر من سربيا.

ولم تكتفِ دول «المحالفة المقدسة» بضم هذه البلاد المترامية الأطراف إلى أملاكها، بل رأت أن الوقت قد حان للقضاء على الدولة العثمانية قضاء مبرمًا، فاتفقت على تقسيمها، وكادت تنجح في تحقيق آمالها لولا مداخلة فرنسا في الأمر ونجاح المركيز دي فيلنيف سفيرها في الأستانة في إبرام معاهدة بلغراد على ما يوافق مصلحة الدولة العثمانية.

وفي سنة ١٧٦٨ تعقدت مشكلة بولندا التي كانت فرعًا من المسألة الشرقية، فأصرت الإمبراطورة كاترينا على تعيين البرنس بونيانوفيسكي خلفًا للملك أوغست الثالث على عرش بولندا، فوقفت فرنسا في وجهها وأقنعت السلطان مصطفى الثالث بإعلان الحرب عليها، ففعل؛ لأنه رأى ذلك في مصلحة بلاده. وقد أسفرت تلك الحرب عن انتصار الروس على نهر الدانوب وحرق الأسطول العثماني في معركة جشمة الشهيرة (سنة ١٧٧٠) وإبرام معاهدة كوجوك قينارجي (١٧٧٤) التي وضعت الدولة العثمانية تحت رحمة روسيا، فجعلت تعمل على خرابها من الخارج والداخل أيضًا، فاتفقت مع النمسا سنة ١٧٧٢ على جعل الأستانة عاصمة إمبراطورية يونانية جديدة تحت سلطتها، وأخذت تحث العناصر البلقانية على إعلان الثورة وخلع النير التركي عن أعناقها، وكان أساس معاهدة سنة ١٧٧٢ بين روسيا والنمسا أن تُعْطَى روسيا البلقان الشرقي؛ أي مولدافيا وفلاخيا وبلغاريا والدردنيل وأن تحتل النمسا البلقان الغربي؛ أي سربيا والبوسنة

والهرسك ومكدونية وألبانيا، وعُدِّلَتْ هذه المعاهدة سنة ١٧٨١ على أساس استقلال العناصر البلقانية تحت سيادة روسيا والنمسا، ولكن الدول العظمى لم تكن لتسمح بهذا التقسيم من غير أن تأخذ حصتها، فكلفت فرنسا الكونت دي سوكور أن يتفق مع روسيا على تقسيم الشرق وأن يتنازل لها وللنمسا عن البلقان مقابل ضم سورية ومصر إلى فرنسا.

وقد تعذر عليهم هذا الاتفاق لأسباب لا مجال لذكرها الآن، فطلبت فرنسا مساعدة إنكلترا للوقوف في وجه الروس والنمسويين فلم تُجِبْهَا إلى طلبها، واضطرت الدولة العثمانية أن تفدي نفسها بمقاطعة القرم في معاهدة سنة ١٧٨٣، وفي سنة ١٧٨٧ دخل العثمانيون في حرب جديدة مع روسيا والنمسا بسبب بولندا، ففازوا في بدء الأمر على الروس وقهروا النمسويين في معارك عديدة، ولكن خانهم الحظ في النهاية، فانهزمت جيوشهم شر انهزام واضطروا إلى إبرام معاهدة ياسي، وقد رضيت الإمبراطورة كاترينا بتلك المعاهدة؛ لأن أنظارها كانت متجهة إلى بولندا في ذلك الحين.

(٢) المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر

قال بونبارت بعد انتصاراته الشهيرة في إيطاليا للمسيو بوريان صديقه وكاتم أسراره: «إن أوروبا وكر فأر، وليس ثمت إمبراطوريات عظيمة إلا في الشرق.» وقد وجه ذلك الفاتح العظيم كل أفكاره إلى الشرق، فاجتاح مصر وهاجم سورية، ولو لم تقف أمامه حصون عكا لصار الشرق على غير ما نعرفه اليوم.

ثم عاد بونبارت إلى فرنسا وأنشأ تلك الإمبراطورية العظيمة بعدما دوخ أوروبا كلها، ولكن أفكاره لم تتحول عن الشرق فاتفق مع قيصر روسيا على تقسيمه في معاهدة تلست، وكتب إليه سنة ١٨٠٨ يقول: «يجب أن نكون أعظم مما نحن بالرغم عنا؛ لأن الشرق يحتاج إلى رجال عظام»، ولو أخلص نبوليون لقيصر روسيا لاتفقا على تقسيم الشرق، ولكنه كان يعلله بهذه الآمال لحمله على محاربة إنكلترا رغبة منه في انتهاز الفرصة لتدويخ الشرق وسد أطماعهِ، فما لبث أن اختلف معه على أمرين: الأول عزمه على توسيع بولندا، والثاني إصراره على منع الروس من الوصول إلى الأستانة والدردنيل.

وقد خرجت الدولة العثمانية سليمة من حروب نبوليون الكبير، ولكن مساعي روسيا والثورة الفرنسوية بثت في الأمم البلقانية فكرة جديدة، هي فكرة الثورة والاستقلال،

فبينما كانت الدول الأوروبية تساوم في بيعها وشرائها كمتاع في السوق كانت هي تستفيق من سباتها وتعد أسباب استقلالها، وكانت الدولة العثمانية قبل سنة ١٨١٢ تحارب أعداءها الذين في الخارج فقط، فصارت بعد ذلك التاريخ تحارب الأمم التي تحت حكمها — أيضًا — محاولة القضاء على فكرة الاستقلال في تلك الأمم تارة بالوعد وتارة بالوعيد، ولكنها فشلت في مساعيها لسوء سياسة ولاة الأمر فيها، وكانت نتيجة ذلك استقلال سربيا والجبل الأسود واليونان ورومانيا وبلغاريا.

هذا وقد سقط نبوليون الكبير، وتضعضعت إمبراطوريته المترامية الأطراف، فاستعادت النمسا وبروسيا نفوذهما، وأخذتا تحذوان حذو ذلك الفاتح العظيم لامتلاك العالم، ولكن المسألة الشرقية فرقت بين أعداء نبوليون بعد اتفاقهم عليه، فمنعت إنكلترا روسيا من عبور نهري الفستولا ونستر والتقدم إلى الأستانة، وأوجست النمسا خوفًا من تقدم الروس إلى جبال كرباتيا والبروسيين إلى بوهيميا، واتفقت إنكلترا والنمسا على روسيا وبروسيا اللتين اتفقتا على تقسيم الشرق في معاهدة كاليش، فاستردت فرنسا بعض نفوذها بسبب هذا الخلاف بين أعدائها، وكانت سياستها ترمي إلى الوقوف في وجه النمسويين في البلقان وفي إيطاليا وإلى منع بروسيا من سيادة الممالك الألمانية، وقد ظهر استقلال العناصر البلقانية في مصلحة روسيا في بادئ الأمر، فغضبت إنكلترا لذلك وجعلت تتقرب من الدولة العثمانية، فعاونتها على محمد علي الذي كانت تؤيده فرنسا، وحاربت روسيا معها في حرب القرم الشهيرة، وجاء مؤتمر باريس فختم تلك الحرب في مصلحة الدول كلها، فسلمت روسيا بعد انكسارها، وزال الخطر مؤقتًا عن الدولة العثمانية، وحبست إنكلترا الأسطول الروسي في البحر الأسود، وتمكنت بروسيا من تقوية نفوذها في ألمانيا، ووعدت الأمة الإيطالية وبعض الأمم البلقانية بالاستقلال، وأما فرنسا فعملت على إزالة كل آثار مؤتمر فينا، ونجحت في ذلك، ولكنها نزعت من يدها السلاح الذي استعمله تليران في ذلك المؤتمر، وهو جعل الممالك الألمانية الصغرى في جانبها، فسمحت للنمسا وبروسيا بسد أطماعهما في الدنمرك (١٨٦٤)، وغضت الطرف عن انضمام ممالك ألمانيا الشمالية إلى بروسيا «هس وهانوفر وفرنكفورت سنة ١٨٦٦»، فكانت نتيجة ذلك أنها تركت وشأنها في حرب السبعين التي خاضت غمارها من غير استعداد بعدما سمحت لبروسيا في بسط سيادتها على ألمانيا.

(٣) المسألة الشرقية بعد مؤتمر برلين

وقد كان مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ شؤمًا على أوروبا، ولا سيما البلقان، فما المسائل التي استبهمت واستغلق حلها، والحروب التي ثار نقعها وعظمت مصائبها؛ إلا نتائج ذلك المؤتمر. وإذا أراد مؤرخ محقق أن يكتب تاريخ الحرب الناشئة اليوم رجع في عللها وأسبابها إلى ذلك المؤتمر المشئوم الذي قضى على آمال بلغاريا قبل نشأتها بمنعها من بلوغ البحر المتوسط وجعل سربيا الدولة السلافية تحت رحمة الجرمان بإقفاله طريق الأدرياتيك في وجهها، وإيذانه للنمسا باحتلال البوسنة والهرسك تقريرًا للأمن فيهما، وأضاع على الجبل الأسود ثلثي الأملاك التي كان يؤمل الاستيلاء عليها بحصره في بلاد جبلية لا مورد للرزق فيها، واضطر رومانيا إلى التنازل عن بسارابيا مقابل مستنقعات دوبريجه ووضع الدولة العثمانية تحت وصاية أوروبا، وسمح للدول العظمى أن تدخل في شئونها، وقضى على آمال اليونان — لأنها كما قال اللورد بيكونسفيلد مازحًا: ذات مستقبل مجيد لا تخسر شيئًا من الانتظار. فترك بذلك مواطن للخلل وأسبابًا لتشعب المطامع، نشأ عنها اشتداد الخلاف بين الصقالبة والجرمان واحتكاك مصالحهما في البلقان احتكاكًا زاد المسألة الشرقية تعقيدًا وأضرم نار هذه الحرب الآكلة.

(٤) البلقان والمسألة الشرقية

البلقان أساس المسألة الشرقية ومحورها، بلاد واقعة إلى الجنوب الشرقي من أوروبا، تشمل البوسنة والهرسك وسربيا وألبانيا واليونان ومكدونية وبلغاريا وتراقية ورومانيا، وتقطن فيها أمم عديدة يصعب على الكاتب أن يعين أماكنها الحالية تعيينًا دقيقًا لكثرة الانقلابات التي طرأت عليها، ولكن الأمم البلقانية كانت غيورة على قوميتها، فحفظتها سليمة جهد طاقتها، فاليونانيون بعدما زال ملكهم قصد معظمهم جنوب البلقان، واستوطنوا المورة وتساليا والقسم الجنوبي من مكدونية وألبانيا، ولما غزا الهون أوروبا اضطر قسم من الصقالبة إلى عبور الدانوب في القرن الخامس للميلاد، فحل الكرواتيون على ضفاف الساف والداف، وفي أستريا ودلماسيا، ونزل السربيون فيما يلي ذلك جنوبًا، ثم عبر البلغاريون نهر الدانوب ونزلوا في سهول البلقان الجنوبية والشمالية.

والبلغاريون كالهون والمجر والترك من التورانيين الذين أتوا من آسيا، وكانت هذه الأمم تزحزح بعضها بعضًا على التوالي، وهذا يوضح اختلافها الحالي على تعيين حدود

البلاد التي تقطن فيها، ففي القرن العاشر للميلاد انتصر البلغاريون على السربيين، وبسطوا ملكهم في القرن الحادي عشر على مكدونية وألبانيا حتى على ضواحي الأستانة، ثم قامت دولة الكرواتيين، فقهرت البلغاريين، وامتنعت في البلاد التي يسكنها السربيون اليوم. وفي القرن الثاني عشر تأسست الدولة الفلاخية البلغارية، فاعتزت زمنًا طويلًا، وعقبتها الدولة السربية، فبلغت ذروة العزة والمنعة في القرن الرابع عشر للميلاد، وكانت مملكة دوشان الأكبر تمتد من ضواحي الأستانة إلى ما وراء مكدونية وسربيا.

وبدأ الترك يهددون أوروبا بجيوشهم الجرارة في القرن الرابع عشر للميلاد، فاتحد السربيون والفلاخ والكرواتيون والبلغاريون عليهم، ولكنهم غُلِبُوا على أمرهم في معركة قوصوه الشهيرة سنة ١٣٨٩، وصار البلقان كله تركيًّا بعد سقوط الأستانة سنة ١٤٥٣.

ولما أخذت دولة الترك تنحط في أوروبا جاهر معظم العناصر البلقانية بفكرة الاستقلال، وكانت النمسا تطمع بأن ترث الدولة العثمانية، فساعدت على محو هذه الفكرة، ووقفت روسيا في وجهها بحجة أنها حامية الصقالبة والأرثوذكس، فنشأ عن ذلك خلاف شديد بين هاتين الدولتين. وهذه خلاصة الحوادث التي وقعت في البلقان في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. ففي عهد الأمير ميلان إبرانوفيتش الذي صار بعد ذلك ملكًا على سربيا ثار سكان البوسنة على الدولة العثمانية، فساعدهم السربيون، ولكنهم غُلِبُوا على أمرهم وانهزمت جيوشهم شر انهزام سنة ١٨٧٧، ولما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في السنة التالية من أجل بلغاريا هبَّ السربيون إلى مساعدتها، وشاركوها في انتصارها، فأعاضتهم من ذلك في معاهدة سان استفانو (٣ مارس سنة ١٨٧٨) بإعطائهم بلدة نيش ومقاطعة نوفي بازار، وأعطت إمارة بلغاريا قسمًا من مكدونية على شاطئ بحر إيجة وبلدتي فرانيا وبروت، ولكن هذه المعاهدة لم تُرْضِ الدول العظمى، ولا سيما النمسا التي تطمع بسلانيك، فاتفقت مع ألمانيا في معاهدة برلين على إضعاف نفوذ روسيا في البلقان وإلقاء الشقاق بين الدول البلقانية، فأعطت سربيا بروت وفرانيا، وأخذت منها البوسنة والهرسك، وأكرهت بلغاريا على التنازل عن دوبريجه لرومانيا مقابل بسارابيا التي ضمتها روسيا إلى أملاكها، فبذرت بذلك بذور الشقاق بين الأمم البلقانية، ولا سيما البلغاريين والسربيين.

والبلغاريون ليسوا من العنصر السلافي كما يتوهم فريق من الناس، بل إن استبداد الترك جعلهم في الماضي يتقربون من السربيين للوقوف في وجه عدوهما كليهما، وقد حافظ السربيون على استقلالهم الديني في حين أن الكنيسة اليونانية ضمت البلغاريين

إليها، وكادت تقضي على كيانهم الديني والقومي، فلما عبر الروس نهر الدانوب تنبه البلغاريون لأنفسهم ورغبوا في توحيد قوميتهم، فوجدوا أن العصيان لا ينفعهم؛ لقربهم من الأستانة بخلاف السربيين، ورأوا أن خير الطرق المؤدية إلى غايتهم — ولو بعد حين — هي الانفصال عن الكنيسة اليونانية، وقد قابل الباب العالي طلبهم بارتياح عظيم، فعين الأكسرخس رئيسًا دينيًّا لهم سنة ١٨٧٠ رغبة منه في إلقاء الشقاق بين الأمتين الجارتين، فنجح نجاحًا تامًّا، وكان أول عمل عمله بطريرك الأستانة أنه ألقى حرمًا دينيًّا صارمًا على البلغاريين وعلى رئيس كنيستهم الجديد.

وكانت النمسا من جهة أخرى لا تألو جهدًا في إلقاء بذور الشقاق بين البلغاريين والسربيين، فقامت تقنع السربيين بأن معظم سكان مكدونية منهم، وأن البلغاريين هم الأقلية فيها، قاصدة بذلك أن تحول أنظارهم عن البوسنة والهرسك وتوجهها إلى مكدونية، ولما أعلنت الروملي الشرقية انضمامها إلى إمارة بلغاريا حملت النمسا حكومة بلغراد على إعلان الحرب عليها بحجة اختلال التوازن في البلقان، ولكن الأمير ألكسندر باتنبرج أمير بلغاريا في ذلك الحين كان قائدًا محنكًا، فانتصر على السربيين انتصارًا باهرًا، واحتل بلدتي بروت وفرانيا، ولم يجل عنهما إلا بعد دخول النمسا فعلًا في الأمر.

وقد أُعْلِنَ الدستور العثماني والحال كما تقدم في البلقان، فرأت فيه الأمم البلقانية قضاء على آمالها، وكانت الحال في مكدونية من جهة أخرى تزداد سوءًا من يوم إلى يوم، فأصدرت الجمعيات الثوروية فيها في أواخر نوفمبر سنة ١٩١١ منشورًا حولت فيه أنظار العالم المتمدن إلى ظلم الترك لغير المسلمين، واضطرت بلغاريا وسربيا إلى إبرام معاهدة سرية ضد الدولة العثمانية في ١٣ مارس سنة ١٩١٢ يُعْمَل بها إلى آخر سنة ١٩٢٠، وقد جاء في تلك المعاهدة أن بلغاريا تُعْطَى الأملاك الواقعة شرقي نهر ستروما، وأن سربيا تُعْطَى البلاد الواقعة شمالي جبال شار بلانينا وغربيها، وأنهما تلجآن إلى تحكيم القيصر في حل كل خلاف يقع بينهما، وأما من الوجهة العسكرية فقد تكفلت سربيا بحشد ١٥٠ ألف جندي، وتكفلت بلغاريا بمهاجمة العثمانيين بمائتي ألف جندي، وتكفلت الدولتان بإعلان الحرب على رومانيا إذا شدت أزر العثمانيين، وفي ٢٠ مايو سنة ١٩١٢ وَقَّعَتْ اليونان على هذه المعاهدة، وفي ٨ أكتوبر أعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية، وفي ١٨ منه أُعْلِنَتْ الحرب البلقانية الأولى.

(١-٤) المسألة الشرقية وحروب البلقان

ولم يمضِ على إعلان هذه الحرب شهر ونصف حتى اضطرت الدولة العثمانية أن تطلب من الدول التوسط في أمر الصلح، فعُقِدَتْ الهدنة في ٣ دسمبر، وافْتُتِحَ مؤتمر السفراء في لندن في ١٦ منه برئاسة السير إدورد جراي، وظلت المفاوضات أكثر من شهر، فكانت نتيجتها أن الدولة العثمانية اعترفت بضم مكدونية وأبيروس وجزيرة كريت وقسم من بلاد تراقية إلى البلقانيين، ولكنها أبت أن تتنازل عن أدرنة وعن جزر بحر إيجة، فرفع سفراء الدول العظمى في الأستانة بلاغًا مشتركًا إلى الباب العالي ألحوا فيه بتسليم أدرنة إلى بلغاريا وتحكيم الدول العظمى في مسألة الجزر، وكان بلاغهم هذا غاية في الشدة، فرأى كامل باشا — الصدر الأعظم في ذلك الحين — أن يستشير عظماء الدولة وقوادها ورجالها السياسيين في الأمر، فدعاهم إلى مجلس عالٍ عُقِدَ في دولة باغجة برئاسة جلالة السلطان في ٢٢ يناير سنة ١٩١٣، فقرر هذا المجلس أن يقبل مطالب الدول العظمى ويبرم الصلح في الحال.

ولكن وزارة كامل باشا سقطت في اليوم التالي إثر حادثة الباب العالي، وخلفتها وزارة محمود شوكت باشا الاتحادية، فأبلغت الدول العظمى في ٣٠ يناير ١٩١٣ رغبتها في المحافظة على أدرنة مفتاح الأستانة وعلى جزر بحر إيجة، وانقطعت المفاوضات في لندن بعد هذا البلاغ، وعادت الحرب فاتقدت نارها اتقادًا شديدًا اضطر الدولة العثمانية أن تطلب توسط الدول لإبرام الصلح، ولو على الأساس الجديد الذي وضعه البلقانيون، وهو جعل حدودهم الشرقية خطًّا يمتد من رودستو على بحر مرمرا إلى ملتره بروني شرقي ميديا على البحر الأسود.

ولما رأت النمسا أن أشقودرة أوشكت أن تسقط بيد الجبليين طلبت رفع الحصار عنها (في ٢٥ مارس سنة ١٩١٣)، ثم جعلت تتهدد الجبل الأسود بالحرب بعدما حشدت جيوشها على حدوده بحجة سقوط القنابل على قنصليتها في أشقودرة ومقتل قسيس نمسوي في أيبك، وقد أقنعت حكومة فينا الدول العظمى بوجوب إكراه الجبل الأسود على الخضوع لمشيئتها، واتفقت معها على إعلان الحصر البحري على شواطئه، وفي تلك الأثناء سقطت أشقودرة بيد الجبليين، فأغضب ذلك النمسا، وتهددت حكومة الجبل الأسود بالحرب.

وقد رأت روسيا أن تخضع للنمسا مرة ثانية بعد سنة ١٩٠٩ خوفًا من وقوع حرب أوروبية عامة، فأقنعت الجبل الأسود بالجلاء عن أشقودرة إكرامًا للنمسا، وكان لدخول

النمسا في شئون البلقان أحسن وقع في الأستانة؛ فجرأ حكومتها على رفض مطالب البلقانيين بجعل حدودهم الشرقية خط رودستو-ملترة بروني، واضطر البلقانيون إلى إبرام الصلح في لندن في ٣٠ مايو سنة ١٩١٣ على الأساس الذي رضيت به وزارة كامل باشا، وهو جعل حدود تركيا في أوروبا خطًّا مستقيمًا يمتد من أينوس على بحر إيجة إلى ميديا على البحر الأسود، ولكن صلح لندن لم يضع حدًّا للمشاكل البلقانية، فتعقدت مسألة ألبانيا التي أوجدتها النمسا لمنع سربيا من الوصول إلى الأدرياتيك، وكانت هذه المسألة مسألة دولية؛ لأن الدول العظمى قبلن أن يكن حكمًا فيها بمقتضى معاهدة لندن، ولأن كلا منهن ذات مصالح لا تستطيع إغفالها.

وفي تلك الأثناء قام الخلاف فيما بين البلقانيين، فطلبت بلغاريا من اليونان أن تجلو عن سلانيك وتسلمها إليها، فرفضت اليونان هذا الطلب، وقالت إنها لا تسلم سلانيك إلا بالقوة، وكانت معاهدة ١٣ مارس سنة ١٩١٢ بين بلغاريا وسربيا تقضي بتحكيم قيصر روسيا في قومانوفو واسكوب وكيتشافو ودبرا وتقسيمها بين الدولتين، ولكن سربيا انتهزت فرصة انشغال البلغاريين أمام جتالجة، وقالت إنها احتلت هذه المدن احتلالًا دائمًا ثم رفضت أن تعمل بمقتضى معاهدتها مع بلغاريا بحجة أنها اضطرت إلى الرضى باستقلال ألبانيا لأسباب دولية، وأنها قامت بأكثر مما يجب عليها في محاربة العثمانيين، وقد أوصى القيصر الفريقين بالحكمة والتأني ودعاهما إلى قبول حكمه، فقالت بلغاريا (في ١١ يونيو سنة ١٩١٢) إنها تقبل حكمه في الأراضي التي ورد ذكرها في المعاهدة فقط، وبعدما تجلو الجيوش السربية عنها، وأما سربيا فقد قبلت التحكيم، ولكنها رفضت الجلاء عن الأملاك الْمُتَنَازَع عليها.

وقد أفهمت رومانيا بلغاريا في تلك الأثناء أنها لا تكتفي بمدينة سلستره التي احتلتها بمقتضى معاهدة بطرسبرغ (١٥ أبريل سنة ١٩١٣) بل تطلب تعويضًا آخر إذا وقعت الحرب بين البلقانيين، ولكن بلغاريا لم تعبأ بتهديدها، فأقدمت على الحرب مع علمها بأنها مهددة من الجهات الأربع؛ من العثمانيين شرقًا، والرومانيين شمالًا، والسربيين غربًا، واليونانيين جنوبًا.

وفي ٣٠ يوليو طلبت بلغاريا الصلح، واتفقت مع أعدائها على عقد مؤتمر بلقاني في بخارست.

(٤-٢) معاهدة بخارست

وفي ١٠ أغسطس سنة ١٩١٣ أُبْرِمَتْ معاهدة بخارست التي وُضِعَتْ بموجبها خريطة البلقان على ما نعرفها قبل الحرب الأوروبية.

وكانت تلك المعاهدة شؤمًا على الشرق؛ فأضرمت نار الحقد بين البلقانيين، ووسعت المجال لأطماعهم وتباين مصالحهم، ولم تحل مشكلًا واحدًا من مشاكلهم الداخلية، بل اكتفت بصلح وقتي أقامتهُ على أساس فاسد لا يثبت أمام زوابع السياسة ولا يقوى على مقاومة تيار الضغائن والأحقاد؛ لأنها اضطرت فريقًا منهم إلى ترك أراضي واسعة كانت له، أو كان يؤمل ضمها إلى بلاده على مبدأ العنصرية، ولم تحقق آمال الفريق الآخر في تقسيم تلك الأراضي تقسيمًا عادلًا يتفق مع مصلحة العناصر التي فيها.

(٤-٣) أوروبا بعد معاهدة بخارست

وقد ظنت الدول العظمى أن نجاح مؤتمر بخارست في تسوية المشاكل البلقانية كان باهرًا جدًّا، فوجهت أنظارها إلى المسألة الشرقية، ورغبت في حلها حلًّا نهائيًّا باتًّا، فتم الاتفاق بين النمسا وسربيا بشأن سكة حديد البلقان في أوائل مايو سنة ١٩١٤، ونالت إيطاليا امتيازًا بإنشاء سكة حديد بين أزمير وآيدين في ١٧ مايو مقابل جلائها عن الجزر العثمانية التي احتلتها في الحرب الطرابلسية، فصرح المركيز دي سان جوليانو في مجلس النواب الإيطالي في ٢٦ مايو بأن «سياسة إيطاليا في الشرق الأدنى ترمي إلى المحافظة على سلامة الأملاك العثمانية»، ونشرت صحف إنكلترا وفرنسا وروسيا في ٢١ أبريل و٢٣ منهُ إثر مقابلة ملك إنكلترا لرئيس الجمهورية الفرنسية، والاجتماع الذي عقده سفراء دول الاتفاق الثلاثي؛ بلاغًا رسميًّا جاء فيه:

> إن الدول الثلاث ستبذل جهدها في المحافظة على التوازن الأوروبي والسلم العام.

ونشرت صحف ألمانيا وإيطاليا والنمسا بلاغًا رسميًّا إثر اجتماع وزير خارجية إيطاليا بوزير خارجية النمسا في ابازيا، وزيارة الإمبراطور ولهلم للإمبراطور فرنز جوزف في فينا في ٢٢ مارس سنة ١٩١٤، أو للملك فكتور عمانوئيل في البندقية. وقد ورد في ذلك البلاغ «أن دول التحالف الثلاثي اتفقت على حل المشاكل العديدة التي نشأت عن

الأزمة البلقانية حلًّا سلميًّا»، ثم اتفقت إنكلترا وألمانيا بشأن سكة حديد بغداد والملاحة في دجلة، واتفقت فرنسا وألمانيا على سكك حديد الأناضول، وأجابت الدولة العثمانية روسيا إلى مطالبها في شأن أرمينية، وقبلت اقتراح الدول العظمى بإصلاح ولايات الأناضول الشرقية.

ولكن مسألة ألبانيا مع ذلك كله كانت تزداد إشكالًا من يوم إلى يوم؛ لأن فشل البرنس فيد في حفظ الأمن فيها جعل إيطاليا والنمسا في نزاع دائم بسبب أطماعهما وفتح عين اليونان على بلاد أبيروس التي اغْتُصِبَتْ منها، ونبه بلغاريا إلى انتهاز الفرص التي تسنح للانتقام من جارتيها سربيا واليونان.

وقد وصف أحد كبار الكتاب السياسيين حالة أوروبا في تلك الأثناء، فقال: «إن الموقف الحالي مع ظواهره السلمية عبارة عن اختلال التوازن في الشرق اختلالًا لا تستطيع الدول إغفاله، وتنازع المصالح الأوروبية تنازعًا لا سبيل إلى اجتنابه، وارتباك المسائل الشرقية ارتباكًا لا يزول إلا بامتشاق الحسام.»

(٥) فروع المسألة الشرقية

لقد عرَّفت المسألة الشرقية مع من عرَّفها من السياسيين بأنها: «نزاع شديد بين الأمة التركية والأمم التي تحت حكمها أو التي كانت تحت حكمها من جهة، ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لسد أطماعها وتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى»، ولهذه المسألة المعقدة التي كانت السبب الجوهري في إعلان الحرب الأوروبية فروع عديدة، أهمها: المسألة العربية — وسنأتي على وصفها في الفصول التالية — ومسألة البواغيز، ومسألة مكدونية، ومسألة ألبانيا، ومسألة البوسنة والهرسك، ومسألة نوفي بازار، والمسألة الأرمنية.

(٥-١) مسألة البواغيز

فمسألة البواغيز يمكن إجمالها فيما يلي: هل تفتح البواغيز — البسفور والدردنيل — للبوارج الروسية فقط أو لبوارج جميع الدول؛ ففتحها لروسيا فقط يجعل حكومة الأستانة حارسًا على بابها، بل في قبضة يدها، وفتحها لبوارج جميع الدول يضر روسيا ضررًا عظيمًا، ويترك الأستانة والدردنيل عرضة لأطماع الدول صاحبات الأطماع في الشرق

الأدنى، وإذا أُعْطِيَتْ روسيا البواغيز والأستانة، فكيف يكون حال رومانيا وبلغاريا؟ بل حال الدول العظمى ذوات المصالح في البحر المتوسط؟ وإذا ظلت البواغيز والأستانة بيد العثمانيين فالضرر عظيم على كل الدول، ولا سيما روسيا ورومانيا، فكيفما أدرنا الطرف نرى أن مسألة البواغيز كانت ولا تزال من أعظم مسائل الشرق الأدنى للأسباب التي نبسطها في سياق كلامنا.

لما كان البحر الأسود بحيرة عثمانية، كان الباب العالي حرًّا في إقفاله وفتحه والتصرف فيه كيفما يشاء، ولكن وصول روسيا إليه وقيام دولتين جديدتين على شاطئه الغربي وضعف الدولة العثمانية ... إلى غير ذلك من الحوادث التي وقعت في القرن الماضي؛ غيرت تلك الحال من وجهتيها السياسية والقانونية تغييرًا تامًّا زاد في إشكالها وغموضها. فالقوانين الدولية تقضي من جهة «بجعل البحار المشتركة حرة للجميع على السواء»، وتعترف من جهة أخرى «بأن لكل دولة من الدول حق الانتفاع بأملاكها دفاعًا عن كيانها»، ولكن هذين المبدأين الصحيحين لا يُسْتَطَاع تطبيقهما على البواغيز؛ لأن جعل البحر الأسود حرًّا بحجة أنه بحر مشترك طبقًا للمبدأ الأول ينفي المبدأ الثاني الذي يمنح الدولة العثمانية حق الانتفاع بأملاكها، والعكس بالعكس، هذه هي عقدة العقد من الوجهة القانونية.

وأما من الوجهة السياسية فإن لكل دولة من الدول العظمى والدول البلقانية رأيًا في المسألة لا تحيد عنه، ومصلحة لا تريد إغفالها، ولا شيء يوضح للقراء تباين المصالح الدولية في هذه المسألة أكثر من مراجعة تاريخها في القرنين الماضيين، فإن بطرس الأكبر لما احتل شواطئ بحر أزوف عرض على بساط البحث مسألة الملاحة الحرة في البحر الأسود، وكان هذا البحر لا يزال عثمانيًّا، فرفض الباب العالي ذلك بتاتًا، ومنع روسيا في معاهدة بلغراد ١٨ سبتمبر ١٧٣٩ من إنشاء سفن حربية في بحر أزوف والبحر الأسود. وقد وضعت روسيا نصب عينيها مسألة الوصول إلى البحر الأسود من ذلك الحين، فتمكنت بعد انتصارات الإمبراطورة كاترينا الثانية على العثمانيين من إبرام معاهدة كوجوك قينارجي (١٠ يوليو سنة ١٧٧٤) وجعل الملاحة حرة في البواغيز وفتح مضيق الدردنيل لأسطولها في البحر المتوسط مع بقاء البسفور مقفلًا في وجهِهِ.

وفي القرن الثامن عشر اتفقت الدولة العثمانية مع روسيا، وأبرمت معها معاهدتين؛ الأولى في ٢٣ دسمبر سنة ١٧٩٨، والثانية في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٥ تكفلت بهما بفتح البواغير للأسطول الروسي ومنع البوارج الأجنبية من دخول البحر الأسود.

وفي ٥ يناير سنة ١٨٠٨ فتحت إنكلترا موضوع الدردنيل ثانية، وأبرمت معاهدة جديدة مع الباب العالي وبعض الدول العظمى منعت بموجبها كل السفن غير العثمانية من دخول البحر الأسود أو الخروج منه، فغلَّ الباب العالي يده بهذه المعاهدات المتناقضة، وقضى على حرية تصرفِهِ في أملاكه، وكانت هذه المعاهدة ضد روسيا وفي مصلحة دول الغرب البحرية، ولكن روسيا انتقمت لنفسها بإكراه الباب العالي في معاهدة هنكار اسكله سي (٢٦ يوليو سنة ١٨٣٣) على إقفال البواغيز في وجه الدول البحرية التي تعلن الحرب عليها.

وقد بات الدردنيل من ذلك الحين مرشحًا للسياسة الأوروبية، فكانت الدول العظمى تدخل في أمره تارة لمصلحة روسيا، وتارة ضدها، متبعة تقلب الحال.

وفي سنة ١٨٤١ تمكنت إنكلترا من إلغاء معاهدة هنكار اسكله سي، وأبرمت معاهدة لندن (١٣ يونيو سنة ١٨٤١) التي تقضي بإقفال البواغيز وإقامة الباب العالي «بوليسًا» على الدردنيل والبسفور، وكانت معاهدة لندن موجهة ضد روسيا؛ لأنها لم تبحث في إقفال البواغيز إلا في إبان السلم، فكأنها تركت للباب العالي حرية فتحِهِ في إبان الحرب للدولة التي تهاجم روسيا من البحر الأسود، وهذا ما وقع فعلًا في سنة ١٨٤٥ لما دخلت أساطيل الحلفاء في ذلك الحين بحر مرمرا لمهاجمة شواطئ روسيا.

وفي سنة ١٨٥٦ أُبْرِمَتْ معاهدة باريس، وجاء فيها:

> أن البحر الأسود بحر محايد لا تدخله البوارج الحربية، ولا يجوز لروسيا إنشاء ترسانات على شواطئه.
>
> (المادتان ١١ و١٢.)

وفُتِحَتْ مسألة البواغيز في معاهدتي لندن (سنة ١٨٧١) وبرلين (سنة ١٨٧٨) فاتفقت الدول على أن «تبقى مقفلة وأن لا تدخلها البوارج الحربية إلا باتفاق الدول العظمى وفي الأحوال المعينة في المعاهدات السابقة.»

ولما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية ووصلت جيوشها إلى أيا استفانوس دخلت الأساطيل البريطانية مضيق الدردنيل لمنع الروس من الوصول إلى الأستانة بحجة أن معاهدتي لندن وبرلين تركتا للباب العالي حرية فتح البواغيز أو إقفالها حسبما تقتضي الأحوال، ولكن إنكلترا عينها منعت الباب العالي سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٤ من

فتح البواغيز للأسطول الروسي بحجة أن معاهدتي لندن وبرلين تقضيان عليه بتنفيذ قرارات الدول العظمى في هذا الشأن.

فهذا التناقض الغريب في تفسير المعاهدات التي تتعلق بالبواغيز يدل على أن الباب العالي كان يسير دائمًا مع تيار السياسة، وأن المعاهدات لم يكن لها شأن في نظره ونظر الدول العظمى أيضًا؛ فإن الأساطيل الإنكليزية وأساطيل الدول المتحالفة دخلت البواغيز في سني ١٨٠٧ و١٨٥٤ و١٨٧٨ باسم معاهدتي لندن وبرلين، ثم مُنِعَتْ الأساطيل الروسية من دخولها سنة ١٩٠٢ والخروج منها سنة ١٩٠٤ باسم تينك المعاهدتين أيضًا، ودخلتهما البارجتان الألمانيتان جوبن وبرسلو في ١١ أغسطس بالحجة عينها.

(٥-٢) مسألة مكدونية

نشأت المسألة المكدونية عن تعذر قسمة مكدونية على مبدأ العنصرية لاختلاط العناصر فيها اختلاطًا لا يمكن معه حسم الأشكال حسمًا مرضيًا عادلًا.

وقد اتفقت روسيا والنمسا في مقابلة الإمبراطورين في مرسزتاغ على تعيين لجنة مختلطة لإحصاء العناصر في مكدونية على الأساس الذي جرت عليه اللجنة الأوروبية في الروملي الشرقية سنة ١٨٧٨، ولكن هذه اللجنة لم تُعَيَّن، ولو عُيِّنَتْ لذهبت أتعابها أدراج الرياح، يؤيد ذلك ما نراهُ من اختلاف الحكومات البلقانية والإحصائيين الأجانب أنفسهم في: هل عدد سكان مكدونية البلغاريين مليونان أو هو مليون ونصف أو هو ستون ألفًا؟ وهل عدد الفلاخ مائة ألف أو سبعون ألفًا؟ وهل عدد السربيين مليونان وسبعون ألفًا، أو ليس هناك سربيون على الإطلاق؟ وهل عدد الترك ستمائة ألف أو مائة وعشرون ألفًا؟ وهل عدد الألبانيين ثلاثمائة ألف أو مائة ألف فقط؟

على أن هذه الفروق العظيمة في هذه الأرقام أثبتها الإحصائيون في كتبهم وتقاريرهم، وأيدوا كل رقم منها بحجج زعموا صحتها وأسندوها إلى أدلة أوردوها، وأما سبب هذا التناقض العجيب فيرجع إلى أن العناصر البلقانية كانت تزحزح بعضها بعضًا على التوالي قبل دخول الترك في أوروبا، ثم اندمجت فصارت أمة واحدة في الظاهر تجمعها جامعة الدين، وظلت على هذا المنوال إلى أن انبثق لها فجر الحرية والاستقلال في أوائل القرن الماضي.

وبديهي أن الأدوار العديدة والانقلابات الكثيرة التي طرأت على العناصر المكدونية أزالت كل الفروق التي كانت بينها؛ فاللغة لم تعد كافية للتمييز بينها؛ لأن الأحوال

اضطرت فريقًا كبيرًا منها أن يتكلم بلغة غير لغته، ولا يؤخذ اختلاف المذاهب حجة في الإحصاء؛ لأن بلغاريا لم تستقل دينيًّا إلا منذ ست وأربعين سنة، ولأن فريقًا كبيرًا من البلغاريين تابع للكنيسة اليونانية، ولأن السربيين فريقان: فريق تابع لبطريركية الفنار اليونانية، وفريق للاكسرخس البلغاري. وأما التاريخ فلا يستطيع الإحصائيون أن يستندوا إليه فيما يختص بمكدونية؛ لأن كل أمة من الأمم التي تقطن فيها حكمت في دورها واندغمت فيها الأمم الأخرى؛ لذلك كان أحسن حلٍّ للإشكال جعل مكدونية دولة مستقلة، ولكن رجال السياسة اختلفوا في الأمر، فذهب بعضهم إلى وجوب منحها الاستقلال التام، وجعلها دولة دستورية حرة، تكون اللغة الفرنسوية لغتها الرسمية، وقال آخرون بل يجب جعلها ولاية مستقلة يتفق الباب العالي مع الدول العظمى على تعيين حاكم مسيحي لها يعضده في مهمته مجلس إداري تنتخب العناصر أعضاءه بالطريقة النسبية. ولما اختلفت أوروبا في حل مسألة مكدونية ورأت فيها خطرًا على السلم العام ألحت على الباب العالي في إجراء الإصلاح فيها، فأظهر رغبته في ذلك بعد إعلان الدستور، وأصدر لائحة إصلاحية قرر فيها زيادة عدد الجندرمة ألف جندي في ولاية أشقودرة، ومثل ذلك في ولاية قوصوة، وإنفاق مائة ألف ليرا على إنشاء «قرة قولات» جديدة للجندرمة في ولايات سلانيك ومناستر وأشقودرة ويانيا، وربط هذه «القرة قولات» بالأسلاك التليفونية، ثم عين سنة ١٩١٢ لجنة إصلاحية للنظر في شئون مكدونية برئاسة الحاج عادل بك وزير الداخلية في ذلك الحين، وجعل بين أعضائها بعض كبار الموظفين في وزارات المالية والحربية والحقانية والمعارف والأشغال العمومية والجنرال بومان باشا والكولونل فولون والقائمقام رجائي بك.

ولكن هذه الخطة لم ترق حكومة الاتحاديين التي ترغب في تتريك جميع العناصر العثمانية، فما اشتد ساعدها حتى ألغت جميع النظامات التي تقرر تنفيذها في مكدونية؛ فلم ترضَ بالمراقبة الأجنبية، وعزلت الموظفين البلغاريين والروم، وعينت مكانهم موظفين أتراكًا، وأبت أن تنفق أموال مكدونية الأميرية على إصلاح مكدونية، ورفضت قبول العرائض بغير اللغة التركية، وأصدرت قانونًا جديدًا سمتهُ قانون الاجتماعات لإلغاء الجمعيات اليونانية والبلغارية والسربية والألبانية، ثم جمعت السلاح من ألبانيا ومن ولايتي مناستر وسلانيك، وملأت سجون اسكوب ومناستر وأشتيب وسلانيك وكوتشاني وبلانكا وغيرها بالبلغاريين والأروام والسربيين، وجاءت بعدد كبير من أتراك البوسنة والهرسك إلى مكدونية لمزاحمة العناصر التي فيها، فظهرت بوادر الثورة في الحال،

وتكاثرت حوادث القتل والاغتيال، وبدأت العصابات البلغارية واليونانية تعيث في الأرض فسادًا، فاهتزت لذلك أعصاب جمعية «الثورة» البلغارية و«لجنة تنظيم الأمور الداخلية»، وأُلِّفَتْ جمعية ثوروية جديدة في بلغاريا باسم جمعية «الإخوة الحمر» جعلت شعارها شمسًا وتحتها سيفان مشتبكان فوق جمجمة إنسان. وقد أوفدت لجنة «تنظيم الأمور الداخلية» سنة ١٩١٢ وفدًا إلى عواصم الدول التي وقعت على معاهدة برلين لتذيع أخبار فظائع الترك وتستفز أوروبا إلى الدخول في شأن مكدونية، وكتبت جمعية «الإخوة الحمر» إلى الحكومة العثمانية سنة ١٩١٢ تقول:

> باسم الحرية والنهضة والارتقاء نعلن الثورة في بلاد البلقان، وسنقابل الإرهاب بالإرهاب والقسوة بالقسوة، ونشهر السيف المنغمس في الدم في وجه القوة والظلم، فاحتشدوا يا أبناء الوطن العزيز ورجال الثورة الأشداء حول علم الثورة المقدس الذي يكفل لنا الخلاص من ربقة الذل والاستعباد.

هكذا كانت مكدونية قبل إعلان الحرب البلقانية، وقد صارت كذلك بعد معاهدة بخارست، ولكن حقد البلغاريين على الترك تحول إلى حقد على السربيين، وكان سببًا في دخول بلغاريا الحرب الأوروبية ضد سربيا.

(٥-٣) المسألة الألبانية

ألبانيا أو البلاد التي يسكنها العنصر الألباني شرقي الأدرياتيك، تشمل ألبانيا التي استقلت في حرب البلقان، وقسمًا من مكدونية السربية ومن بلاد أبيروس، عدد سكانها مليون ومائة وأربعون ألفًا، منهم ثمانمائة ألف من المسلمين ومئتان وأربعون ألفًا من الأرثوذكس ومائة ألف من الكاثوليك.

والألبانيون يختلفون عن سائر العناصر البلقانية بلغتهم وأخلاقهم وعاداتهم التي حفظوها على توالي الأيام، فالألباني أو «ابن النسر» يعبد الشرف ويهوى الحرية ولا يقيم على الضيم، فأقل إهانة تلحق به يعقبها انتقام دموي هائل.

ولم يشد الألبانيون دولة في زمن من الأزمان، ولكنهم شوهدوا في جميع الحروب والغزوات؛ فاجتاحوا الشرق مع إسكندر الكبير، وحاربوا الرومانيين مع بيروس، وقاتلوا الصقالبة بعد وصلهم إلى البلقان، واشتركوا مع السلطان مراد في معركة قوصوة، ثم

انقلبوا على الترك في زمن إسكندر بك الزعيم الألباني الشهير، وحاربوهم دفاعًا عن حريتهم واستقلالهم.

وقد رأى السلاطين العثمانيون أن يحسنوا معاملة الألبانيين، ويستميلوهم إليهم بالحكمة واللين، فأعفوهم من الضرائب والأموال الأميرية، وعينوا منهم الصدور العظام، واجتنبوا الدخول في شئونهم الداخلية، فتطوع الألبانيون في الجيش العثماني عن طيبة خاطر، واعتنق معظمهم الإسلام.

وقد ظهرت الفكرة القومية في ألبانيا في أوائل هذا القرن متأثرة بحوادث مكدونية وأخذت تنتشر يومًا فيومًا، إلى أن بلغت حدها الأقصى إثر إعلان الدستور العثماني، فاجتمع بعض زعماء الألبانيين في تيرانوفو والبسان، وطلبوا من الحكومة أن تجعل اللغة الألبانية اللغة الرسمية في بلادهم، ثم عقدوا اجتماعًا آخر في مناستر، طلبوا فيه أن تُنْشَأ مدارس جديدة في ألبانيا، وأن تُكْتَب اللغة الألبانية بالحروف اللاتينية، فارتعدت فرائص الترك من جراء ذلك؛ لأنهم أدركوا أن ألبانيا حصنهم الوحيد في أوروبا، وأن ابتعادها عنهم يقضي عليهم بالرحيل إلى آسيا، فرغبوا في القضاء على الفكرة القومية فيها، وعهدوا إلى بدري باشا — والي أشقودرة في ذلك الحين — في اتخاذ التدابير اللازمة لذلك (سنة ١٩١٠)، فأسرع بدري باشا إلى تنفيذ أوامر الأستانة ومنع الألبانيين من حمل السلاح في المدن، فعدوا ذلك إهانة لهم، وأعربوا عن استيائهم من سياسة الحكومة العثمانية، ثم عقب ذلك شنق بعض زعماء الألبانيين في الأستانة إثر خلع السلطان عبد الحميد وإقرار الحكومة على إحصاء سكان ألبانيا توطئة لتجنيدهم وفرض الضرائب عليهم، فشقوا عصا الطاعة، وجاهروا بالعصيان، فجاءهم شوكت طورغود باشا بجيش كبير وقمع ثورتهم بشدة لم يسبق لها مثيل، وأصدر أمره بجمع السلاح منهم، ولكن السلاح الذي جمعه كان قديمًا، وظل السلاح الجديد بيد الألبانيين، فغنموا أول فرصة سنحت لهم، وأعلنوا الثورة هذه المرة باسم القومية، وطلبوا الاستقلال الإداري التام وتدريس اللغة الألبانية وحدها في مدارسهم بعدما تُكْتَب بالحروف اللاتينية، وإنفاق الأموال الأميرية كلها على إصلاح بلادهم.

وقد انتشرت الفكرة القومية بسرعة عظيمة في ألبانيا، فتعدت المفكرين إلى جميع طبقات الشعب، وحلمت الشبيبة وبعض الزعماء باستقلال ألبانيا التام، وجعلها واسطة لإبرام اتفاق بلقاني متين ومحورًا تدور عليه سياسة البلقان المقبلة.

وأما الترك فرفضوا إجابة الألبانيين إلى مطالبهم وجردوا عليهم حملة كبيرة، ولكنها لم تستطع الثبات أمامهم، فأُكْرِهَتْ على التقهقر إلى ما وراء أشقودرة، ولما أرسلت

الحكومة طورغود باشا لشد أزر هذه الحملة على الألبانيين الذين في الشمال ثار المردة الذين يسكنون في جنوب أشقودرة بشرق، واشترك المسلمون والمسيحيون في الحرب، فأدركت الحكومة حرج موقفها ونهجت خطة المسالمة واللين في ألبانيا، فأصدر خليل بك وزير الداخلية في ذلك الحين أمرًا بفتح المدارس الألبانية، وزار السلطان محمد رشاد سهل قوصوة في ١٦ يونيو سنة ١٩١١، وأصدر عفوًا عامًا عن الذين اشتركوا في العصيان، وفي ٢١ منه دعا طورغود باشا زعماء الماليسوريين إلى اجتماع في توزا، فرفضوا ذلك لعدم ثقتهم به، ودارت رحى القتال ثانية في ٢٤ يونيو، ولكن الماليسوريين الذين رفضوا مفاوضة طورغود باشا لشدة كرههم له كانوا يفاوضون في تلك الأثناء صدر الدين بك معتمد تركيا في شتينة، فوعدهم بفتح المدارس المقفلة وإصلاح الطرق وإدارة بلادهم على أساس اللامركزية مقابل إخلادهم إلى السكينة.

على أن الترك لم يفوا بوعودهم هذه المرة أيضًا؛ لأنهم كانوا يخشون أن تقتفي العناصر العثمانية أثر الألبانيين في طلب اللامركزية الواسعة، فتفاقم الخطب ودخلت المسألة الألبانية في شكل جديد؛ لأن بعض الدول لم يكن ينظر نظرة المتفرج إلى ما يجري في ألبانيا، فنبه سفراء هذه الدول في الأستانة الباب العالي إلى الخطر الذي يتهدده، ودافعوا عن مطاليب الألبانيين دفاعًا شديدًا. وكانت النمسا ترقب سير الحوادث الألبانية بكل دقة واهتمام بحجة أنها حامية الكاثوليك منذ انتصار البرنس شارل على العثمانيين في معركة باساروفيتز سنة ١٧١٨، وأن مؤتمر برلين أيد تلك الحقوق المزعومة، وجعل ألبانيا في منطقة نفوذها.

ولم تكن النمسا لتغض الطرف عن ألبانيا؛ لأنها الطريق التي تؤدي إلى البحر، والحصن الذي يمكن توقيف الصقالبة عنده، فنشأ عن ذلك تفاقم الخلاف بينها وبين الصقالبة من جهة، وبينها وبين إيطاليا من جهة أخرى؛ لأن إيطاليا تعد نفسها وارثة الرومانيين، ويهمها بحر الأدرياتيك دفاعًا عن شواطئ بلادها.

وفي شهر مايو سنة ١٩١١ تعكر صفو الصلات السياسية بين الباب العالي والجبل الأسود بسبب التجاء الثائرين الألبان إليه، فحشدت الحكومة العثمانية جيشها على الحدود، وقررت إعلان الحرب على حكومة شتينة، لولا دخول روسيا في الأمر، وتصريح المسيو جاريكوف — سفيرها في الأستانة — لرفعت باشا وزير الخارجية في ذلك الحين «بأن روسيا لا تسمح للدولة العثمانية بالاعتداء على الجبل الأسود»، فاضطر الباب العالي أن يسحب جيوشه من الحدود، وأن يصدر أمره بالعفو عن الثائرين الماليسوريين،

ويعفيهم من الخدمة العسكرية ومن دفع الأموال الأميرية، ويسمح لهم بتقلد السلاح وتدريس اللغة الألبانية في المدارس الرسمية في ألبانيا، ويعدهم بإنشاء الطرق في بلادهم ويعيضهم من الخسارة التي لحقت بهم بسبب الحرب.

وقد رأى الألبانيون أن ما رضيت به الدولة قليل عليهم ورآه الترك شيئًا كثيرًا منهم؛ لذلك لم يكن بد من فتح مسألة ألبانيا ثانية سنة ١٩١٢. وكانت الثورات الألبانية من أكبر العوامل التي جرأت البلقانيين على إعلان الحرب على الدولة العثمانية في الحرب البلقانية، ومن أهم الأسباب التي حملت إيطاليا على شد أزر الحلفاء في الحرب الأوروبية دفاعًا عن مصالحها في ألبانيا والأدرياتيك.

(٤-٥) مسألة البوسنة والهرسك

جاء في المادة الخامسة والعشرين من معاهدة برلين ما نصه:

> يُعْهَد إلى النمسا في احتلال مقاطعتي البوسنة والهرسك احتلالًا مؤقتًا وفي إدارة شئونهما.

ومنطوق هذه المادة يدل على رغبة أوروبا في إبقاء البوسنة والهرسك تحت سيادة الدولة العثمانية كما يتضح من مناقشات المؤتمر؛ فقد وافق اللورد سلسبوري مندوب إنكلترا على تلك المادة «لأنها لا تمس سيادة الدولة العثمانية»، وقال المسيو ودينكتون مندوب فرنسا «إن النمسا ستمثل دور بوليس أوروبي في البوسنة والهرسك»، وقال الكونت اندراسي مندوب النمسا «إن حكومته تعد مسألة البوسنة والهرسك مسألة أوروبية بحتة»، وقال المسيو تورتشا كوف مندوب روسيا «إن حكومته تقبل بأن تحتل النمسا مقاطعتي البوسنة والهرسك احتلالًا مؤقتًا بالنيابة عن أوروبا»، وقال المندوبون العثمانيون — صفوت باشا ومحمد علي باشا وقره تيودوري باشا — إنهم يوافقون على ذلك «لأنهم لا يرون فيه ما يمس السيادة العثمانية.»

تكفلت النمسا بإدارة شئون البوسنة والهرسك على أساس الحرية والعدل والنظام إقرارًا للأمن فيهما، فألفت لهما حكومة حسنة، ولكنها وضعت نصب عينيها القضاء على العنصر السلافي فيهما قضاء مبرمًا، فاغتصبت حق تسمية الأساقفة، ونزعت حقوق الإكليروس الأرثوذكسي، وأقفلت الكنائس بحجة أنها قديمة البناء، ومنعت الاحتفال بالأعياد الدينية القومية، وأثقلت عاتق الأهلين بالضرائب الجديدة، وأقفلت المدارس

الوطنية، ومنعت تدريس التاريخ السربي، وغلَّت عنق الصحف غلًّا لم يسبق له مثيل؛ فأعلنت بذلك حربًا عوانًا على السربيين خصوصًا وعلى الصقالبة عمومًا.

ولم تكتفِ النمسا بذلك كله، بل انتهزت فرصة إعلان الدستور العثماني، وضمت البوسنة والهرسك إلى أملاكها (سنة ١٩٠٨) مع احتجاج سكانهما واحتجاج الدولة العثمانية وسربيا وبعض الدول الموقعة لمعاهدة برلين، وقد قابلت هذه الاحتجاجات بدهشة واستغراب قائلة «إنه لم يطرأ شيء جديد على البوسنة والهرسك، وإن التقاليد التاريخية تربط حكومة المجر بهما، فلا سبيل إلى إنكار هذا الحق عليها»، وقد لجأت النمسا إلى التاريخ لتأييد مدعاها وإشباع أطماعها، ولو كان التاريخ وحده حجة لاسترجاع الأراضي لطالب العثمانيون باسترجاع هنغاريا التي بقيت نحو قرنين في قبضة يدهم، ولو كانت حقوق النمسا التاريخية على البوسنة والهرسك أكيدة قديمة العهد لما أبرمت مع سربيا سنة ١٨٧٠ معاهدة سرية — نُشِرَتْ سنة ١٩٠٨ — جاء في المادة الثانية منها ما نصه:

> تتكفل النمسا بإعطاء سربيا البوسنة والهرسك إذا ساعدتها في محاربة الدولة العثمانية.

وقد كان ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا ضربة شديدة على سربيا والجبل الأسود، فقال المسيو نيكولايفتش — رئيس وزارة سربيا سابقًا — في تقرير رفعه إلى المجالس النيابية في أوروبا: «إن مستقبل سربيا والجبل الأسود يتوقف على الطريقة التي تُحَلُّ بها مسألة البوسنة والهرسك؛ لأن ضمهما إلى النمسا يفصل بين الدولتين السلافيتين، ويمنع سربيا من بلوغ الأدرياتيك، ويجعل الجبل الأسود تحت رحمة جارته الجرمانية»، وقد اضطرت روسيا إلى الرضوخ لمشيئة النمسا؛ لأنها كانت غير قادرة على الدفاع عن مصالح الصقالبة في البلقان بعد فشلها في الحرب اليابانية.

ولما أعلنت الحرب البلقانية أملت النمسا فوائد عظيمة من اختلاف البلقانيين واحتكاك المصالح الدولية في الشرق، وكادت تغري إيطاليا بمهاجمة سربيا لولا دخول رومانيا في الأمر ونجاح مؤتمر بخارست في إبرام الصلح — مؤقتًا — بين البلقانيين.

(٥-٥) مسألة نوفي بازار

ولم تكن مسألة البوسنة والهرسك المسألة الوحيدة التي حامت حولها الظنون واحتكت فيها مصالح النمسا وسربيا، بل كان هناك مسألة أخرى لا تقل عنها أهمية وشأنًا، وهي مسألة سنجق نوفي بازار، فقد سمحت المادة الخامسة والعشرون من معاهدة برلين لحكومة النمسا والمجر «بأن تضع حامية نمسوية في نوفي بازار — على طريق سلانيك — حين الحاجة»، ففصلت بذلك بين الدولتين السلافيتين — سربيا والجبل الأسود — وأقفلت طريق الأدرياتيك في وجه سربيا، وفتحت طريق مكدونية وسلانيك والبحر المتوسط والأستانة أمام الجرمان. وقد أعطت هذه المادة النمسا موقعًا حربيًّا من أحسن المواقع وأمنعها تستطيع أن تنقل إليه جيوشها بكل سرعة، وأن تتحكم منه في سهل قوصوة، ونهري مورافا والواردار، وتجعل الأمم السلافية في البلقان تحت رحمتها، وفي منطقة نفوذها الاقتصادي.

(٥-٦) المسألة الأرمنية

أرمينية أو جيورجيا أو البلاد التي يسكنها الأرمن تمتد من جبال أراراط إلى قلب الأناضول، ومن البحر الأسود إلى شمال العراق، وتشمل قسمًا من القوقاس والأناضول وبلاد إيران، وعدد سكانها من الأرمن نحو ثلاثة ملايين نسمة؛ منهم مليون وأربعمائة ألف في البلاد العثمانية؛ أي في ولايات سيواس وأرضروم وبتليس ووان وديار بكر ومعمورة العزيز التي تُدْعَى الولايات الشرقية الست، والأرمن هم الأقلية في كل هذه الولايات؛ ولذلك كانت مسألتهم من أعقد المسائل الشرقية.

بثت حوادث الشرق الأدنى الفكرة القومية في الأرمن العثمانيين في أوائل القرن الماضي، وكان زعماؤهم فريقين فريقًا يطلب الاستقلال الإداري فقط، وفريقًا يرمي إلى جعل أرمينية القديمة كلها مملكة مستقلة، وهذا الفريق الأخير كان يكره الروس والعثمانيين على السواء.

وقد بدأت الشبيبة الأرمنية أو أرمينية الفتاة تطالب الباب العالي بحقوقها منذ سنة ١٨٣٩، فانتخبت مجلسًا من العوام لمراقبة خطة البطريرك رأس الأمة الأرمنية وشد أزره في المسائل السياسية، ثم تمكنت سنة ١٨٦٣ من جعل انتخاب الإكليروس عامًّا ومن تأليف مجلس ملي جديد من أربعمائة عضو مهمته إنهاض الأمة سياسيًّا

وعلميًّا واقتصاديًّا. وقد نهج الباب العالي في بدء الأمر سياسة الحكمة واللين مع الأرمن العثمانيين لمنعهم من الالتجاء إلى روسيا، فمنحهم استقلالًا إداريًّا أوسع من الاستقلال الذي منحته روسيا لإخوانهم في القوقاس وفتح باب المناصب في وجوههم، فاكتسب صداقتهم وإخلاصهم وانتفعت الدولة بهم انتفاعًا عظيمًا. وقد قال أحد الصدور العظام «قوام الدولة اثنان: السيف والقلم؛ فالسيف للألبانيين والقلم للأرمن.»

ولكن مصاعب جمة كانت تحول دون إصلاح الحال في أرمينية على أساس وطيد الأركان، أهمها عنفوان الأكراد وتعصبهم، وضعف الأرمن، وقلة عددهم.

وكان اضطهاد الأكراد للأرمن يزداد يومًا فيومًا إلى أن شبت حرب سنة ١٨٧٧، فلما توغل الروس في البلاد العثمانية هاج الأكراد وذبحوا الأرمن في بعض قرى الأناضول، فنشأ عن ذلك اهتمام الإمبراطورية الروسية بشئون أرمينية في معاهدة أيا استفانوس وإكراه الحكومة العثمانية على قبول المادة الثانية، وهي: «يتكفل الباب العالي بإجراء الإصلاح اللازم في الولايات التي يسكنها الأرمن، وبرفع الضيم عنهم، وحفظ الأمن في بلادهم، ومنع الأكراد من الاعتداء عليهم»، وخافت إنكلترا عاقبة دخول روسيا في شئون الدولة العثمانية، فأبرمت مع الباب العالي معاهدة — في ٤ يونيو ١٧٧٨ — جاء فيها: «إن الباب العالي عقد النية على إجراء الإصلاح في آسيا الصغرى وتحسين حال سكانها من مسلمين ومسيحيين»، ووافق الباب العالي على ذلك في مؤتمر برلين أيضًا، ولكنه أهمل أمر التنفيذ في أرمينية، كما أهمله في سائر البلاد العثمانية، وكان احتكاك المصالح البريطانية والروسية في آسيا الصغرى من أكبر العوامل التي جرأت الباب العالي على النكث بعهوده، وشد أزر الأكراد السفاحين، فذهبت أرمينية فدية لاختلاف الدول الأوروبية واحتكاك مصالحهن في الشرق الأدنى.

اسود الضياء في عيون الأرمن من جراء ذلك، فحملوا على الحكومة العثمانية في صحف الغرب حملات شديدة، وقاموا بمظاهرات عديدة في عواصم أوروبا لحمل حكوماتها على الدخول في شئونهم، فحقد الباب العالي عليهم حقدًا شديدًا، حتى إن سعيد باشا المشهور برزانتهِ قال — وقد كان صدرًا أعظم في ذلك الحين: «إن المسألة الأرمنية لا تُحَل إلا بإزالة الأرمن من الوجود.»

ثم جعلت الحكومة العثمانية تحرض الأكراد على الأرمن اقتصاصًا منهم، وتفرض عليهم ضرائب لا طاقة لهم على احتمالها، فرفضوا أداءها، ووقعت المذابح من جراء ذلك في موش وسامسون وتالوري وشنيك وسمال وغيرها بين ١٢ أغسطس و٤ سبتمبر

سنة ١٨٩٤. ودخلت إنكلترا في الأمر فطلبت من الباب العالي أن يعين لجنة تفتيش للبحث عن المجرمين، فأجابها إلى طلبها، ولكنه اكتفى بعزل والي بتليس فقط مع أن لجنة التفتيش ألقت تبعة المذابح على كثيرين من القواد والضباط والموظفين الملكيين. وفي ٢ مايو سنة ١٨٩٥ سلمت الدول العظمى مذكرة مشتركة إلى الباب العالي في شأن أرمينية، فرفض العمل بها، وأوضح الأسباب التي حملته على ذلك في مذكرة سلمها إلى سفراء الدول العظمى في الأستانة في ٧ يونيو سنة ١٨٩٥.

وفي ٣٠ سبتمبر قامت الجمعيات الأرمنية بمظاهرة سلمية في الأستانة، ومشى رجال الشرطة مع المتظاهرين لحفظ الأمن، ولكن شابًّا محمسًا أطلق مسدسه على ضابط عثماني فقتله، وبدأت مذابح الأرمن في الأستانة، وفي جميع بلاد الأناضول التي يسكنها الأرمن، وفي ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٩٥ أبلغ الباب العالي الدول العظمى أنه رضي بمطالبهن فيما يختص بأرمينية، فغضب الأكراد لذلك، وقاموا على الأرمن وذبحوا منهم مائة ألف نسمة على أقل تقدير، ولما رأى الأرمن أن أوروبا لا يهمها أمرهم عنَّ لهم أن يقوموا بعمل يضطرها إلى الدخول في شئونهم، فهجموا على البنك العثماني في الأستانة في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦، ولكن عبد الحميد كان قد احتاط لهم، فحرض رعاع الأستانة عليهم، فذبحوا منهم ستة آلاف نسمة في يومين، وقامت قيامة صحف الغرب احتجاجًا على هذه الفظائع، وبلغ الهياج في إنكلترا أشده، فاضطرت حكومة لندن إلى الدخول في الأمر، وطلبت من الدول العظمى أن توافقها على إبلاغ السلطان عبد الحميد «أن مواصلة هذه الفظائع تؤدي إلى ضياع عرشِهِ»، وكان ذلك في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦.

وفي ٢١ أكتوبر سلمت الدول العظمى مذكرة شديدة اللهجة إلى الباب العالي، قالت فيها «إنها مستعدة لِأَنْ تعيد الأمن إلى نصابه بالقوة»، ولكن هذه المذكرة لم تأتِ بالفائدة المطلوبة؛ لأن فرنسا كانت تخشى أطماع إنكلترا في الأناضول، ولأن روسيا مانعت في استقلال أرمينية، فلم توفق الدول إلى القيام بعمل مشترك دفاعًا عن الأرمن.

وفي أكتوبر سنة ١٨٩٦ زار القيصر باريس، فأسفرت زيارته عن اتفاق فرنسا وروسيا على الدفاع عن سلامة الأملاك العثمانية، وشد أزر الباب العالي في إجراء الإصلاح في أرمينية. وعُزِلَ جواد باشا من منصب الصدارة في تلك الأثناء، وخلفه سعيد باشا الملقب بالصغير «كوجوك» فعاد الأمن ظاهرًا إلى نصابه في أرمينية، واتجهت أنظار أوروبا إلى مسألة مكدونية، وقد دخلت في دور جديد.

وفي شهر يوليو سنة ١٩٠٨ أُعْلِنَ الدستور العثماني، فقابله الأرمن بسرور لا يُوصَف، ولكن سرورهم لم يَطُلْ أمره بسبب مذابح أطنة في شهر أبريل سنة ١٩٠٩،

فاحتج المونسنيور ارشاروني بطريرك الأرمن على تلك المذابح احتجاجًا شديدًا، وطلب معاقبة المجرمين، وتحسين حال الأرمن، فقابلت الحكومة طلبه بالمماطلة والتسويف، واضطر إلى تقديم استعفائه في ١٢ سبتمبر سنة ١٩١٣.

وقد رأت روسيا أن مصلحتها تقضي عليها بمساعدة الأرمن بعد إعلان الدستور العثماني، فرفع المسيو دي جيرس سفيرها في الأستانة تقريرًا مسهبًا إلى الباب العالي عن أرمينية إثر استعفاء المونسنيور ارشاروني، وعقد مندوبو إنكلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وسويسرا اجتماعًا في باريس في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٣ للنظر في إصلاح الولايات الشرقية الست التي يسكنها الأرمن، وكانت الدولة العثمانية منهمكة بالحرب البلقانية في تلك الأثناء، فقبلت أن تعين لجنة خصوصية من ثلاثة أعضاء مسلمين، وعضوين أرمنيين، وعضو كلداني، برئاسة مستشار أجنبي؛ لإصلاح الجندرمة، وتسوية الخلاف بين الأهلين.

وفي ٨ فبراير اتفق الباب العالي مع روسيا على إصلاح البلاد الأرمنية، وجعلها منطقتين لكل منهما مفتش أجنبي يعينه الباب العالي بموافقة الدول العظمى.

وقد قال أحد الساسة العثمانيين بعد إعلان الحرب الأوروبية: «إن أطماع روسيا في الأناضول والبواغيز ستحملنا على خوض غمار الحرب في جانب أعدائها ضد حليفتينا القديمتين فرنسا وإنكلترا.»

وهكذا كانت مسألة أرمينية سببًا من أسباب الحرب الأوروبية العظمى التي تؤدي حتمًا إلى حل المسألة الشرقية وكل فروعها حلًّا نهائيًّا معقولًا على أساس العنصرية.

الفصل الثاني

المسألة العربية

نبذة جغرافية – نبذة تاريخية – العرب والترك في الماضي – العرب والاتحاديون – ظهور الجمعيات العربية – المؤتمر العربي الأول – أعماله موقف – الاتحاديين إزاءه

* * *

تُعْرَف المسألة العربية بما عُرفت به المسألة الشرقية؛ لأنها فرع منها، فهي «نزاع شديد بين الترك الذين استأثروا بالسلطة في الماضي وعقدوا النية على الاستئثار بها في المستقبل أيضًا مع جهلهم وفقرهم وقلة عددهم من جهة، والعرب الذين يطلبون المساواة باسم الحق والقانون والقوة من جهة أخرى، واهتمام أوروبا بهذا النزاع ودخولها فيه سدًّا لأطماعها وتحقيقًا لأمانيها المتناقضة»، وقد كانت المسألة العربية من أهم أسباب الحرب، ولا سيما الحرب العثمانية؛ لأن أطماع ألمانيا في البلاد العربية بلغت حدًّا لم يسع إنكلترا وفرنسا وروسيا السكوت عنه، ولأن الاتحاديين الذين تآمروا على كيان العرب مع الألمان لم يروا بدًّا من دخول الحرب شدًّا لأزرهم ورغبة في انتهاز الفرصة لضرب الأمة العربية ضربة لا تقوم لها قائمة بعدها، فقد قال أحد زعماء الترك في هذا الشأن ما تعريبه: «لا أمل لنا بعد الآن بأن نحكم البلاد العثمانية كمستعمرة تركية، ولا سيما البلاد العربية التي فتحها أجدادنا بالسيف؛ لأن حكومتنا صارت دستورية لسوء الحظ، ولأننا نحن الأقلية في الدولة، فإذا خضنا غمار الحرب الأوروبية وحالفنا النصر قضينا على العناصر غير التركية أعظم قضاءٍ، وكفلنا الحكم لعنصرنا زمانًا طويلًا، وإذا انكسرت جيوشنا وضاعت بلادنا فلا نخسر شيئًا؛ لأن مستقبل الدولة ليس لنا، ولأن الحكم ذاهب من يدنا على كل حال، ومن بعدنا الطوفان.»

اقتلوني ومالكًا   واقتلوا مالكًا معي

والمسألة العربية ظهرت في عالم الوجود بانقراض دولة العرب، وتعقدت بظهور غلاة الترك من الاتحاديين واستلامهم زمام الأمور وإيرادهم الدولة موارد الحتوف واحتقارهم للإسلام والعرب وجورهم واستبدادهم وطغيانهم.

(١) نبذة جغرافية

والبلاد العربية هي البلاد التي يحدها من الشمال جبال طورس، ومن الشرق إيران وخليج فارس وبحر عمان، ومن الجنوب البحر المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر والبحر المتوسط، وتشمل سوريا والعراق وشبه جزيرة العرب:

سورية: وتُقَسَّم سورية الآن إلى ثلاث ولايات، وهي: حلب والشام وبيروت، ومتصرفيتين، وهما: القدس وجبل لبنان، وعدد سكانها من البدو والحضر لا يقل عن ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة.

العراق: ويُقَسَّم العراق إلى ثلاث ولايات، وهي: بغداد والموصل والبصرة، وإلى متصرفية واحدة هي متصرفية الزور، ويشمل قسمًا من ولاية ديار بكر، وعدد سكانه من بدو وحضر يزيد على ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف نسمة.

شبه جزيرة العرب: وتُقَسَّم شبه جزيرة العرب الآن إلى عشرة أقسام، وهي: الحجاز واليمن وعسير ونجد وحضرموت وعمان والقطر والبحرين والكويت وبادية الشام.

(١) **الحجاز:** بلاد واقعة غربي جزيرة العرب بين اليمن وعسير، وأشهر مدنها: مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف وليث وينبع، وأشهر أسرها وقبائلها الشرفاء، وهم سلالة الشريف أبي نمي القرشي، وقريش وهذيل وسبيع والبقوم وبنو مالك وابن الحارث والحجادلة وفهم وحرب وبنو سالم وبنو مسروح وعتيبة وسليم ومطير وثقيف وجهينة، وغيرهم.

(٢) **اليمن:** تُقَسَّم بلاد اليمن إلى قسمين: جبل وتهامة، فأشهر مدن جبل صنعاء ومناخة وعمران وذمار، وأشهر مدن تهامة بيت الفقيه وباجل وزبيد، وفي اليمن مواني عديدة أشهرها الحديدة.

وأشهر قبائل اليمن حاشد وبكير والعود والشعر وعمار وبنو الأهدل والجرايح والزرانيف وغيرهم.

(٣) **عسير:** وبلاد عسير قسمان أيضًا: تهامة وجبل، فأشهر مدن تهامة صبيا وأبو عريش، وأشهر مدن جبل أبها ومحايل ورغدان والنماص، وفي بلاد عسير مواني عديدة أشهرها قنفده وجيزان، وأشهر قبائل عسير غامد وزهران وشمران وخثلم والمحلف ومعاوية وبنو سلول وبنو شهر وبنو عمرو وزبيد وقحطان وشهران وربيعة وكنانة وبنو قيس وبنو مروان وبنو عبس وبنو زيد وبنو شهاب وبنو حسن، وغيرهم.

(٤) **نجد:** وتُقَسَّم نجد إلى ثلاثة أقسام: الأول العروض أو العارض أو الرياض؛ حيث إمارة ابن السعود، والثاني الجبل أو جبل شمر أو جبل طي وعاصمته حائل وهو إمارة ابن الرشيد، والثالث القصم وهو عبارة عن إمارتين؛ إمارة آل سليم وإمارة آل مهنا.

(٥) **حضرموت:** بلاد واقعة بين اليمن وعمان، فالبلاد المجاورة لليمن عبارة عن سلسلة من الآكام أعلى قمة فيها ترتفع عن سطح البحر نحو ٢٤٠ مترًا، والبلاد المجاورة لعمان عبارة عن سهل واسع. وحضرموت بلاد خصبة وكثيرة المياه، أهم موانيها ومدنها المكلة والشحر وشبام وتريم ومريط وسجه، وأهم قبائلها آل أبو زيد وآل أبو رشيد وآل مرعي والعوامر والعوايثة وبنو تميم.

(٦) **عمان:** بلاد واقعة إلى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة العرب، عاصمتها مسقط، وسلطانها تيمور بن فيصل، وتُقَسَّم إداريًّا إلى تسع مقاطعات؛ وهي: قطر وشرجة ورأس الجبل وباطنة وجبل أخضر — مسقط — وظهيرة وسور وجبلان وظفار، وعدد سكانها نحو مليونين، وأهم مدنها مسقط وسور والبيضاء وشوة ورستاق.

(٧) **القطر:** بلاد واقعة إلى الشمال الشرقي من شبه جزيرة العرب، مساحتها السطحية ٤٣ ألف وخمسمائة كيلومتر مربع، وأهم مدنها البداع وكره، وأميرها الحالي عبد الله بن قاسم.

(٨) **البحرين:** يُطْلَقُ هذا الاسم على بلاد واقعة بين عمان والأحساء، وعاصمتها هجر، وعلى جزائر في خليج العجم، أميرها الحالي الشيخ عيسى آل خليفة.

(٩) **الكويت:** ميناء بحري على خليج العجم، وإمارة مستقلة، أميرها الحالي الشيخ جابر الصباح بن الشيخ مبارك الصباح المتوفى في أواخر سنة ١٩١٥.

(١٠) **بادية الشام:** أو بادية الشام والعراق، وتسكنها قبائل شتى، أهمها: الرولا وشيخها نوري الشعلان، وأولاد علي وشيخهم رشيد بن سمير، وبنو صخر والمحلف وغيرهم في بادية الشام، وعنزة وشيخهم الأكبر فهد بن عبد المحسن، وطي وشمر وزبيد والإمارة وبنو لام وغيرهم في العراق.

وفي شبه جزيرة العرب صحاري واسعة لا تزال مجهولة إلى الآن، ولا يعرف أحد بالتدقيق عدد العرب في شبه الجزيرة، ولكنهم على كل حال لا يقلون عن ٢٥ مليون نسمة.

(٢) نبذة تاريخية[١]

العرب من الأمم السامية «نسبة إلى سام بن نوح»، فمنهم أمم بادت بانقراض العصور الأول، وأشهرهم عاد وثمود وطسم وجديس، ومنهم أمم بقيت هم: بنو قحطان وبنو عدنان، فالقحطانيون — ويُسَمُّون بالعرب العاربة — هم بنو يعرب بن قحطان، الذي يُقَالُ إنه أول من تكلم بالعربية، واتخذ بلاد اليمن مسكنًا، أما العدنانيون فيُنْسَبُون إلى إسماعيل بن إبراهيم، وكان إبراهيم قد أنزل ولده إسماعيل مع أمه هاجر بمكة وبنى البيت الحرام، فكثر نسله هناك.

(٢-١) مدنية العرب قبل الإسلام

كان للعرب مدنية عظيمة قبل الإسلام في اليمن والحيرة والشام والحجاز؛ ففي اليمن كانت قاعدة الملك صنعاء، وكان المالكون فيها أقيال حِمْيَر، ومن ملوك حمير بلقيس، وكانت معاصرة لسليمان بن داود ملك بني إسرائيل بأورشليم.

وكان ببلاد اليمن قصور عظيمة، منها قصر غمدان بظاهر صنعاء، وله غرف شهيرة يسمونها المحاريب، وهو محكم البناء بديع الصنع.

وأما في الحيرة، فكان الملوك من لخم إحدى قبائل اليمن التي وصلت بعد سيل العرم، ومن أعظم ملوكهم جذيمة الأبرش والنعمان بن امرئ القيس، وهو الذي بنى قصر الخورنق وقصر السدير، وهما من أعظم المباني العربية.

أما في الشام، فكان الملك في آل غسان، وهم من قحطان، رحلوا من اليمن بعد سيل العرم، وأول من تولى الشام منهم جفنة بن عمرو، وهو الذي تُنْسَبُ إليه ملوك الغساسنة، فيقال آل جفنة.

وبَنَى جفنة بالشام مصانع عديدة، وتعاقب ملوك غسان على الشام وما والاها، واتسعت مدينتهم، وعظم عمرانهم.

أما في الحجاز فكان التقدم والرياسة لقريش، ولكنهم لم يكونوا يُسَمَّوْن ملوكًا.

وهكذا بقية القبائل العربية، فإنه لم يكن لهم ملوك، وإنما كان لهم رؤساء ومشايخ وقضاة، وكلما كان الرئيس أقدم محتدًا وأوسع ثروة كان احترامه أعظم.

وكان معظم العرب أميين لا يقرأون ولا يكتبون، بل يعتمدون على حافظتهم في حفظ الخطب والأشعار إلى أن أخذوا الخط من الأمم المجاورة، وآخر من وصل إليهم الخط عرب الحجاز، ثم ساعد الإسلام بعد ذلك على نشره بين الأفراد؛ ولذلك لم تكن للعرب في ذلك العهد علوم مدونة، وإنما كانت عندهم محفوظات يتوارثونها تقليدًا.

(٢-٢) العرب بعد الإسلام

سار العرب بعد الإسلام في خمسة عصور مختلفة بالنسبة إلى الانقلابات السياسية والاجتماعية التي مرت بهم.

عصر الخلفاء الراشدين

وهو يمتد من وقت ظهور الإسلام إلى سنة ٤١هـ، وفيهِ تهذبت اللغة بوجود القرآن الشريف، وما فيهِ من فصاحة وبلاغة، وكثرت مسمياتها واصطلاحاتها لاختلاط العرب بالأمم الأخرى التي افتتحوا بلادها وامتزجوا بأهلها، وأثر هذا الاختلاط في نفوسهم وآدابهم، ولكن ثمار هذا التأثير لم تنضج إلا في عصر الأمويين.

العصر الأموي

وهو من سنة ٤١هـ إلى سنة ١٣٢هـ؛ إذ كانت الدولة العربية في حوزة الأمويين بالشام منذ بُويِعَ معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ، حتى قهرهم عليها العباسيون سنة ١٣٢هـ. وقد أحدث انتقال الدولة العربية إلى بني أمية انقلابًا عظيمًا في التاريخ العربي؛ فقد كانت في زمن الراشدين خلافة، فصارت في عهد الأمويين ملكًا، وكانت شوروية فأصبحت إرثية، وانتقلت بكرسي الخلافة إلى الشام، فأوجب ذلك احتكاكها بالدول الأخرى، فاقتبس أهلها تمدن الأمم المجاورة وعلومهم، وأوجدوا تمدنًا خاصًّا بهم، ووضعوا علومًا وآدابًا

اقتضاها ذلك التمدن، وفي جملة ما وضعوه علم النحو؛ لأن الفساد كان قد تطرق إلى اللغة بمخالطة الأعاجم فوضعوا قواعد لضبطها، واهتموا لتدوين التاريخ في اللغة العربية، وأول ما شرعوا به كان التاريخ الأجنبي، وقصدهم به فائدة الخلفاء وإطلاعهم على أحوال الأمم الأخرى ليقتبسوا من أخبارهم كل محمدة.

وقد أزهر الشعر في زمن الأمويين، وارتقت الخطابة، وراجت سوق الأدب، وكثر الشعراء، ونظموا في كل باب.

وفي عصرهم وُضِعَ الفقه والتفسير والنحو، وفيهِ رسخت اللغة العربية، وضُبِطَ الخط، وفيهِ بُدِئَ بنقل العلوم الطبيعية إلى اللغة العربية.

العصر العباسي

وهو من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٦٥٦هـ؛ أي مدة خمسة قرون ونيف، وقد تقلبت الأحوال فيها على ما اقتضته السياسة والاجتماع.

ففي القرن الأول بلغت الدولة العربية قمة المجد والسيادة والثروة، وساعد خلفاؤها على انتشار العلم وإكرام العلماء والأدباء، فنبع عندهم النحاة واللغويون والمؤرخون والشعراء والفقهاء والمفسرون والمحدثون والفلاسفة والأطباء، وعلى الجملة فإن الدول العربية لم يكن لها مثيل في العالم قاطبة من حيث العدل في الأحكام والاهتمام لأمور المملكة، وتفاني الخلفاء في الحرص على رفاهية شعبهم وصيانة مصلحته وترويج العلم والأدب بين أفراده.

وجعل العباسيون عاصمة ملكهم بغداد على حدود بلاد الفرس الذين كانوا قد نصروهم في حروبهم، وجعلوا أكثر وزرائهم وقضاتهم ورجال حكومتهم من الفرس بعد أن كان كل رجال الدولة في أيام الأمويين من العرب، والفرس أهل مدنية قديمة، وكانوا يومئذ في نهضة علمية بدأت في زمن كسرى انوشروان، فكان البرامكة يساعدون أهل العلم، ويبدرون الأموال بسخاء استحثاثًا لقرائحهم، فكانت لهم بذلك أيادٍ بيضاء في نقل العلم القديم إلى العربية.

أما في القرن الثاني فقد تسلط الأتراك على أمور الدولة، واستبدوا بالأحكام، وقد بدأ استبدادهم في أيام المتوكل على الله الذي كان يكره الشيعة العلوية، وهم من الفرس فاستبد المتوكل فيهم وقرب الأتراك منه لينصروه عليهم، فطمعوا به، ثم اتفقوا مع ابنه

المنتصر على قتله فقتلوه، وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء، واستفحل أمر الأتراك بعد ذلك، وزادوا استبدادًا وبطشًا، وأصبح الخلفاء آلة في أيديهم.

وفي القرن الثالث دالت دولة العرب في الشرق، أما الأندلس فكانت في أوج الرقي والثروة، وقد راجت فيها سوق الأدب ونبغ العلماء والكتاب والشعراء والأدباء والفلاسفة والصناع الماهرون، وكان في قرطبة — عاصمة الملك في الأندلس — مكتبة عظيمة لم يكن في العالم مثلها، فقد ذكر ابن خلدون والمقري أنها كانت تحوي ٤٠٠٠٠٠ مجلد، ومتى كانت البلاد على مثل هذا الرقي العلمي فلا عجب أن بلغت المقام الأسمى من العمران والفلاح.

وكذلك مصر في عصر الدولة الفاطمية العربية، فإنها نالت حظًّا من الفلاح والرفاهية لم يكن لها مثله في زمن من الأزمان.

إلا أن الحال لم تكن على هذا المنوال في البلاد التي دخلها الأعاجم؛ حيث أخذ الفساد يتطرق إلى الأحكام بما بثته المنازعات والتحزبات من بذور الشقاق والتحامل، فتفرق رجال الأحكام شيعًا وأحزابًا، وكان من وراء تفرقهم أن استظهر عليهم أعداؤهم، فتضاءلت سلطتهم شيئًا فشيئًا، ودالت دولتهم، وانكمش ظل ملكهم في بقع صغيرة من الأرض بعد أن كانوا قد بسطوا سلطانهم على بلاد العرب وسورية جملة، ورفعوا أعلامهم من ضفاف الكنج شرقًا إلى شواطئ البحر الأتلانتيكي غربًا، ومن ضفاف نهر لورا شمالًا إلى أواسط إفريقيا جنوبًا، واحتلوا جانبًا من بلاد الروم، وانتشر أريج فتوحاتهم وانتصاراتهم في أنحاء الأرض شرقًا وغربًا.

وقد نتج عن ذلك تفرق العلماء والأدباء هربًا من الظلم والاستعباد للأعداء الذين قهروهم وأخذوا يصبون عليهم جام تعصبهم وانتقامهم، فخبا بذهابهم ضياء العلم، وأظلم وجه المدنية وتسرب اليأس إلى القلوب.

وفي القرن الرابع ظهرت الدولة السلجوقية، فلم تكتفِ بأن تكون فرعًا للدولة العباسية، بل ظهرت بمظهر الدولة المستقلة، وقد ساعدها على ذلك انقسامات الدولة العباسية، فاكتسحتها، وبلغ اتساع المملكة السلجوقية من حدود الصين إلى آخر حدود الشام، ودخلت بغداد في قبضة يدها سنة ٤٧٠هـ.

وفي هذا العصر أيضًا دالت دولة الأندلس، وانقسمت إلى إمارات صغيرة، فضعف العرب فيها، وجعل الإفرنج يغتنمون ضعفهم ويسترجعون بلادهم إلى أن ذهبت جميعها من أيديهم، وفر آخر ملك من ملوك الأندلس في سنة ٨٩٧هـ، وهو أبو عبد الله بن علي.

وعند سقوط دولة العرب بالأندلس كانت دولة الأتراك على أشد ما يكون من قوتها، وأبسط ما يمكن من سلطانها، فلم تأخذ بيد أولئك التعساء، بل وقفت مكتوفة الأيدي تنظر بارتياح إلى ما يجري من ثل عروشهم حتى يتفرد الأتراك بالسلطة والخلافة على المسلمين، ولا بأس من أن نورد في هذا المقام ما عاتب به الأتراك في مرثيته للأندلس أبو البقاء الرندي؛ إذ يقول:

يا راكبين عناق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع ميزان
وراتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان

وفي القرن الخامس تفاقم خطب العرب ولا سيما بعد الحروب الصليبية التي أثارها الفرنج على سورية وفلسطين.

وفي أوائل القرن السادس ظهر جنكيزخان القائد المغولي، وحمل على الممالك الإسلامية، وكانت حينئذٍ مقسومة إلى أتراك وعرب، فاكتسحها، وخرب أكثر مدنها، وأحرق مكاتبها، ومثَّل بأهلها تمثيلًا فظيعًا. وجاء من نسله هولاكو، ففتح بغداد، وقتل خليفتها المستعصم سنة ٦٥٦هـ، وفرَّ من نجا من العباسيين إلى مصر، فانتقلت الخلافة العباسية إليها.

العصر المغولي

وهو من سنة ٦٥٦–٩٢٣؛ أي نحو ثلاثة قرون، كان العالم الإسلامي فيها تحت حكم المغول والترك والعرب، امتدت سلطة المغول فيهِ من حدود الهند شرقًا إلى حدود سوريا غربًا، وحكم الترك من حدود سوريا شرقًا إلى حدود مصر غربًا، وساد العرب فيما وراء ذلك غربًا إلى شواطئ الأتلانتيك وفي اليمن.

وكانت مصر والشام حينئذ في حوزة المماليك، وهم أتراك وشراكسة ابتاعهم في أول الأمر السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وقربهم إليهِ ليكونوا له عونًا على أعدائه،

فتكاثروا وعظم شأنهم رويدًا رويدًا، وأخيرًا استأثروا بالأحكام، وظل الملك في يدهم نحوًا من ١٣٢ سنة.

وكانت آسيا الصغرى في حوزة الترك، وكانت العراق وفارس في سلطة المغول.

وفي آخر هذا العصر دالت دولة الأندلس على ما قدمنا، وانحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب، وكانت اليمن إمارات صغيرة في زبيد وصنعاء وعدن، أما المغرب فتولتهُ دول صغرى في تونس والجزائر ومراكش بعضها عرب وبعضها بربر.

العصر العثماني

نشأت الدولة العثمانية بآسيا الصغرى في أثناء العصر المغولي، ولما قويت شوكتها فيها اجتاز العثمانيون البحر إلى أوروبا، ففتحوا القسطنطينية سنة (٨٥٧ هجرية/١٤٥٣ مسيحية)، واكتسحوا ممالكها وإماراتها حتى حاصروا فينا، ورفعوا أعلامهم على شبه جزيرة البلقان.

فلما اضطربت سياسة مصر وفسدت فيها الأحكام حمل السلطان سليم عليها وعلى الشام ففتحهما وألحقهما بالبلاد العثمانية سنة ٩٢٣هـ، واستوى سلاطين آل عثمان على عرش الخلافة من ذلك الحين.

وكانت الحكومة العثمانية من نوع الحكم المطلق أشبه ما يكون بحكم الطغاة، إرادة السلطان فيهِ فوق كل إرادة، فينقض ويثبت ما شاء من الأحكام وليس ثمت قيد ولا معارض.

ونشط سلاطين آل عثمان في بدء حكمهم إلى زيادة الفتوحات وتوسيع المملكة حتى سنة ٩٧٤هـ؛ أي إلى أواخر عهد السلطان سليمان الثاني، ومنه أخذت قوة العثمانيين تضعف بما كان منهم من القسوة في معاملة الأمة وقلة التدبر في تنظيم أحوال المملكة والجيش، فتألبت عليها القوات الأوروبية من جهة، ونخرت الفتن قلبها من جهة أخرى، فأصبحت حالها فوضى، وزاد استبداد السلاطين في الرعية، وجعلوا يتساهلون مع الدول الأجنبية بإعطائها بلادهم شطرًا شطرًا مقابل احتفاظهم بقسم من مملكتهم ولسان حالهم يقول: لندع الاهتمام لمن يأتي بعدنا، أما نحن فننعم بما في أيدينا.

كل ذلك والعرب يرون بأم عينهم بلادهم تتجزأ وخلافتهم تضعف، فلا يحركون ساكنًا مع أنهم أولى الخلق ببغض الأتراك وأحقهم بالانتقام منهم، كيف لا وهم مغتصبو ملكهم وخاربو ديارهم ومبيدو آثارهم والقاضون على لغتهم، ولكنهم أدركوا

بعين بصيرتهم ما يتهدد بلادهم من الضياع وما يحيط بها من أطماع الدول الأجنبية، فبدلًا من أن يثوروا على الأتراك ويساعدوا على امتداد لهيب الفتن الداخلية التي تؤدي إلى إضعاف الدولة بحيث يسهل على الدول الأخرى ابتلاعها؛ جعلوا يعاونون الأتراك بإخلاص، ويعضدونهم بما وصلت إليه أيديهم وأفكارهم من قوة ومواهب، راضين من حظهم في حكومتهم بالاحتفاظ بدينهم، وما بقي من قوميتهم ولغتهم أن تتناوله أيدي الفناء.

ذلك كان السبب في صبر العرب على الأتراك قرونًا طويلة إلى أن استلم الاتحاديون زمام الأحكام، وبدأوا يتصرفون فيها على ما يرضي أهواءهم ومطامعهم، غير مكترثين لمصالح المملكة والأمة، فهاج هائج الغضب في صدور العرب حينئذ، وأخذوا يتدبرون فيما يجب عمله إنقاذًا لكيانهم من أنياب الكواسر.

ولحظ الأتراك منهم نظرات الانتقاد وعدم الرضى عن خطتهم، فأخذوا يضطهدونهم ويبطشون بأبطالهم الذين يخشون شرهم بغية أن تتوزع قوة العرب فلا يبقى عليهم ثمت خوف منهم.

على أن ذلك زاد العرب قوة وثباتًا في الدفاع عن كيانهم ورد غارة الإيذاء عن قوميتهم ولغتهم، وهكذا إذا كانت النفوس كبارًا، فكلما زيدت ظلمًا تمردت على الضيم واستبسلت في سبيل الذود عن حريتها واستقلالها.

(٣) العرب والترك «في الماضي»

إن البركان العظيم الذي انفجر في شبه جزيرة العرب فماد له الإسلام طربًا أخرج للعالم حادثًا جللًا في طليعة حادثات هذا العصر وقف التاريخ عنده ورمقه الدهر، ذلك أن أمتين شقيقتين من أعظم أمم الشرق افترقتا بعد اتحادهما الطويل افتراقًا سياسيًّا أبديًّا لا لقاء بعده إلا في ميادين القتال، فالأمة العربية صاحبة القرآن الكريم وحامية الكعبة الشريفة ودرع الإسلام المتين انفصلت عن الأمة التركية التي كفر زعماؤها بالقرآن واحتقروا الكعبة ولطخوا الإسلام بالعار بعد ما تصافتا قرونًا كان للترك غنمها وعلى العرب غرمها.

وليس ذلك الحادث ابن يومهِ، بل هو نتيجة انقلابات طرأت على الأفكار في السنوات الأخيرة فحررتها من قيود التعصب الديني، وجعلتها تنضم جملة تحت لواء الجامعة القومية والغيرة الوطنية، فغيرت بذلك كل اعتقاد سياسي واجتماعي، وأظهرت للعرب

كافة أن اتفاقهم مع الترك كان شرًّا عليهم؛ لأنه لم يكن قائمًا على أساس القومية، فنشطوا لفصم تلك الصلات والظهور بمظهرهم الفطري، شعارهم الحرية، ورائدهم الاستقلال. ولا بدع؛ فالعرب باعتراف العالم المتمدن وشهادة التاريخ العادل قوم تفردوا بمكارم الأخلاق وطيب الأعراق ونبل الصفات وعلو الهمة والذكاء والشجاعة والشمم، يشهد لهم بذلك ماضيهم المجيد ومدنيتهم الزاهرة، فأمة هذه فطرتها ومزاياها لم تكن لتسقط إلى دركات الجهل والانحطاط ويُضْرَبُ المثل بضعفها وتفرق كلمتها لولا النير التركي الذي حملته عن طيبة خاطر إلى الآن باسم الوطنية والدين، فأرهقتها المظالم وغشيتها المغارم.

امتزج التورانيون[٢] بالعرب الكرام، فاعتنقوا ديانتهم واقتبسوا شيئًا من آدابهم، فكان فضل العرب عليهم عظيمًا في انتشالهم من وهدة الجهل والهمجية والضلال، وقد كان التورانيون قبل الإسلام قبائل شيمتها الغدر والاغتيال وارتكاب المعاصي وسفك دماء الأبرياء إلى غير ذلك مما فُطِرُوا عليه، ولا تزال منه بقية في نفوس فريق من أحفادهم.

تربع الترك التورانيون في دست الأحكام بفضل العرب الذين سلموهم زمام الملك الإسلامي المترامي الأطراف، ونهضوا بهم من دركات الذل إلى مصاف الغزاة الفاتحين، واكتسحوا لهم الممالك، ودوخوا الأقطار، وامتلكوا باسمهم الأمصار، فلم يفقه الترك للحكم معنى إلا شن الغارات على الآخرين وتخريب مدنيتهم وإخضاعهم بالسيف، وقد قام الإسلام على أساس العدل والمساواة والعلوم والآداب في عهد العرب، فلما جاء الترك تغيرت الحال، فساد الجهل وعم الفساد؛ قتلوا الفنون والآداب الشرقية والغربية، وقضوا على مدنية الأمم التي حكموها، فما أبقوا لمدينة العرب أثرًا ولا عينًا، ومحوا العلوم حتى العلوم الإسلامية، فراجت السخافات والشعوذات في دولتهم، وصار العالم والتقي يُعْرَفَان في بلادهم بطول اللحية وكبر العمة.

فَقَدَ العرب باتحادهم مع الترك استقلالهم السياسي ومدنيتهم الزاهرة، وكادوا يفقدون قوميتهم ودينهم ولغتهم بعدما نُهِبَتْ أموالهم وخربت ديارهم، وأقفرت بلادهم وضرب الجهل أطنابه بينهم، فصار اسمهم محتقرًا ودينهم مهانًا. ونظر الغرب إلى ما حل بالشرق في عهد الترك، فألقى تبعة ذلك على الإسلام والعرب معًا، وقال: «إن الإسلام عقبة في سبيل الحضارة والارتقاء، وأن العرب اليوم ليسوا عربًا، بل هم رفات العرب البالية.»

ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى تعداد مساوئ الحكومة التركية، وبيان ما أضاعه العرب بدخولهم في الجامعة التي لقبوها بالجامعة العثمانية تمويهًا للحقيقة وخدعة للعناصر الغير التركية، فإذا شاء القارئ أن يعرف شيئًا من ذلك فليراجع التاريخ التركي نفسه منذ دخول هولاكو إلى بغداد وحرق مكاتبها وآثارها وذبح سبعمائة ألف من سكانها[٣] إلى سقوطها بيد تيمورلنك الذي محا كل أثر للمدنية فيها، إلى انقراض دولة الأندلس التي أبى الترك إمدادها … إلخ، إلخ، إلى ما يفعله الاتحاديون اليوم في سورية والعراق!

هذا قسط العرب من الشركة العثمانية، وذلك قسط الترك منها، وشتان بين القسطين، فلا عجب والحالة هذه من انفصال العرب عن الترك، بل العجب كل العجب من عدم انفصالهم عنهم حتى الآن إن لم يكن من أجل العرب فمن أجل الإسلام على الأقل، وقد قال ﷺ: «إذا ذلت العرب ذل الإسلام.»

وليس موضوعي الآن درس المسألة العربية درسًا تاريخيًّا دقيقًا وإيقاف القارئ على الأدوار التي مرت بها منذ سلم العرب زمام الملك الإسلامي إلى الترك، فذلك ما يطول شرحه ويحتاج إلى مجلدات، وإنما غايتي الوحيدة البحث في الدور الأخير الذي مرت به هذه المسألة بحثًا تاريخيًّا إجماليًّا لإظهار الأسباب الخطيرة الشأن التي اضطرت العرب إلى الانفصال عن الترك، وإعلان الحرب على دولة الاتحاديين.

إن المسألة العربية قديمة العهد، وكره الترك للعرب معروف عند الخاص والعام في كل زمان ومكان، كما يظهر للقارئ من مراجعة التواريخ، ولا سيما تواريخ العرب وكتبهم وأشعارهم القديمة والحديثة، ولكن العرب أخلصوا للترك كل هذه القرون مع علمهم بما يضمرونه لهم من الشر لأسباب جوهرية، أهمها رغبتهم في رفع منار الإسلام والمحافظة على كيانهم القومي، وقد كانوا — والحق يُقَال — حتى الزمن الأخير متمتعين بحرية القول واستقلال العمل في بلادهم وغير شاعرين بسلطة الترك عليهم إلا بصورة اسمية، فكانت لغتهم وعاداتهم وتجارتهم وكل ما له صلة بحياتهم الاجتماعية حرة مستقلة، وظل زعماؤهم ورؤساء الأسر القديمة فيهم يحكمونهم ويديرون شئونهم في زمن الحرب والسلم إلى أواسط القرن الماضي، فجاء عالي باشا الصدر الأعظم المشهور حينئذ ودبر مذابح سنة الستين رغبة منه في حمل أوروبا على الدخول في الأمر دخولًا فعليًّا، يمكن حكومة الأستانة من القضاء على نفوذ زعماء العرب وإدارة شئون بلادهم كمستعمرة تركية، وقد نجح في دسيسته نجاحًا باهرًا، فما ابتدأت المذبحة وأنزلت

فرنسا جيشًا في سورية حتى قامت الدولة وتعهدت لأوروبا بمعاقبة المجرمين عقابًا صارمًا، وكانت النتيجة أنها شنقت أعيان الشام وذلت الأشراف فيها، فغيرت نظام البلاد، واستأثرت بالحكم، فأدركت الغاية التي كانت تتوخاها.

وجاء بعد ذلك عبد الحميد، فاستمال فريقًا من العرب إليه بتعيين بعض العرب في مناصب عالية في الدولة، وكان الفريق الآخر أو فريق الأحرار شريدًا طريدًا خارج البلاد العثمانية مع بعض أحرار الترك، فتفاهم أحرار العرب والترك وأسسوا جمعية «تركيا الفتاة»، وكان أحرار العرب يعتقدون أن حكومة عبد الحميد بؤرة كل فساد في المملكة العثمانية، وأن إعلان الدستور يبعث في هذه المملكة حياة جديدة ترفعها إلى مصاف الدول الحية الراقية، فوجهوا كل عنايتهم إلى هذه الغاية وتناسوا كل شيء في سبيل تحقيقها.

(٤) العرب والاتحاديون «بعد الدستور»[٤]

كانت الأمة العثمانية قبل إعلان الدستور العثماني على مستوى واحد من حيث الظلم الذي كان ينالها من الحكومة المطلقة، لا فرق بين مسلمها ومسيحيها وتركيها وعربيها، ومن شأن الحكومات المطلقة أن تساوي بين رعاياها في الظلم، كما أنه من شأن الحكومات الدستورية أن تساوي بين شعبها بالعدل. فالأمة العثمانية كانت سواء بالشكوى قبل الدستور، ولم تكن سواء بالشكر بعده.

إن الاستبداد من طبيعته تخدير القوى الجامعة وتقطيع وشائج الصلة بين أبناء الوطن الواحد؛ لكي تهن الأمة عن مناهضة السلطة المطلقة وتذل لعباد الشهوات من زعماء هذه السلطة، كما أن سلطة الأمة من طبيعتها تنبيه القوى الجامعة وربط أواصر الإخاء الوطني وبث روح الأنفة في النفوس لتساق إلى مستوى التكامل العام القائم على أساس الحرية والإخاء والمساواة.

تحققت طبيعة الاستبداد في الأمة العثمانية على عهد الحكومة المطلقة، ولم تتحقق طبيعة سلطة الأمة في عهد الحكومة الدستورية، فلم يستبدل الضعف والتقاطع والتخاذل والذل والرضوخ لسلطة الفرد بالقوة والاتحاد والعزة وتحقيق سلطة الأمة والتكافل العام على توطيد دعائم الحكومة الدستورية حكومة العدل والحرية والإخاء، فنشأ عن ذلك يأس عظيم من الإصلاح وسوء ظن متبادل بين العناصر العثمانية، ولا سيما العنصرين الكبيرين العرب والترك.

(٤-١) أسباب سوء الظن بالعرب

والغريب في الأمر أن شبان الترك أنفسهم هم الذين جعلوا الترك يسيئون الظن بالأمة العربية، ولا سيما الطبقة العالية فيها؛ ذلك أن هؤلاء الشبان الذين لجأوا إلى مصر على عهد مجيء مراد بك الداغستاني إليها (سنة ١٣١٤ هجرية) دبروا مع بعض المقامات العالية مكيدة لإرهاب عبد الحميد، وحمله على إعادة القانون الأساسي. وتلك المكيدة هي تخويفه من خلافة عربية، وتصوير تلك الخلافة له في صورة الحقيقة، فلم تنجح معهم هذه المكيدة، ولم تزده إلا وساوس فوق وساوسه.

وكان من أثر شيوعها بين الناس أن جعلها ذوو الأغراض وسيلة للاستفادة من وساوس عبد الحميد، فكرروها على المسامع إلى أن أحدثت أثرًا سيئًا في الأمة التركية حتى في الذين اختلقوها أنفسهم؛ إذ صار مثلها ومثلهم كمثل أشعب الذي ضايقه الصبيان مرة في الشارع، فتخلص منهم بأن قال لهم «فلان يوزع الآن نقودًا على الجمهور»، ثم ما لبث أن قال في نفسه بعد ذهابهم «ما أدراني أن هذا الأمر صحيحًا»، ثم اندفع وراءهم راكضًا ليأخذ نصيبه.

فهذه الشكوك وأمثالها التي خالجت الترك في نيات العرب والعناصر العثمانية الأخرى جسمت للاتحاديين صورة الخطر على سيادة عنصرهم، فأوجسوا خوفًا واستعجلوا في القيام على عبد الحميد تخلصًا من شره، وإنقاذًا للسلطة من يديه.

وقد وُفِّقُوا لنيل هذه الأمنية بمساعدة زعماء العرب وضباطهم وأحرارهم والمخلصين للدولة العثمانية من أبناء العناصر الأخرى.

أُعْلِنَ الدستور في (١٠ تموز/٢٣ يوليو) فقابله العرب بحماسة عظيمة، وتناسوا كل شيء حتى قوميتهم في سبيله، وانضموا إلى الترك قلبًا وقالبًا، اعتقادًا منهم بأنه لم يبقَ في الدولة عرب ولا ترك ولا أرمن ولا كرد، بل صاروا كلهم عثمانيين متساوين في الحقوق والواجبات، واتجهت أنظارهم إلى جمعية الاتحاد والترقي اتجاهًا لم يُعْهَدْ له مثيل في تاريخ الانقلابات.

فماذا جرى بعد ذلك العطف الشديد والسرور العام من صنيع جمعية الاتحاد والترقي وإجماع العناصر العثمانية كلها على الوفاق وتناسي الأحقاد الماضية ليسيروا في طريق حياتهم الجديدة، حياة الإخاء والحرية والمساواة؟ ماذا جرى حتى انقلب هذا كله إلى انشقاق وافتراق وتنافر وشحناء وجلبة واستياء؟ وكيف لم تحسن الجمعية

الانتفاع بتلك القوة الهائلة قوة عطف العناصر عليها وتعاونهم على تعضيدها تأييدًا لمبادئ الحرية التي نادت بها يوم إعلان الدستور؟!

إن الأمة العثمانية صارت كلها كتلة واحدة مع الاتحاديين لما أظهروا أنهم معها، ولكن لما انفردوا عنها فارقتهم وعادت إلى الانقسام على نفسها بأشد مما كانت عليهِ في عصر الاستبداد.

انفصل الاتحاديون عن الأمة وصاروا في شق وهي في شق آخر منذ تظاهروا بالنعرة الجنسية، وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة الترك لسائر العناصر العثمانية، فنبهوا بذلك العصب الحساس في العثمانيين كافة، فابتعدت قلوبهم عنهم، وعادت روح الجنسية إلى صدورهم، وهبت ريح التنافر والشقاق على البلاد العثمانية من تخوم أوروبا إلى شواطئ البحر الأحمر.

هذا الخطأ مع ما أضيف إليه من الأغلاط التي صدرت من حزبهم، ولا سيما استعمال سياسة الشدة والعنف مع الشعوب العثمانية الأخرى كان السبب الثاني لاضطراب الجامعة العثمانية؛ لأن هذه الشعوب شعرت بتغير مسلك الاتحاديين تغيرًا غير منتظر من حزب كان يعد نفسه حامي الحرية ومقدر سلطة القانون وهادم أركان الاستبداد، فأخذ سوء الظن يعود إلى النفوس والثقة المتبادلة تضعف وتزول.

بدأ ذلك منذ جعلت الحكومة الاتحادية القوة قاعدة لإصلاح الشعوب العثمانية، وأخذت تعقد القروض في أوروبا وتنفقها على الجيش لتضرب به العناصر غير التركية، ولا سيما العرب والألبان والكرد الذين كانوا أخلص العناصر لها وأشدهم تمسكًا بها، ولم يُعْهَد في تاريخ من تواريخ الأمم والحكومات إصلاح بغير طرق الإصلاح القانونية ونواميسِهِ المدنية، وأهمها نشر العلم وتعميم المعارف ووضع قواعد العدل على أساس وطيد الأركان وإنماء موارد الثروة العمومية بالإنفاق على الأمور النافعة وحماية التجارة وتنشيط أهلها، وغير ذلك من ضروب الإصلاح التي هي أصل ترقي الأمة وسعادتها ومجدها وعلة التفافها حول حكومتها وتفانيها في سبيل الذب عنها.

أما هذا الضرب من الإصلاح — أي الإصلاح بالسيف، وجعل المملكة ميدانًا لسفك الدماء — فلم يُعْرَفْ في تاريخ من التواريخ، وإنما كان ميراثًا ورثه الاتحاديون عن أجدادهم التورانيين، فأساءت الدول المتمدنة الظن بهم من ذلك الحين، ورفضت أن تقرضهم المال بغير مراقبة أجنبية على مالية الدولة.

وهذه الأغلاط الكبيرة في سياسة حزب الاتحاديين انتقدتها الأحزاب البرلمانية كلها حتى جماعة من الاتحاديين أنفسهم، كالدكتور رضا توفيق المعروف بالفيلسوف، وغيره،

ومما قاله الدكتور رضا توفيق في هذا الشأن سنة ١٩١٠ لمحرر جريدة بروجره دي سلانيك: «أنا على اتفاق تام مع الجمعية على أن البلاد في حاجة إلى حكومة قوية، ولكني أخالفها في استخدام القوة، وإذا كان وجودي في المجلس قضى عليَّ بأن أحمل على طلعت بك الممثل الأكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منذ الساعة الأولى في جمعية الاتحاد والترقي، فذلك لاعتقادي بأن الواجب عليَّ أن أفعل ما فعلت، ولو سكت كغيري لكان ذلك خيانة لا يغتفرها الوطن لي. إن الدستور لا يكون إلا كلمة لا معنى لها إذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الأساسية وحرية القول والكتابة والخطابة وإذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة بمقتضى أحكام الدستور.»

(٤-٢) شروع الاتحاديين بمناهضة العرب

علمنا مما سبق أن سياسة الاتحاديين هي التي نبهت الفكرة القومية في العناصر العثمانية، وأن جمعية الاتحاد والترقي إذا انتحلت عذرًا لسوء ظنها ببعض العناصر ولا سيما العناصر المكدونية، فلا عذر لها على سوء ظنها بالعرب الذين أخلصوا لها قبل إعلان الدستور وبعده، ولكن هذه الجمعية بدأت باضطهاد العرب قبل كل الشعوب العثمانية، فضربت بذلك أول معول في أساس الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية.

ذلك أن العثمانيين هبوا بعد إعلان الدستور كمن أفلت من عقال وأُطْلِقَ من سجن مظلم، فما لبثوا أن رأوا نور الحرية حتى جعلوا يؤلفون الجمعيات والمنتديات لبث روح التعاون في الأمة، فألف الألبان جمعية في الأستانة، وعقبهم الشركس والكرد، وكان للروم والأرمن جمعيات منظمة سرية، فجعلوها قانونية واقتفى العرب أثرهم، فألفوا جمعية «الإخاء العربي العثماني» في الأستانة وافتتحوا ناديًا بهذا الاسم.

فما نُوهِضَ قوم من أولئك الأقوام بهذا العمل الجليل إلا العرب، حتى إنهم اضطروا في النهاية إلى حل جمعيتهم، وإقفال ناديهم بأمر الاتحاديين، وكان هذا العمل أول بادرة من بوادر سوء الظن صدرت من جمعية الاتحاد والترقي، فسرت إلى العرب وأخذ الخطب يتفاقم من ذلك التاريخ.

هذا ولم تقف الشكوى حينئذ عند حد مناهضة الاتحاديين لجمعية «الإخاء العربي العثماني» بل تعدته إلى أمور أخرى أعظم شأنًا، منها استدعاء ضباط العرب من أوطانهم إلى الأستانة ومنعهم من الالتحاق ببعثة الضباط العلمية إلى ألمانيا، وعدم إدخال العرب المنتسبين إلى جمعية الاتحاد والترقي في اللجنة المركزية لهذه الجمعية وعزل

موظفي العرب ودعوة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لكل زعماء العناصر العثمانية إلى مفاوضتهم في الشئون الداخلية، وعدم الاكتراث بزعماء العرب إلى غير ذلك من الأمور التي تؤلم العواطف وتؤثر في رابطة الوحدة العثمانية.

وكانت شكاوي العرب في سنة ١٩١٠ تنحصر فيما يلي فقط:

أولًا: إقصاء عدد كبير منهم عن الوظائف التي كانوا فيها في الأستانة، ولا سيما في وزارتي الخارجية والداخلية بحكم قانون «التنسيق» — أي تغيير المأمورين — بحيث تناول هذا «التنسيق» كل المأمورين من أبناء العرب عمدًا، فكان الاتحاديون يكتبون في جداول التنسيق حرف ع — أي عربي — أمام اسم كل مأمور من أبناء العرب ليعرف «المنسقون» جنسيته.

ثانيًا: عدم دعوة أبناء العرب إلى أي اجتماع غايته التأليف بين العناصر العثمانية.

ثالثًا: عدم إدخال عربي من أعضاء الجمعية الاتحادية في اللجنة المركزية في سلانيك حتى الضباط العرب الذين كانوا أول من أعلن الدستور.

رابعًا: عدم قبول أي عضو عربي من أعضاء الجمعية في المذاكرات السياسية التي كانت الجمعية تجتمع لأجلها في الأستانة.

خامسًا: عدم قبول عربي في اللجان المركزية الاتحادية، وتحويل جمعية الاتحاد والترقي من جمعية عثمانية إلى جمعية تركية بحتة.

سادسًا: انتزاع وزارة الأوقاف من وزير عربي وإسنادها إلى وزير تركي، بحيث لم يبقَ أحد من أبناء العرب في الوزارة.

سابعًا: استبدال الولاة والمتصرفين والقضاة من أبناء العرب بولاة ومتصرفين وقضاة من الترك وعدم تعيين موظف عربي أو عارف باللغة العربية في سورية والعراق.

ثامنًا: معارضة الاتحاديين لكل مشروع علمي أو أدبي في البلاد العربية، مثال ذلك أنهم عملوا على حل جمعية «النهضة السورية» الأدبية التي تألفت في دمشق، وألغوا الشركة التي تألفت في نابلس لإنشاء مدرسة منظمة فيها … إلخ.

تاسعًا: مناهضتهم للغة العربية مناهضة غريبة في بابها، فقد نشر سفير الدولة في واشنطن سنة ١٩٠٩ إعلانًا حظر فيه على العثمانيين المقيمين في أميركا مخاطبة السفارة بغير اللغة التركية، مع علمه بأن الجالية السورية هناك لا يقل عددها عن نصف مليون، وأنه ليس بينها رجل واحد يحسن اللغة التركية.

وكان القائمقامون وبعض رؤساء المحاكم في سورية والعراق في ذلك الحين يتفاهمون مع الأهلين بواسطة الترجمان. وقد قال أحد المستشرقين النمساويين في حديث له مع جودت بك صاحب جريدة أقدام إنه سمع بأذنِهِ شكوى أحد اليمنيين إلى الوالي بواسطة المترجم فعكسها المترجم عكسًا؛ أي إنه جعل الحنظل عسلًا، إلى غير ذلك مما يعرفه القراء ولا حاجة بنا إلى تعداده.

ولا ريب في أن هذا الخلاف كان يسهل حسمه في تلك الأثناء لو أظهر الاتحاديون أقل إخلاص للعرب؛ لأن حقوق العرب لم تكن كلها مهضومة كما صارت بعد سنة ١٩١٣، ولأن استياء الأمة العربية نشأ معظمه بعد ذلك عن شدة حب الاتحاديين للاستئثار بالسلطة وتورطهم في النعرة الجنسية تورطًا أدى إلى مناهضة العرب وإقصائهم عن المراكز السياسية والإدارية وغل يدهم في الأعمال النافعة والعمل على القضاء على لغتهم ومدنيتهم وعاداتهم.

وفي أواخر سنة ١٩٠٩ دعا بعض ضباط العرب وزعمائهم أصحاب الرأي من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي إلى اجتماع طويل في الأستانة للبحث في التدابير التي يجب اتخاذها لحسم هذا الخلاف بين العرب والترك حسمًا نهائيًّا، وكاد هذا الاجتماع يسفر عن نتيجة مرضية لولا دخول بعض غلاة الترك — كأحمد أغايف بك ويوسف أقشورة بك وغيرهما — في الأمر وتفوههم بما يمس العرب ويزيد نفورهم منهم ويقضي على آمالهم فيهم.

وكانت الحال ساكنة في السنوات الأولى التي عقبت ثورة ٣١ مارس، وظلت كذلك إلى أن ظهرت نيات الاتحاديين لبعض زعماء العرب واضحة جلية بإرسالهم الحملة تلو الحملة على البلاد العربية، ولكن تلك الحوادث المؤلمة لم تؤثر كثيرًا في الرأي العربي العام لما أبداه الاتحاديون من الدهاء في ذلك الحين، فقد عينوا المرحوم سامي باشا الفاروقي قائدًا للحملة التي أرسلوها على حوران ليرضوا العرب بهذا التعيين ويقنعوهم بأنهم لا يضمرون لهم شرًّا، ولكنهم من جهة أخرى أحاطوا هذا القائد العربي الكبير بضباط معظمهم من غلاة الترك، فغلوا يدهُ بهم ونفذوا خطتهم باسمِهِ ثم تنصلوا أمام العرب من تبعة الأعمال التي عزوها إليه، وكان هو بريئًا منها.

وعينوا عزت باشا قائدًا للحملة التي أرسلوها على اليمن وعزيز علي بك في أركان حرب تلك الحملة، وأولهما محبوب من العرب، والثاني من صميمهم وكبار زعمائهم،

فلم يرَ العرب في ذلك ما يسوءهم، لا سيما وأن عزيز علي بك تمكن من حقن الدماء بما أبداه من المهارة وحسن السياسة، فأبرم اتفاقًا مع سيادة الإمام يحيى جاء في مصلحة الفريقين، ولا تزال الدولة تجني ثماره إلى الآن.

ولم تكن حالة العرب في تلك الأثناء قد ساءت كثيرًا، فكان نوابهم في مجلس المبعوثان من أفاضل النواب وكلمتهم مسموعة فيه وحالة بلادهم هادئة وصلاتهم بالاتحاديين حسنة في الظاهر؛ لأن فريقًا من زعمائهم لم يكونوا قد انفصلوا رسميًّا عن جمعية الاتحاد والترقي في ذلك الحين، ولأن هذه الجمعية كانت في حاجة ماسة إلى من يؤيدها ويستميل العناصر العثمانية إليها، فتمسكت بأحرار العرب وتظاهرت بالميل إليهم تحقيقًا لآمالها.

على أنه لما استتب الأمر للاتحاديين ورأوا نفوذهم في البلاد العثمانية عظيمًا أماطوا اللثام عن حقيقة حالهم، فأعلنوا خطتهم الجديدة على رءوس الأشهاد وعدلوا برنامج جمعيتهم تعديلًا جعلها تركية بحتة، فانفصل عنها حينئذ كل أحرار العرب والألبانيين والأرمن وبعض الترك الغيورين على مصلحة وطنهم، وجاهروا بمقاومتها بعدما استلم زمامها شبان من غلاة الترك لا خبرة لهم ولا وطنية ولا دين، وأنشأ أحرار الترك جمعية «الحرية والائتلاف» التي كانت غايتها منح الولايات العثمانية استقلالًا إداريًّا وإدارة شئون المملكة على أساس اللامركزية، فانتظم في سلك هذه الجمعية عظماء الترك ككامل باشا والبرنس صباح الدين وصالح باشا ورضا نور ولطفي فكري وعلي كمال وصادق بك وغيرهم، ومعظم مبعوثي العرب والأرمن والأروام والألبانيين وفريق كبير من القواد والضباط، وكان ذلك في إبان ثورة ألبانيا، فقامت هذه الجمعية بمظاهرة ثورية في الأستانة أسفرت عن سقوط وزارة الاتحاديين وحل مجلس المبعوثان وتعيين وزارة ائتلافية برئاسة مختار باشا ثم برئاسة كامل باشا، فسر العرب بهذا الانقلاب ورأوا فيه خيرًا لهم ونفعًا للبلاد.

وكانت الأزمة الخارجية شديدة جدًّا في تلك الأثناء؛ فحرب مع إيطاليا، وثورة في ألبانيا، واتحاد في البلقان، ومؤامرات واستياء في الداخل، وفراغ في الخزينة، وارتباك في الإدارة، وفساد في الجيش، كل ذلك من الإرث الذي تركه الاتحاديون لوزارة الائتلافيين في سنة ١٩١٢، فتفاقم الخطب واتسع الخرق على الراقع. ولكن الوزارة الائتلافية الجديدة لم تستسلم لليأس والقنوط، بل جعلت تعمل بهمة لا تني وعزم لا يفتر على إصلاح الحال الداخلية والخارجية.

ولما رأى البلقانيون أن الباب العالي نهج في سياسته الداخلية والخارجية منهجًا قويمًا قد يفقدهم ثمرة المعاهدات التي أبرموها بينهم بعد عناء عظيم انتهزوا الفرصة السانحة، وطلبوا من الحكومة العثمانية مطاليب عديدة في شأن مكدونية ثم عززوا ذلك بتعبئة جيوشهم وحشدها على حدود الدولة، وقد قرَّ قرار الباب العالي بعد مفاوضات طويلة مع الدول العظمى على أن يسوي مسألة مكدونية على ما يوافق مصلحة سكانها ويرضي الدول البلقانية ويحفظ حقوق الدولة العثمانية ومنزلتها اجتنابًا لحرب لم تكن الأمة على استعداد لها، وقبل أن يبلغ قرارهُ هذا إلى الدول العظمى قام الاتحاديون بمظاهرات عظيمة في شوارع الأستانة وأمام الباب العالي طالبين إعلان الحرب في الحال، وقابل وفد منهم مختار باشا الغازي الصدر الأعظم في ذلك الحين، فقال له «لقد حاربت يا باشا وصرت غازيًا، فدعنا نحارب نحن أيضًا، فإما أن نصير غزاة أو شهداء.» وكان من تشديد جمعية الاتحاد والترقي وفروعها وأنصارها من ضباط وملكيين على الوزارة الائتلافية أنها اضطرت إلى محاربة البلقانيين رغبة في تسكين الخواطر واجتنابًا لحرب داخلية مع علمها بسوء حالة الجيش وحاجة الأمة إلى السكينة والإصلاح.

(٤-٣) ظهور الأحزاب العربية

عقبت الحرب البلقانية الحرب الطرابلسية، فأشرفت الدولة العثمانية على الهلاك، وكثرت الأطماع في بلادها، وعُرِضَتْ المسألة الشرقية على بساط البحث في الصحف الأوروبية والأندية الرسمية وغير الرسمية، فرأى زعماء العرب أن الخطر على الدولة أقوى وأسرع مما كانوا يخشون، وأن الدولة التي عجزت عن حفظ الروملي وهو سياج الأستانة وحصنها أمام البلقان ستعجز بالأولى عن الدفاع عن البلاد العربية إذا هجمت عليها دولة قوية؛ إذ ليس فيها حصون ولا سلاح، وكان هذا الأمر منبهًا لكثير من أصحاب الوطنية من أبناء العرب إلى ما سبقهم إليه بعض أذكياء الترك، وهو الدعوة إلى وجوب جعل إدارة الدولة على أساس اللامركزية؛ لأن ذلك أدعى إلى عمران كل قطر واستعداده للدفاع عن نفسه حين الحاجة، فألفوا الأحزاب المعروفة عند القراء والجمعيات التي لا يعرفها إلا قليلون منهم لقلة انتشارها وانحصارها في فئة مخصوصة من شبان العرب، وهذه الأحزاب هي: حزب اللامركزية ومركزه مصر القاهرة ورئيسه سعادة الوطني الكبير رفيق بك العظم، وجمعية الإصلاح البيروتية وقوامها نخبة من أعيان سورية، والمنتدى الأدبي وقوامه خيرة شبان العرب، وجمعية البصرة الإصلاحية ورئيسها الزعيم

الكبير السيد طالب بك النقيب ... وأحزاب وجمعيات أخرى ملكية وعسكرية تأسست عقب فظائع الاتحاديين، ولا سيما الفظائع الأخيرة التي اقترفوها في سورية والعراق.

حزب اللامركزية

ولما كان الانتساب إلى حزب اللامركزية أو إلى الجمعية الإصلاحية البيروتية أعظم تهمة وُجِّهَتْ إلى فرائس الاتحاديين في البلاد العربية، رأيت أن أنشر قانونهما، وأبين خلاصة أعمالهما، تاركًا للقراء الحكم في فظائع تلك العصبة السفاحة وأكاذيبها ومفترياتها، وهذا هو قانون حزب اللامركزية العثماني بنصه:

المادة الأولى: أُلِّفَ حزب سياسي باسم «حزب اللامركزية الإدارية العثماني.»

المادة الثانية: القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية.

المادة الثالثة: ليس هذا الحزب خفيًّا، وليس فيه ما يُعَدُّ من الأسرار، فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرًا وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقينًا أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بُنِيَتْ حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية.

المادة الرابعة: إن الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر، على شرط أن يكون أولًا: من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية، ثانيًا: غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف، ثالثًا: غير مشتهر بسوء السيرة، رابعًا: أن يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب.

المادة الخامسة: يكفي لمن يريد الدخول في الحزب أن يكون دليله أحد أعضاء الحزب مع موافقة لجنة الإدارة المحلية على ذلك، ولا يجوز قبول عضو ما دام من حزب يخالف هذا الحزب في المبدأ والغاية.

المادة السادسة: للمنتمي إلى الحزب أن يستقيل من عضويته في أي وقت شاء.

المادة السابعة: على العضو أن يدفع إلى الفرع المسجل فيه اسمه راتبًا شهريًّا أقله قرشان، ويقبل الحزب التبرعات، ويعفي الفقراء من الراتب.

المادة الثامنة: لا يقيد الحزب أعضاءه بشيء غير قواعد البرنامج السياسي الذي وُضِعَ لأجله.

المادة التاسعة: على النواب «المبعوثين» المنتمين إلى الحزب أن يسعوا بكل ما في وسعهم لتنفيذ قواعد برنامج الحزب في المجلس.

المادة العاشرة: لا يسوغ لأحد من المنتمين إلى الحزب مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء أنفسهم، وإذا ثبت على أحد الأعضاء مثل هذا السلوك يُمْحَى اسمه من سجل الحزب.

المادة الحادية عشرة: أن مركز الحزب العام في مصر القاهرة، ويجوز لكل بلد أو قرية اجتمع فيها عشرة من أهلها على مبدأ اللامركزية الإدارية أن يؤسسوا فرعًا له، ويخبروا المركز العام بذلك.

المادة الثانية عشرة: تتألف اللجنة العليا للحزب من ٢٠ عضوًا يُنْتَخَبُ منهم رئيس، ونائب رئيس، وسكرتير، ومساعدان له، وأمين للصندوق، ويجوز لهذه اللجنة أن تضم إليها من ترى فيه فائدة للحزب.

المادة الثالثة عشرة: إذا غاب الرئيس ونائبه يرأس الجلسة أحد أعضائها.

المادة الرابعة عشرة: كل فرع من فروع الحزب يتبع المادتين ١٢ و١٣ في تأليف لجنته الإدارية وانتخاب الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق.

المادة الخامسة عشرة: يعقد كل فرع مؤتمرًا فرعيًّا محليًّا في شهر يونيو (حزيران) من كل سنة يحضره جميع أعضاء الفرع، وتعقد اللجنة العليا مؤتمرًا حزبيًّا عامًّا في مصر القاهرة في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من كل سنة يحضره أعضاء اللجنة العليا وأفراد الحزب في المركز العام ومندوبون ترسلهم اللجان الفرعية.

المادة السادسة عشرة: يرسل كل فرع للمؤتمر العام مندوبًا من قبله.

المادة السابعة عشرة: تنتخب كل لجنة إدارية رئيسها وسكرتيرها وأمين صندوقها من أعضائها بالاقتراع السري، وتعرف المركز العام في القاهرة بنتيجة الاقتراع.

المادة الثامنة عشرة: على اللجان الإدارية الفرعية أن تسعى بكل الوسائل المشروعة لنشر مبادئ الحزب وتعميمها بين الناس وتكثير أفراد المحازبين، والاجتهاد في سبيل انتخاب نواب لمجلس المبعوثين وللمجالس العمومية والإدارية والبلدية من الأكفاء الذين على مبدأ الحزب.

المادة التاسعة عشرة: اللجنة العليا تضع تعديل القوانين واللوائح للحكومة اللامركزية، وتسعى مع سائر اللجان والأفراد إلى إقناع الشعب والحكومة بها.

المادة العشرون: على اللجان الإدارية الفرعية أن تتخذ دفاتر لقيد قراراتها وأسماء الأعضاء وموظفي فروع الحزب وأمواله.

المادة الحادية والعشرون: تجتمع اللجان كلما قضت الحال بدعوة من الرئيس أو نائبه، والعضو الذي لا يحضر الاجتماع أربع مرات متواليات من غير عذر يُعَدُّ مستقيلًا من عضوية اللجنة.

المادة الثانية والعشرون: على السكرتير وأمين الصندوق في كل لجنة أن يقدما إلى تلك اللجنة في آخر كل سنة كشفًا ببيان إيرادات الفرع ونفقاته عن تلك السنة، وعلى كل لجنة أن ترسل صورة من هذا الكشف إلى اللجنة العليا.

المادة الثالثة والعشرون: لا تعد مذكرات اللجان قانونية إلا إذا اجتمع نصف أعضائها على الأقل، وإذا كُرِّرَتْ الدعوة اكْتُفِيَ بمن حضر.

المادة الرابعة والعشرون: للجنة كل فرع الحرية التامة في أعمالها إلا ما قيدتها به قرارات اللجنة العليا أو المؤتمر العام.

المادة الخامسة والعشرون: على لجان الفروع أن ترسل إلى اللجنة العليا كل ثلاثة شهور كشفًا يحوي أسماء الذين دخلوا في خلال هذه المدة في الحزب، وأسماء الخارجين منه، وسبب خروجهم، والمتنقلين من مكان إلى مكان، وكشفًا آخر يحوي بيان أعمالها في المدة المذكورة.

المادة السادسة والعشرون: على اللجنة العليا أن تراقب سير أعمال لجان الفروع وحسن تنفيذ قوانين الحزب.

المادة السابعة والعشرون: على اللجنة العليا أن تهيئ لائحة عامة عن الحزب وأحواله، بناء على ما يرد عليها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع، وترفعها إلى المؤتمر العام.

المادة الثامنة والعشرون: تجتمع الجمعيات العمومية والمؤتمر العام في مواعيدها المقررة حسب المادة (١٥)، ويرأسها في كل مكان رئيس اللجنة الإدارية، وأما المركز العام فينعقد برئاسة اللجنة العليا.

المادة التاسعة والعشرون: تنظر كل جمعية عمومية في نتيجة الحسابات، وفي بيان لجنة الإدارة عن أعمالها في السنة الماضية، وتصادق على الحسابات الختامية، وتقرر ما يجب العمل به في السنة المقبلة، وتنتخب نصف أعضاء مجلس الإدارة، وتُفَضُّ بعد انتهاء عملها.

المادة الثلاثون: على سكرتير كل لجنة إدارية أن يقوم بضبط المحاضر ومقررات الجمعية العمومية، وعلى سكرتير اللجنة العليا ومساعديه أن يقوموا بضبط أعمال المؤتمر العام.

المادة الحادية والثلاثون: من خصائص المؤتمر العام الاطلاع على بيان اللجنة العليا عن أعمال الحزب في السنة الماضية ورؤية حساباتها والتصديق عليها والمذاكرة في كل ما يُرْفَع إليه عن أعمال السنة المقبلة وتقريرها.

المادة الثانية والثلاثون: كل تغيير وتبديل في برنامج الحزب السياسي الأساسي من حقوق المؤتمر العام، ولا يتم ذلك إلا بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة من لجان الفروع ويُعْمَل بغالبية الآراء.

المادة الثالثة والثلاثون: على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام كل منها فيما يخصه.

الجمعية الإصلاحية البيروتية

وهذه أيضًا اللائحة التي صدقت عليها الجمعية العمومية الإصلاحية في بيروت في جلستها العامة الثالثة، المنعقدة بإذن الحكومة في دار المجلس البلدي، يوم الجمعة الواقع في ٢٣ صفر سنة ١٣٣١ و٣١ كانون الثاني (فبراير) سنة ١٩١٣:

مادة أساسية: الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية.

المادة الأولى: تُقَسَّم إدارة الولاية إلى قسمين: القسم الأول هو المشتمل على الأعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشئونها الأساسية، وهي المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبوستة والتلغراف وسن القوانين ووضع المكوس.

والقسم الثاني هو المشتمل على الأعمال المحلية المتعلقة بشئون الولاية الداخلية الخاصة.

فكل ما يتعلق بالقسم الأول منوط تقريره وإجراؤه بالحكومة المركزية، وكل ما يتعلق بالقسم الثاني منوط تقريره بمجلس الولاية العمومي.

المادة الثانية: للوالي صفتان قانونيتان: الأولى تمثيل الحكومة المركزية، وبهذه الصفة يتولى إجراء جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الأول طبقًا لقرارات الحكومة المركزية.

والثانية تمثيل حكومة الولاية التي يرأسها، وبهذه الصفة يتولى تنفيذ جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الثاني طبقًا لقرارات المجلس العمومي. أما حقوق الوالي ووظائفه فهي: أولًا: تنفيذ قرارات المجلس العمومي. ثانيًا: الاعتراض على قرارات المجلس العمومي، على الشروط الآتي بيانها في باب «الوالي والمجلس العمومي». ثالثًا: الاطلاع على لوائح المشاريع التي تعدها «لجنة المجلس العمومي» لإبداء ملحوظاته عليها قبل تقديمها إلى المجلس. رابعًا: تعيين المتصرفين والقائمقامين والمديرين بعد عرض أسمائهم على الحكومة المركزية وفقًا لنظام يضعه المجلس العمومي. خامسًا: تعيين الطلاب المتحنين الذين تعرض عليه لجنة الامتحان أسماءهم لأجل التوظيف. سادسًا: دعوة المجلس العمومي في الميعاد المعين لاجتماعه، ويمكنه دعوته لاجتماع فوق العادة بمصادقة لجنة المجلس أو «مجلس المستشارين».

المادة الثالثة: يؤلف في الولاية مجلس عمومي من ثلاثين عضوًا يُنْتَخَبُ نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من غير المسلمين لمدة أربع سنوات، وهم ينتخبون منهم رئيسًا لهم بالاقتراع السري «أما سائر الانتخابات العمومية فتُبْنَى على قاعدة التمثيل النسبي العددي في دوائر الانتخابات.»

أما حقوق المجلس العمومي ووظائفه، فهي: أولًا: تقرير جميع أعمال الولاية الداخلية، والمذاكرة فيما يُعْرَض عليه من قبل الوالي أو لجنة المجلس أو عشرة من أعضائه. ثانيًا: وضع الأنظمة الداخلية بشرط أن لا تمس شئون السلطنة الأساسية. ثالثًا: عقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية، أما القروض التي تتجاوز قيمتها هذا المبلغ فيلزم لها مصادقة الحكومة المركزية. رابعًا: إعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة (آنونيم) عثمانية للمشاريع العمومية النافعة للتجارة والصناعة والزراعة وسائر الشئون العمرانية داخل الولاية على شرط أن لا تتضمن امتيازًا. أما المشاريع التي تتضمن امتيازًا، فيجب مصادقة الحكومة

المركزية عليها، وتخول هذه الشركات الشخصية المعنوية، بمعنى أن يكون لها حق التملك. خامسًا: تقرير الضمائم الكسورية على المكوس المقررة. سادسًا: تقرير رواتب موظفي ومستشاري الدوائر التي هي بإدارة حكومة الولاية. سابعًا: حق استيضاح الوالي وطلب عزله، ولا يتداخل المجلس العمومي في الشئون السياسية العامة مطلقًا.

المادة الرابعة: قرارات المجلس العمومي نافذة ما لم يعترض عليها الوالي بمصادقة مجلس المستشارين في خلال أسبوع من تاريخ تبليغه إياها، فيعيد المجلس النظر في قراره، وإذا أصر عليه بأكثرية ثلثي الأصوات يكتسب القرار الصفة القانونية القطعية، وعلى الوالي تنفيذه.

المادة الخامسة: ينتخب المجلس العمومي بالاقتراع السري لجنة من أعضائه واحد منهم من كل لواء واثنان من مركز الولاية لمدة سنة واحدة، فتجتمع بإدارة مستشار المجلس العمومي.

أما وظائف اللجنة فهي: أولًا: مراقبة تنفيذ قرارات المجلس. ثانيًا: درس المشاريع اللازمة للولاية وإعداد لوائحها. ثالثًا: تعيين مهندسين اختصاصيين للاستعانة بهم في أعمالها. رابعًا: حق الاعتراض على المتحنين الذين تقدم إليها «لجنة الامتحان» أسماءهم قبل عرضها على الوالي. خامسًا: دعوة المجلس العمومي لاجتماع فوق العادة باتفاق ثلثي أعضائها ومصادقة مستشار المجلس.

المادة السادسة: الوالي وحاكم الشرع في مركز الولاية والدفتردار وباشمدير الرسومات وباشمدير البوسطة والتلغراف وقومندان الجندرمة وضباطها؛ تعينهم الحكومة المركزية على شرط معرفتهم اللغة العربية معرفة تامة، ويُسْتَثْنَى من هذا الشرط والي الولاية لمدة خمس سنوات من تاريخ وضع مواد هذه اللائحة موضع الإجراء.

أما بقية الموظفين فينبغي أن يكونوا من أهالي البلاد، ويجري تعيينهم على الوجه الآتي بيانه:

«يمتحن طالبو الوظيفة أمام لجنة مؤلفة من مستشار ورئيس الدائرة التي يطلبون الدخول فيها فتقدم لجنة الامتحان اسمي الممتازين منهم إلى لجنة المجلس العمومي، وبعد مصادقتها يُعْرَضَان على الوالي فيعين أحدهما. ولدى تعيينه يبلغ الوالي اسمه للنظارة المنسوب إليها، فيقيد في سجلها محافظة على حقوق ترقيته وتقاعده، وأما رؤساء العدلية فيعينون وفقًا لنظام يضعه المجلس العمومي.

الموظفون المعينون من قبل الولاية عدا رؤساء العدلية تُكَفُّ يدهم بناء على طلب المستشار ورئيس الدائرة المنسوبين إليها معًا، وأما رؤساء العدلية فتُكف يدهم بناء على طلب المستشار ومصادقة مجلس المستشارين. وقرار كف اليد في كلا الحالين ينفذه الوالي. وللموظف المكفوفة يده الحق بمراجعة الوالي في خلال سبعة أيام من تاريخ تبليغه ذلك إذا كان موظفًا في مركز الولاية وخمسة عشر يومًا إذا كان خارج المركز، فيحيل الوالي دعواه إلى مجلس المستشارين ليحكم في وجوب العزل أو عدمه. والموظف الذي يحكم مجلس المستشارين بعزله لا يجوز استخدامه في دوائر الحكومة ولا يُعْطَى معاش معزولية، أما محاكمة المعزول جزائيًا فتجرى في المحاكم العدلية بمذكرة خاصة من المستشار إلى المدعي العمومي.

وأما موظفو الحكومة المركزية فتُكف يدهم بطلب المستشار ومصادقة الوالي الذي يطلب عزلهم بعد حكم مجلس المستشارين عليهم من النظارة المنسوبين إليها، وينبغي أن يُعَيَّن خلفهم في مدة ثلاثين يومًا.

وأما المفتشون والمستشارون فيكون عزلهم بطلب الوالي من مجلس المستشارين وبحكم صادر من هذا المجلس.

وأما الوالي فيكون عزله بناء على قرار المجلس العمومي بأكثرية ثلثي مجموع أعضائه، فتعين الحكومة المركزية خلفه في مدة أربعين يومًا.»

المادة السابعة: تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسوية، وذلك للدوائر الآتية في مركز الولاية؛ وهي: الجندرمة، والمالية — وتلحق بها غرفة التجارة — والبوسطة، والتلغراف، والجمرك، وتعين أيضًا مفتشًا أجنبيًّا عامًّا لكل لواء من الولاية يخول حق تفتيش أية دائرة كانت في اللواء، ويكون مرجعه مستشار مركز الولاية الداخلة تلك المسألة المراجع فيها ضمن دائرة اختصاصه.

ويعين المجلس العمومي من الدول التي ترضاها الحكومة المركزية مستشارين للدوائر الآتية؛ وهي: مجلس الولاية العمومي، والعدلية، والنافعة، والمعارف، والبلدية، والبوليس. ويلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثماني في أوقات العمل. أما مدة الاستشارة والتفتيش فخمس عشرة سنة، ويمكن تجديدها.

المادة الثامنة: واردات الولاية على نوعين: أحدهما يعود برمته إلى مركز السلطنة، وهو حاصلات الجمارك والبوستة والتلغراف والبدلات العسكرية. والآخر وهو عدا ما ذُكِرَ من الواردات يعود برمته إلى الولاية.

المادة التاسعة: ينظم المجلس العمومي ميزانية الولاية السنوية، فيدخل فيها رواتب جميع الموظفين والمستشارين عدا موظفي ومستشاري الجمارك والبوسطة والتلغراف.

المادة العاشرة: تُسَلَّم الأراضي المحولة والأملاك الأميرية الداخلة ضمن الولاية إلى المجلس العمومي، وتكون برمتها ملكًا للولاية.

المادة الحادية عشرة: لا علاقة للإدارة ولا للمجلس العمومي في الأوقاف، بل يسلم كل وقف إلى مجلس الملة المنسوب إليها لاستخدامه بموجب قانونها — بناء عليه جميع أوقاف المسلمين في الولاية تُسَلَّم إلى مجلس ملتهم أسوة بباقي الطوائف.

المادة الثانية عشرة: البلديات مستقلة بجميع أعمالها، ولها الحق بوضع الرسوم البلدية بمصادقة المجلس العمومي دون مراجعة الحكومة المركزية.

المادة الثالثة عشرة: يؤلف مجلس يُسَمَّى مجلس المستشارين، ويكون أعضاؤه رئيس المجلس العمومي — أو من ينيبه عنه من أعضاء لجنة المجلس — وجميع مستشاري الدوائر في مركز الولاية.

أما وظائف هذا المجلس فهي: أولًا: تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية — بناء على هذه اللائحة — كدستور لحكومة الولاية ومجلسها العمومي. ثانيًا: تفسير القرارات والأنظمة التي يضعها المجلس العمومي. ثالثًا: النظر والحكم في وجوب عزل الموظف أو عدمه. رابعًا: النظر والحكم بناء على طلب الوالي أو أحد المستشارين في كل خلاف في الرأي يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومي أو إحدى لجانه أو أية دائرة كانت، ويكون حكمه مبرمًا، ويرأس هذا المجلس والي الولاية، وينوب عنه في غيابه رئيس المجلس العمومي أو مستشار هذا المجلس.

المادة الرابعة عشرة: إن اللغة العربية تُعْتَبَرُ اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية، وتُعْتَبَرُ أيضًا لغة رسمية كاللغة التركية في مجلسي النواب والأعيان.

المادة الخامسة عشرة: تُخْفَضُ الخدمة العسكرية إلى سنتين وتُقْضَى الخدمة أيام السلم في الولاية، وتنزل قيمة البدل النقدي للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف والاحتياط إلى عشرين ليرة.

المنتدى الأدبي

وأما المنتدى الأدبي فقد كان جمعية علمية بحتة في بدء الأمر، ولكنه اضطر إلى المداخلة في السياسة لما رأى الحكومة تفاوض معتمده المرحوم عبد الكريم الخليل باسمه في شأن الإصلاح، وقد كان الوزراء وزعماء جمعية الاتحاد والترقي يظهرون لهذا النادي صداقة عظيمة، فزاره مرارًا طلعت بك وأنور باشا وجمال باشا وفتحي بك ومدحت شكري بك وغيرهم، وألقوا فيه الخطب، وأولموا لأعضائه الولائم، وحضروا معظم احتفالاته الدينية والأدبية، إلى غير ذلك مما يدل على أن هذا النادي كان ناديًا عثمانيًّا بحتًا، وأن الاتحاديين أنفسهم اعترفوا بذلك بأقوالهم وأفعالهم الماضية، ولا يستطيعون اليوم أن يثبتوا عليه أو على أحد أعضائه عملًا واحدًا كانت تشتم منه رائحة كره الترك والرغبة في الانفصال عنهم.

جمعية البصرة الإصلاحية

ولا تختلف جمعية البصرة الإصلاحية في خطتها وغايتها عن حزب اللامركزية والمنتدى الأدبي والجمعية العمومية البيروتية، والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها: برنامجها، وقوانينها، واعتراف الحكومة الاتحادية الحاضرة بها، وقبولها نوابًا من أعضائها في مجلس المبعوثان، ومساعي رئيسها السيد طالب بك النقيب في التوفيق بين الحكومة العثمانية والأمير ابن السعود، وموافقتها على قرار المؤتمر العربي الأول الذي عُقِدَ في باريس إلى غير ذلك من الأدلة التي تظهر للقارئ واضحة في هذا الكتاب.

ولم يكن قبل إعلان الحرب الأوروبية جمعيات أخرى رسمية، ولكن الأخطار التي كانت تتهدد سلامة الأملاك العثمانية، وحاجة البلاد إلى الإصلاح أوجدت في الفئة المتنورة من أبناء الأمة العربية ملكيين وعسكريين حسًّا طبيعيًّا مشتركًا، هو حس اتقاء الخطر واتفاقًا تامًّا في المبدأ والغاية أساسه الدفاع عن كيان الدولة العثمانية وتقويتها بتقوية العناصر التي فيها، ولا سيما العنصر العربي الكريم. وقد نهجت هذه الفئة منهجًا آخر إثر الفظائع التي اقترفها الاتحاديون في سورية والعراق، والذين نجوا منها من مذابح جمال باشا السفاح يعملون اليوم على الانتقام وسيكون انتقامهم عظيمًا.

هذا ولا شيء يدلنا على صدق وطنية العرب وإخلاصهم العظيم لعرش آل عثمان أكثر من أعمال المؤتمر العربي الأول الذي تجلت فيه آمال الأمة وأمانيها، ذلك المؤتمر عينه الذي اتخذه الاتحاديون حجة للفتك بعقلاء العرب وأدبائهم ونخبة شبانهم.

(٤-٤) المؤتمر العربي الأول

في ٤ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٣ أرسل بعض أدباء العرب المقيمين في باريس كتابًا إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية جاء فيه ما خلاصته:

«لقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيتهم في كل حين؛ لذلك أوقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة، واعتبرناكم مصدرًا لما نتوقع أن نقوم به في هذه الديار إزاء مناظرات الجرائد ومغامر الخطباء في الأندية السياسية، ومجرى المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية، ذلك ما حمل الجالية العربية على الاجتماع والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ، وإصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية، وبعد المناقشات ارتأت أن تعقد مؤتمرًا للعرب تظهر فيه للأجانب أن العرب يدرأون عادية الاحتلال من أية دولة كانت، ويحتفظون بحياتهم الوطنية، وتصارح الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الإصلاحات اللامركزية في بلاد العرب. وإليكم ما تدور حوله مباحث المؤتمر:

- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.
- حقوق العرب في المملكة العثمانية.
- ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.
- المهاجرة من سورية وإليها.

وحسبنا الله أن يأخذ بأيديكم وأيدينا لوقاية الأمة والبلاد من فساد البداية والمعاد والسلام عليكم.»

وفي ١٤ أبريل سنة ١٩١٣ أجابت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالقبول، وقررت إرسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر «على أن يكون لهم حق النظر والمشاركة في موضوعات المؤتمر حتى تكون موافقة لمبادئ الحزب وبرنامجه.»

أسباب عقد المؤتمر

أما أسباب عقد المؤتمر فنجدها في الخطب التي ألقيت في جلساته، وفي حديث رئيسه مع محرر جريدة الطان، وهي:

(١) قال المرحوم عبد الحميد الزهراوي في خطبة افتتاح المؤتمر:

إن العرب كانوا قد ألفوا الترك، وهؤلاء قد ألفوا العرب، وامتزج الفريقان امتزاجًا عظيمًا، مضى عليه أكثر من عشرة قرون، ولكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضًا ولم يَبْقَ من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك، وهذه الرابطة لا تزال تُعَدُّ ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معًا، ولكنها مع عزتها في نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل، ومعلوم أن السياسة في هذه المملكة بيد الترك؛ ولذلك تعرفها أوروبا بأنها حكومة الترك، فلما رأى العرب الآن ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التي مضى العمل عليها حتى الآن، وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة تنبهوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعًا غير مهتمين به كما ينبغي، وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد، فإنه قد تبين واضحًا أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب إضاعة البلاد، ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل، وبديهي أن هذا الاشتراك لا ينافي الإخاء، بل الذي ينافي الإخاء هو عدم هذا الاشتراك.

(٢) قال إسكندر بك عمون أحد مندوبي حزب اللامركزية في الخطبة التي ألقاها في جلسة المؤتمر الثالثة ما نصه:

الأمة العثمانية بعد الحوادث الأخيرة على شفا جرف هار، فهي بين ذلك الماضي المؤلم والمستقبل المظلم تنظر إلى أمسها بعين الحزن والأسف، وترمق غدها بعين الخوف والوجل. في مثل هذا الموقف موقف الخطر على الحياة تمر على ذهن الأمم كما تمر على ذهن الأفراد حوادث حياتها الماضية حلقات آخذ بعضها برقاب بعض، فترى بينها من الارتباط ما لم تره، وهي رهن الحوادث أيام وقوعها، وتنكشف الأسرار التي ساقتها إلى حيث صارت، فتستعين بما

عرفت من ذلك؛ لتهتدي إلى سبيل النجاة إن كان ثم إلى النجاة سبيل. ذلك الخطر الذي أصبحت الأمة فيه هو الباعث على اجتماعنا من كل حدب وصوب في هذا البلد الأمين، وهذا الغرض هو الذي نرمي إليه من هذا الاجتماع.

(٣) سأل محرر جريدة الطان المرحوم السيد الزهراوي رئيس المؤتمر عن أسباب عقد المؤتمر، فأجابه بما يلي:

إن ما حدث في ولايات الدولة العثمانية بأوروبا من الحوادث الخطيرة الشأن دعانا إلى التفكير في الحالة الجديدة التي دخلت فيها واتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء نتائجها، ذلك من جهة، ومن جهة ثانية فإن العرب يؤلفون عنصرًا مهمًّا بعدده إن لم نقل عنه إنه أهم العناصر العثمانية كلها؛ ولهذا العنصر مزية على العناصر الأخرى بوحدة لغته وعاداته وميله، وإن هذه الصفات أحدثت له حقوقًا كانت مهملة حتى الساعة؛ ولذلك جئنا لنطلب بصفة عثمانيين أن نشترك بالإدارة العامة، وأن نعرض على الحكومة بصفتنا عربًا مطالب خاصة بقوميتنا.

لماذا عُقِدَ المؤتمر في باريس؟

قال المرحوم السيد الزهراوي لمحرر جريدة الطان ردًّا على هذا السؤال:

إن حوادث بيروت الأخيرة — أي اضطهاد الجمعية الإصلاحية، وسجن فريق من أعضائها — برهنت لنا على قدر الحرية التي يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يُعْقَد في سورية، وقد رأينا من جهة أخرى أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوروبا التي تزداد مصالحها أهمية في البلاد العثمانية يومًا بعد يوم، وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوروبا؛ لأن الجالية العربية فيها أكثر عددًا منها في سائر العواصم.

غاية المؤتمر

وتظهر غاية المؤتمر من القرارات التي وافق عليها والخطب التي أُلْقِيَتْ في اجتماعاته. أما القرارات فهي:

أولًا: إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية؛ فيجب أن تُنَفَّذَ بوجه السرعة.

ثانيًا: من المهم أن يكون مضمونًا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكًا فعليًّا.

ثالثًا: يجب أن تُنْشَأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها.

رابعًا: كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صُودِقَ عليها في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٣ بإجماع الآراء، وهي قائمة على مبدأين أساسيين؛ وهما: توسيع سلطة المجالس العمومية، وتعيين مستشارين أجانب. فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين.

خامسًا: اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.

سادسًا: تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف والأحيان التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى.

سابعًا: يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل ماليتها.

ثامنًا: يصادق المؤتمر، ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية.

تاسعًا: سيجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية.

عاشرًا: وتُبَلَّغ هذه القرارات أيضًا للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية، ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسوية شكرًا جزيلًا لترحابها الكريم بضيوفها.

ملحق بقرارات المؤتمر

أولًا: إذا لم تُنَفَّذْ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين إليها.

ثانيًا: ستكون هذه القرارات برنامجًا سياسيًّا للعرب العثمانيين، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه.

هذه هي قرارات المؤتمر العربي المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن في باريس من يوم الأربعاء ١٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٣ / ١٣ رجب سنة ١٣٣١ إلى يوم الإثنين ٢٣ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٣ / ١٣ رجب سنة ١٣٣١، وكلها يدل على وطنية صادقة وإخلاص عظيم للوطن العثماني الذي كانت غاية المؤتمر تأييده وإعلاء شأنه والدفاع عنه من طوارئ الحدثان.

وقد ظهرت هذه الغاية واضحة جلية في الخطب التي ألقيت في جلسات المؤتمر، فقال المرحوم ندرة بك مطران في خطبته ما نصه:

> إن العصبية في العرب لا تستوجب منهم طيشًا يجهلون معه مواضع الضعف من أمتهم وبلادهم، فيتصورون أنه يتسنى لهم جزافًا الانقطاع عن ولاء الدولة العثمانية، وما من ينكر على الإطلاق أن ارتباطنا بهذه الدولة واتصال علاقاتنا بالأمة التركية أسلم عاقبة، وأنتج خيرًا للعرب من أي ارتباط آخر سواه.

وتكلم نجيب أفندي دياب مندوب المهاجرين السوريين، فقال:

> ويتمنى السوريون المهاجرون البقاء في حضن العثمانية والاحتفاظ بالوطنية بشرط أن تُحْفَظَ حقوق إخوانهم المتخلفين في الوطن من نصارى ومسلمين، وأن تكون أعراضهم مصونة وأموالهم في مأمن ومدارسهم تُضَاء بكهرباء الوطنية وأفئدتهم تلتهب بحب الوطن.

وقال إسكندر بك عمون في خطبته:

> توهم بعض أنصار النظام المركزي من إخواننا الأتراك أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة، وهو أمر بعيد عن الصحة، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل الحكم الفاسد — الذي كاد يودي بالدولة — بالحكم الذي يُرْجَى منه وحده الصلاح والنجاح لنا ولهم، وهو الحكم على

قاعدة اللامركزية، ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا.

هذا هو المؤتمر الذي اتخذه الاتحاديون دليلًا على خيانة العرب للدولة وحجة للفتك بزعمائهم وقادة آرائهم، نشرت قراراته وخلاصة أعماله وأقوال خطبائه في هذا الكتاب تاركًا الحكم في تهم الاتحاديين وأكاذيبهم وفظائعهم للمنصفين من القراء.

(٤-٥) الاتحاديون والمؤتمر العربي

علم الاتحاديون بعزم العرب على عقد مؤتمر عام في باريس للمطالبة بإصلاح الولايات العربية، فقاموا قومة واحدة في وجه هذا المؤتمر، وتوسلوا لمنعه بالوسائل التالية؛ وهي:

أولًا: أنهم استدعوا بعض صنايعهم من العرب؛ كطه أفندي المدور صاحب جريدة الرأي العام الاتحادية إلى الأستانة، وأوعزوا إليه بأن ينشر مقالات في المسألة العربية خلاصتها أن ما يقوله العرب أو يدعونه أو يطالبون به من الإصلاح سببه خطأ بعض الصحف التركية، فإن هذا البعض اعتاد أن يذكر أسماء العرب مسبوقة بكلمة «عرب» فيقول مثلًا «عرب عزت» و«عرب ملحمة»، و«عرب فلان»؛ قصد تحقير الأمة العربية، ولم يكن ثمت سبب غير هذا للخلاف بين العرب والترك على رأي طه المدور وأسياده الاتحاديين.

ثانيًا: أنهم حاولوا إقناع الحكومة الفرنسوية بمنع عقد المؤتمر العربي في عاصمتها.

ثالثًا: أنهم حرضوا الشيخ عبد العزيز جاويش وبعض أعوانه على القيام بدعوة الجامعة الإسلامية لإحباط مساعي المطالبين بالإصلاح وإلقاء الشقاق بين العرب مسلمين ومسيحيين، فجعلوا منزله مجتمعًا سياسيًّا تحت شعار الدين يحج إليه أصحاب المآرب والغايات، والذين يترامون على الأقدام لنيل وظيفة أو تحقيق أحلام.

رابعًا: أنهم أوعزوا إلى صنايعهم وجواسيسهم في البلاد العربية بمقاومة نهضة العرب، وأرسلوا إليهم صور برقيات بهذا المعنى حملوا فريقًا من الموظفين على توقيعها بالطرق المعهودة في تركيا.

فعلى مثل هؤلاء توكأت الحكومة الاتحادية في قراراتها وأعمالها متخذة أقوالهم الفارغة حجة لها في دفاعها عن نفسها.

وقد حملت الصحف الاتحادية حملة شعواء على المؤتمر، فقالت جريدة طنين لسان حال الجمعية ما معناه: «لما كررنا القول وأعدنا التصريح بأن الفئة التي تتظاهر تارة في سورية وتارة في مصر وفي العراق وباريس بالغيرة على مصالح العرب وعشق العربية والهيام بأمثال ذلك؛ هي فئة ليست من العربية في شيء، وما هي إلا آلة للفساد وعبارة عن طائفة عجيبة في أطوارها؛ لما قلنا ذلك حمل علينا بعض الصحف العربية حملة شعواء، فبينما نحن لا نتكلم عن العرب والعربية إلا بما يشف عن الميل الشديد، وإذ تلك الصحف تلقبنا بأعداء العرب الألداء، ولا تتردد في تسميتنا «المعول العظيم لهدم كيان الأمة العربية»، وأما نحن فلا نحاول نفي هذه التهم؛ لأننا إذا توخينا ذلك نكون قد خدمنا هذه الشتائم والمطاعن من حيث نريد الإعراض عنها، فإن كتاباتنا في المسألة العربية كانت نورًا استضاء العرب به فقاموا يدًا واحدة يدافعون عن الحقيقة، ويردون كيد المزورين في نحورهم، فكانت نتيجة ذلك ضد ما يعمله الخونة المارقون.

الحق يعلو ولا يُعْلَى عليه، فالأنباء الأخيرة التي وردت من البلاد العربية أثبتت بألمع برهان أن الغاية التي كنا، ولا نزال نتوخاها في كتاباتنا أثرت تأثيرًا عظيمًا في سورية، فقد رأينا دمشق فضلاءها وعظماءها قد هبت من رقدتها رادة التهم الشنيعة التي ألصقها بها المنافقون، فقد نشرنا أمس رسالة برقية منهم اطلع القراء على أسماء موقعيها، فإذا هم كبار أعيان دمشق مهد الحضارة العربية، هم العلماء الأجلاء والأشراف العظماء وأرباب الزهد والتقوى، فكم يكون خذلان أصحاب الألاعيب العربية في باريس!

إن هؤلاء المؤتمرين باسم العرب النجباء الذين نظموا بروغرامهم وأعدوا معدات الاختلال وأخذوا يوزعون النشرات السرية ستكون لهم عاقبة أليمة جدًّا، والذين قاموا يصيحون في وجههم يصح لكل واحد منهم أن يتكلم عن ولاية عربية برمتها، اسمعوا ما يقول هؤلاء العظماء في تلغرافهم: «إن الذين يرسلون الاحتجاجات ليسوا من العرب في شيء ولا صفة لهم ولا شأن، فقد طلبوا من الحكومة آمالًا لم ينالوها، فهبوا الآن يعادونها، وهم عبارة عن فتيان بلا عقل ولا أدب ولا أخلاق، هؤلاء كما أنهم لا شيء في الهيئة الاجتماعية فهم أيضًا غير مندوبين من العرب، ولا صفة لهم ولا وكالة»، فنحن نشكر أعيان الشام وعظماءها ألف شكر؛ لأنهم أرشدونا إلى الحقائق.»

هذا ما قالته طنين، وأما الجمعية الاتحادية فقد أوعزت إلى فرعها في دمشق بأن يمطر الحكومة وابلًا من تلغرافات الاحتجاج، فلبى طلبها، وانهالت التلغرافات على الباب العالي بعضها بإمضاء وبعضها من غير إمضاء، وكلها على النسق التالي:

إن القائمين بفكرة الإصلاح في سورية فئة من المتشردين الفارين من وجه الحكومة السنية، فجميع أهل سورية مسلمين ومسيحيين يكذبون افتراءاتهم ويظهرون للحكومة امتنانهم وسرورهم من طرز الإدارة الحاضرة التي أعلت شأن الدولة ورفعت منار الدين.

ثم قالت طنين أيضًا في ٦ مايو سنة ١٩١٣ بعنوان «مؤتمر غريب» ما معناه: «إن مُوَقِّعِي بيان المؤتمر دخلوا في الجنسية الفرنسوية، ولم يَبْقَ لهم أقل صلة بالعربية والإسلامية، فمؤتمرهم الذي يُعْقَدُ في باريس على ما جاء في بيانهم عارٍ عن كل أهمية، وإذا كان موقعوه يسعون حقيقة باسم العرب، فلماذا لا يدعون مندوبين من كل البلاد التي ينطق سكانها بالضاد؟»

هذا هو المنطق الغريب والدسائس السافلة التي اعتمد الاتحاديون عليها لمناهضة المؤتمر، ولكنهم لم يكتفوا بذلك فقط، بل قرروا استعمال الشدة والعنف، فقالت جريدة تصوير أفكار: «يجب علينا أن نفتح البلاد العربية من جديد.» وجعلت الحكومة تفكر في أمور شتى تمهيدًا لضرب العرب ضربة قاضية؛ منها:

أولًا: تعيين الشريف حيدر شريفًا على مكة المكرمة. فلم تتمكن من ذلك لأسباب لا مجال لذكرها الآن.[5]

ثانيًا: إرسال حملة على العراق بقيادة جاويد باشا وحسني باشا ووهيب بك، فأمطرها العراقيون وابلًا من تلغرافات الاحتجاج على هذا التعيين، وأظهروا من الشدة ما جعل الحكومة تدرك أن إرسالها حملة عليهم مفتاح ثورة يستطار شرارها ولا تُؤْمَن عاقبتها، فاضطرت إلى العدول عنها.

ثالثًا: السعي لإرسال حملة على البلاد العربية تقضي على الفكرة القومية في سورية والعراق، ثم تستأنف الزحف إلى شبه الجزيرة لمحاربة السيد الإدريسي وغيره من أمراء العرب، ولكن الاتحاديين وقع بينهم الخلاف بعد وصول جاويد باشا قائد هذه الحملة إلى سورية، فقال فريق منهم بوجوب الزحف توًّا على السيد الإدريسي، وقال فريق آخر بوجوب تأديب السوريين، وفضل آخرون إرسال الحملة على العراق لإغراء القبائل والأمراء بالمال وتأديب العرب بالعرب.

رابعًا: عزم الحكومة على إقفال المنتدى الأدبي في الأستانة والكلية العثمانية في بيروت ومنع الصحف العربية المصرية وغير المصرية من الدخول إلى البلاد العثمانية، وذلك إكرامًا لصنائع الاتحاديين الذين جاءوا الأستانة بدعوة من الحكومة لمناهضة الإصلاح.

خامسًا: قرار الاتحاديين على اغتيال زعماء العرب وقادة آرائهم؛ كطالب بك النقيب وغيره، ومحاولتها اغتيال الزعيم العراقي الكبير معروفة عند قراء الصحف، فقد عينت لهذا الغرض ضابطين من كبار الضباط الاتحاديين في وظائف كبيرة في البصرة، وهما: فريد بك الذي جعلته قائدًا لموقع البصرة، وعاكف بك الذي عينته قومندانًا للجندرمة فيها، وأرسلت معهما عددًا كبيرًا من الفدائيين، فما استلموا زمام وظيفتهم حتى جعلوا يبعدون ضباط العرب إلى الأناضول ليتسنى لهم تنفيذ أوامر الحكومة، ولكنهم وقعوا في الشرك الذي نصبوه لزعماء الإصلاحيين في العراق؛ فَسُلِّم طالب بك وأصحابه، وقُتِلَ فريد بك وتشتت شمل أعوانه وأنصاره، وفشلت خطة الاتحاديين فشلًا تامًّا في البلاد العربية.

(٤-٦) الاتحاديون بعد المؤتمر العربي

عجزت الحكومة الاتحادية عن منع المؤتمر، وفشلت في كل الدسائس التي دستها على الأمة العربية، فلم ترَ بدًّا بعد ذلك من تغيير خطتها والتظاهر بالميل للعرب، ولا سيما الإصلاحيين منهم، فأوفدت مدحت شكري بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي إلى باريس للاتفاق مع المؤتمر العربي الذي كان يمثل معظم الأحزاب العربية الحرة والجاليات العربية في أوروبا وأميركا ومفاوضته فيما يطلب من الإصلاح للبلاد، فاتفق معه على أمور شتى لم تقرر الحكومة إلا قسمًا منها كما سيجيء.

هوامش

(١) من مقالة لمجلة فتاة الشرق، الصادرة في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩١٦.

(٢) قوم يفاخر الاتحاديون في الانتساب إليهم.

(٣) راجع الجزء الثاني من قاموس الأعلام، صفحة ١٣٢٥، للمؤرخ التركي الكبير ش. سامي بك.

(٤) أُخِذَ هذا البيان من رسالة سياسية لم تُنْشَرْ لزعيم من أكبر زعماء العرب.

(٥) أرسل مبعوثو العرب في تلك الأثناء الكتاب التالي إلى سيادة الشريف حسين، وهو:

إلى السيد السند المعظم والشريف الأعظم حسين باشا أمير مكة أدامه الله: نحن نواب العرب في مجلس المبعوثان نقرك على إمارة مكة، ونعترف لك دون سواك بالرئاسة الدينية على جميع الأقطار العربية؛ لأنك الآن خلاصة بيت الرسول ﷺ. وإجماعنا هذا هو بالنيابة عن أهل بلادنا نجهر به عند الحاجة، والله يحفظك لأمتك ويساعدك لدفع الشر عن دينك.

الفصل الثالث

الاتفاق المزعوم بين العرب والترك

مظاهرات العرب في الأستانة – الخطب والولائم – وفد مؤتمر باريس وأعماله – الوفد الاتحادي – مهمة الزهراوي في الأستانة – تعيينه في مجلس الأعيان – قرار الشيبة العربية

* * *

أصدرت الوزارة الاتحادية في أوائل أغسطس سنة ١٩١٣ القرار الرسمي التالي، ونشرته في صحف الأستانة، وهذا تعريبه:

إنه بالنظر إلى الضرورات واختلاف الأمزجة في الولايات العثمانية، وإلى وجوب ترقية البلاد، وإسعاد أهلها، وزيادة رفاهيتهم تقرر بعد الاتكال على الله ومفاوضة الولايات:

أن يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي بحسب شروط الواقف إلى مجالس الجماعات في الولايات، وذلك بموجب قانون جديد يُنْشَر قريبًا.

أن تكون الخدمة العسكرية في زمن السلم في دائرة التفتيش إلا إذا رأت الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود في جهة من الجهات، فترسل العساكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة، كاليمن والحجاز وعسير ونجد.

أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة، وذلك لتوفير أسباب المدنية التي تحتاج إليها في الحال وفي الاستقبال. هذا ولما كانت هناك فائدة أساسية من التدريس

باللغة العربية في جميع المكاتب، فيجب مباشرة ذلك الآن في المكاتب الرشدية والإعدادية، وتوفير أسباب التدريس العالي بلغة الأكثرية أيضًا بشرط أن يبقى التدريس باللغة التركية كما كان في المكاتب الإعدادية في حواضر الولايات، وذلك لتعميم اللسان الرسمي.

أن يُعَيَّن المأمورون من الواقفين على اللغة العربية علاوة على اللغة الرسمية، وأن يُنْظَر حين تعيينهم إلى هذا الشرط، وتعين الحكومة المركزية المأمورين الذين يقتضي لتعيينهم إرادة سنية، أما المأمورون الثنويون فَيُعَيَّنُون بمقتضى القانون الجديد، وقد أُبْلِغَ هذا القرار إلى وزارات الحربية والمعارف والأوقاف للعمل به، وكان قد تقرر استقدام مفتشين من الأجانب لكل ولاية من الولايات على قدر الحاجة؛ ولذلك جاء في قانون الولايات الجديد أن المصاريف المحلية ولا سيما عجز ميزانية المعارف والنافعة — الأشغال — تُضَافُ إلى ميزانية الولاية، وعلى الولاية أن لا تخرج عن دائرة الصلاحية الممنوحة لها في قانون الولايات، فيجب بذل الهمة … انتهى.

هذه هي الإصلاحات التي منحتها الحكومة الاتحادية للعرب، وقبل العرب بها حسمًا للخلاف، ولا يظنن القارئ أن الغموض الذي يراه في قرار الوزارة نشأ عن ركاكة الترجمة، فالغموض في الأصل التركي عينه، وقد تحريت في الترجمة ذلك الأصل جهد إمكاني، ومما يدلنا على أن الغموض كان مقصودًا ما جاء في ذلك القرار في شأن التعليم، فقد ورد فيه «إن التدريس يكون باللغة العربية في الولايات التي يتكلم سكانها هذه اللغة»، ثم حصر التدريس باللغة العربية «في المكاتب الرشدية والإعدادية» فقط، ثم اشترط «بقاء التدريس باللغة التركية كما كان لأجل تعميمها»، فهل فهمنا شيئًا من هذه القرارات المتناقضة؟ وهل علمنا بأية لغة تدرس إعداديات بيروت ودمشق وبغداد، لا سيما وأنه ليس في البلاد العربية مكاتب إعدادية إلا في حواضر الولايات.

ولم يرد ما يستحق الذكر في ذلك القرار فيما يتعلق بالمأمورين إلا شرط وقوفهم على اللغة العربية، ولكن هذا الشرط لا معنى له ولا فائدة منه؛ لأن الحكومة كانت تجد أناسًا لا يعرفون من اللغة العربية إلا «ظرب ظربوا»، وتقول إنهم واقفين على أسرارها وتعينهم في البلاد العربية «لتضلعهم من لغة سكانها»، وقد قالت طنين في هذا الشأن في عددها الصادر في ٣ أغسطس سنة ١٩١٣ «يجب أن لا نفتش الآن على مأمورين واقفين على كنه اللغة العربية وقوفًا تامًّا، بل يجب أن ننظر في القدمية والاستقامة

والعفة قبل الوقوف على اللغة»، أما مسألة جعل الخدمة العسكرية إجبارية في دائرة التفتيش في نفس الولايات فكانت مرضية للعرب، ولكن الاتحاديين أكرهوا السلطان على رفضها ورفض ما يتعلق بالأوقاف أيضًا، فلم يبقَ في تلك القرارات بعد ذلك إلا ما ورد ذكره في قانون الولايات.

مظاهرات العرب في الأستانة

وقد كان لهذا القرار أحسن وقع في بعض الأندية العربية، ولا سيما في الأستانة؛ لأن جمعية الاتحاد والترقي وعدت زعماء العرب رسميًّا بأنها عزمت على إجابة كل مطالبهم، وأنها لم تشأ أن تعلن ذلك في الصحف لئلا تطمع سائر العناصر العثمانية بها، وتحذو حذو العرب معها، وفي الساعة الثالثة بعد ظهر الثلاثاء في ٥ أغسطس سنة ١٩١٣ قصد وفد من أبناء العرب الباب العالي، ليشكر للحكومة وعودها ويطالبها بالتعجيل في البر بها وتنفيذها، وقد تألف ذلك الوفد بعد عناء شديد — لأن فريقًا من أبناء العرب كان غير مرتاح إلى تأليفه:

من الشريف حيدر ونجليه الشريف محيي الدين والشريف مجيد، ومحيي الدين باشا الجزائري، وإبراهيم بك صوصه، والمونسنيور شريم، وشكري باشا الأيوبي، وشكري بك الحسيني، وبديع بك المؤيد، ونجيب بك شقير، ومعروف أفندي الرصافي، والشيخ عبد العزيز جاويش، وسامي بك العظم، والدكتور حسين حيدر، وعبد الكريم أفندي الخليل. فقدمهم الشريف حيدر إلى الصدر الأعظم واحدًا واحدًا، وألقى فخامته خطبة طويلة أعرب فيها عن ارتياحه إلى إزالة سوء التفاهم بين العرب والترك، فقال إن غاية وزارته إسعاد العنصر العربي الكريم أخلص العناصر العثمانية للخلافة العظمى، وألقى الشيخ عبد العزيز جاويش خطبة باللغة العربية شاكرًا تلك العواطف، فقال إن لا قوة في المستقبل تقدر أن تفرق بين العرب والترك، ثم تقدم المرحوم عبد الكريم الخليل، وألقى الخطبة التالية باسم الشبيبة، قال:

> يا صاحب الفخامة، أتشرف بالمثول بين يديكم بالأصالة عن نفسي والنيابة عن الشبيبة العربية للقيام بواجبين من أهم واجبات الإخلاص؛ فالواجب الأول هو تهنئة الحكومة العثمانية باسترجاع أدرنة من يد العدو، وشكر الجيش العثماني المظفر على هذا النصر الباهر.

أما الواجب الثاني، فهو شكر فخامتكم وسائر أركان الوزارة الكرام على تقديرها الإصلاح في البلاد العربية حق قدره، وعلى وعودها بإعطاء الحقوق المدنية والسياسية للأمة العربية وإشراكها في أمور الحكومة، فالشبيبة العربية تشكر لكم هذا العمل العظيم الذي تعده فاتحة سعادة ورفاه لهذا الملك المحبوب، فلتطمئن فخامتكم وهيئة الوكلاء الكرام؛ لأن الأمة العربية التي تقدر هذه القرارات حق قدرها تسعى جهد طاقتها وتبذل جميع مساعيها لرقي هذا الوطن المشترك وسعادته ونجاحه؛ ولهذا أرجو من صميم الفؤاد تنفيذ قرارات الإصلاح بأقرب ما يمكن، ولكن أتجرأ على أن أشرك شكري بذكر بعض ما تتمناه الأمة العربية مستميحًا العفو من لدن فخامتكم.

إن بقاء الإدارة العرفية في بيروت منذ سنتين يدعو إلى الأسف، وإننا نلتمس رفعها ونرجو رفع المنع عن الصحف المصرية، والسماح بنشر الجرائد المحلية المقفلة؛ لأننا لا نشك في إخلاصها لهذا الملك، وذلك رغبة في تعميم الشكر وانتقاله من قلوب الناس إلى أعمدة الصحف، ولأنها بإيفاء وظيفتها الوطنية تسهل وظيفة الحكومة كثيرًا.

وهناك مسألة ثانية، وهي مسألة بيع الأراضي المدورة — الجفالك — في البلاد العربية، ولا سيما فلسطين؛ لأن دخول الأجانب إليها وحرمان أهاليها من مواردها مما لا ترضونه فخامتكم، فألتمس من حنان الحكومة السنية اتخاذ قرار قطعي موافق في هذا الشأن.

وفي مساء ذلك اليوم أولمت الشبيبة العربية وليمة شائقة في فندق توكتليان لخمسة وأربعين مدعوًّا من عظماء الترك والعرب، منهم: طلعت بك، وجمال باشا، وأنور باشا، وخليل بك، وسليمان أفندي البستاني، والشريف جعفر، والشريف حيدر، والشريف محيي الدين، والشريف مجيد، وغيرهم. وقبل توزيع الحلوى نهض المرحوم عبد الكريم الخليل، وشكر للمدعوين إجابتهم دعوة الشبيبة العربية، وأعرب عن سروره بإزالة سوء التفاهم بين العرب والترك وطلب مساعدة الحاضرين من أركان الوزارة وجمعية الاتحاد والترقي للتعجيل في تنفيذ قرار الإصلاح.

وتكلم طلعت بك، فقال إنه هو وجمعيته وزملاؤه الوزراء يخدمون العرب بإخلاص من زمن بعيد، واستشهد على ذلك بالشريف حيدر، وأنكر وجود سوء التفاهم، ونسب كل مساعيه الإصلاحية إلى جمعيته، ثم طلب من فتحي بك سكرتير جمعية الاتحاد

والترقي في ذلك الحين — وسفير الدولة في صوفيا اليوم — أن يتكلم باسم الجمعية، فوقف فتحي بك وشكر للشبيبة العربية بالأصالة عن نفسه والنيابة عن الاتحاديين تكرمها بدعوتهم إلى العشاء، وأعرب عن رغبة الجمعية في الإصلاح وعن عزمها على إنجاز ما وعدت به، وتلاه بابان زاده إسماعيل حقي بك وزير المعارف في ذلك الحين، فحث العناصر على الائتلاف والاتحاد.

وخطب سليمان أفندي البستاني ناظر الزراعة والمعارف حينئذ، فاستهل خطبته بهذا البيت:

وإذا تألفت القلوب على الهوى   فالناس تضرب في حديد بارد

ثم تكلم بالنيابة عن الحكومة التي هو عضو منها، وصرح بأنها عزمت على إجراء الإصلاح الحقيقي عزمًا أكيدًا، وأنها ستنيل العرب أمورًا لم يفكروا فيها بعد؛ لأنها تعرف ما هو الواجب وتريد إصلاح الحال.

وفد الإصلاح في الأستانة

وعلى أثر ذلك أبرق المرحوم عبد الكريم الخليل إلى باريس يدعو أعضاء المؤتمر العربي إلى الحضور لمراقبة تنفيذ الإصلاح، فأوفد المؤتمر ثلاثة من أعضائه، هم: سليم أفندي سلام، والمرحوم الشيخ أحمد طبارة، والمرحوم مختار بك بيهم، فوصلوا إلى الأستانة الساعة الواحدة بعد ظهر الجمعة في ١٥ أغسطس سنة ١٩١٣، وجرى لهم استقبال لم تشهد الأستانة أعظم منه، وبعد أن زاروا المنتدى الأدبي واستراحوا هنيهة فيه، اجتمعوا بمعتمدي الجمعيات العربية، وبسطوا المهمة التي جاءوا من أجلها، فقالوا إنها إيضاح المبهم في الاتفاق الذي أعلنته الحكومة ومفاوضتها في تعيين بعض زعماء الأحزاب العربية في مناصب الدولة وحملها على الاعتراف رسميًّا بالاتفاق السري الذي أُبْرِمَ بين جمعية الاتحاد والترقي والمؤتمر العربي.

وجعل وفد مؤتمر باريس يفاوض رجال الحكومة وأهل الحل والعقد منذ ثاني يوم وصوله، وفي ٢٣ أغسطس قابل أعضاؤه السلطان، فأعربوا له عن تعلق العرب بالعرش العثماني، ورجوا منه أن يأمر الحكومة بتنفيذ الإصلاح على جناح السرعة؛ لأن الإصلاح هو الطريق الوحيد لترقية البلاد وإنماء ثروتها وإسعاد سكانها. فشكرهم ووعدهم خيرًا.

وفي ٢٧ أغسطس زار أعضاء الوفد ولي العهد، فقابلهم بكل سرور وارتياح، وخطب حضرة سليم أفندي سلام بالتركية معربًا عن تعلق العرب بسموه لما يسمعونه عن محبته لهم. وعقبه المرحوم عبد الكريم الخليل، فتكلم بالمعنى نفسه، ثم خطب المرحوم الشيخ أحمد طيارة بالعربية، فاستهل خطبته بهذه العبارة: «أخاطب سموكم بلسان عربي مبين، لسان القرآن الكريم والنبي العربي العظيم القائل: من أحب العرب فبحبي أحبه.» وقال إن ما سمعه عن حب سموه للعرب قد تحققه بنفسه، وتمنى لو يزور سورية. فشكر سموه للوفد هذه العواطف شكرًا جزيلًا ووعدهم بأن يفرغ قصارى جهده لإصلاح الحال في البلاد العربية.

وأولمت جمعية الاتحاد والترقي في مساء ذلك اليوم — الأربعاء في ٢٧ أغسطس — وليمة شائقة باسم الشبيبة العربية، دعت إليها وفد الإصلاح وكل الوزراء العثمانيين وبعض عظماء الترك والعرب في الأستانة، ولما فرغوا من الطعام وقف فتحي بك فتكلم باسم جمعية الاتحاد والترقي، فقال ما معناه:

«في اجتماع مضى كهذا الاجتماع تُبُودِلَتْ عواطف السرور بالاتفاق الذي تم بين العرب والترك، فأعيد الآن ما أبديته من السرور في ذلك الاجتماع أمام أعضاء وفد المؤتمر العربي المؤلف من سليم أفندي سلام والشيخ أحمد طبارة ومختار أفندي بيهم، وأشكر لهم مساعيهم الحميدة وغيرتهم الصادقة، وأرجو أن يكون هذا الاتفاق مقدمة عهد سعيد للأمة والدولة.»

وعقبه المرحوم عبد الكريم الخليل، فقال ما تعريبه:

> ينشرح صدري ويسر فؤادي كلما رأيت مثل هذه الاجتماعات التي تضم الترك والعرب معًا؛ لأنها واسطة لتوقيف الأخ على أفكار أخيه وأمياله وعواطفه، فبمثلها تحتك الخواطر وتسطع أنجم الحقائق فيندفع كل من الأخوين على أخيه ويتعانقان بكل شوق وحنان؛ إذ يتبين لكل منهما أن الغاية واحدة وطريق الوصول إليها واحدة فيتصافيان، وفي تصافيهما قوة للمجموع العثماني تزود عن بيضة الملك في معترك الحياة، وعلى ذلك فإننا مديونون لجمعية الاتحاد والترقي المركزية لقيامها بمثل هذه الحفلات.
>
> نعم، إن سرورنا بهذه الحفلات لعظيم؛ لأنها تحل المعضلات، وتزيل عقد المشكلات، فقد كانت مسألة العرب والترك بالأمس ذات خطر وخوف، وقد جعلها أهل التمويه والأغراض أعقد من ذنب الضب، فتيسر حلها بمثل هذه

الاجتماعات حلًّا ملائمًا للعنصرين العربي والتركي، فبعدما كادت هذه المسألة تقضي على كيان الدولة صارت اليوم بحسن التفاهم بين العنصرين مادة حيوية فيها سعادة الدولة وفلاحها، فإن سعادة الذين كشفوا الستار عن حقيقة المسألة العربية تحاكي اليوم تعاسة الذين رغبوا في تشويهها وإنكار أهميتها، ولما كان أهل بيروت أصحاب الغيرة والحمية — هنا هتف طلعت بك قائلًا: فَلْتَحْيَ بيروت — هم أول الذين تجسم لهم خطر المسألة وهبوا للقيام بما أوحته إليهم ضمائرهم الحية، فأنا أشكرهم باسم الشبيبة وباسم الأمة العثمانية، وأسدي أيضًا مزيد الشكر إلى سائر جمعيات الإصلاح التي أُلِّفَتْ في أقطار العالم، وأخص بالذكر جمعيات مصر وباريس وأميركا، وأشكر أيضًا لحضرات الأعيان الذين أتوا من أرجاء البلاد العربية كلها لعقد المؤتمر العربي في باريس، وقاموا بواجبهم المقدس بكل حكمة وفهم وقوة، وأشكر لهيئة الاتحاد والترقي المركزية وأركان الحكومة السنية نظرهم إلى الحقائق التي اكتشفها لهم القائمون بالإصلاح نظر الغيرة والاهتمام وإقدامهم على اتخاذ التدابير اللازمة غير مبالين بذوي الأغراض والغايات.

ثم نهض المرحوم الشيخ أحمد طبارة، فقرأ الخطبة التالية باسم وفد المؤتمر العربي، وهي:

حيا الله هذا الجمع الشريف، وأحياه، وبارك في هذا الاتفاق وأنماه.

أيها السادة …

يقول حكماء العرب في أمثالهم: «صديقك من صَدَقَك لا من صدَّقك.» وهي لعمري حكمة بالغة يجدر بكل عاقل أن يضعها نصب عينيه، وأن يجعلها نبراسًا يستضيء به في حياته الاجتماعية، فإن دولتنا العلية — أيدها الله — باتت في أشد الحاجة إلى رجال يصدقونها في أقوالهم وأعمالهم، لا أن يصدِّقوها في كل شيء نافعًا كان أو ضارًا، وحسبنا ما تجرعناه من مرارة هذه السياسة الخرقاء قبل الدستور وبعده.

أنا إن رأيت الخطر محدقًا بصديق تهمني حياته، فالمروءة تقضي علي أن أنبهه إليه، وأن أسعى لإنقاذه منه حرصًا على حياته العزيزة، أما إنكاري للخطر وأنا أراه فلا يلتئم مع الصداقة والمروءة في شيء، فنحن نعتقد أن

العرب والترك إخوان صنوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، وأن حياة هذا الملك تتوقف عليهما، فمن مصلحتهما ومصلحة الدولة أيضًا أن لا يكون بينهما سوء تفاهم على الإطلاق، فإنكار سوء التفاهم مع وجوده مضرٌّ بهما معًا، ومنكره غير محب لهما معًا، وإنما المحب هو الساعي إلى إزالة سوء التفاهم بين الفريقين، وتوثيق عرى المحبة والوداد بينهما هو أساس نجاح الملك، هو الثقة بين الأمة والحكومة، وعلى قدر هذه الثقة يكون حظ الملك من التقدم والنجاح. وأساس الثقة هو عدم الاستئثار بشيء وإعطاء كل ذي حق حقه، على هذه القاعدة الأساسية بنينا طلبنا للإصلاح حفظًا لهذا الملك بعدما رأينا العيون شاخصة إليه والأطماع حائمة حوله، فكنا في طلبنا هذا أكثر حبًّا له من الذين كانوا يقولون إن الوقت غير مناسب للإصلاح مع أن الإصلاح ليس له وقت معين، بل كلما اشتد المرض على المريض كان استقدام الطبيب له ألزم وتناول العلاج له أحوج وأكفل.

لقد صرحنا بملء أفواهنا ونصرح الآن وفي كل زمان ومكان أننا نشأنا تحت ظل الهلال العثماني (تصفيق)، ونريد أن نعيش تحت ظله ونموت تحت ظله (تصفيق)، وأعني «بنحن» العرب، وأعني بالعرب كل ناطق بالضاد لا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم (تصفيق)، لا نرضى من دولتنا العلية بديلًا، وإننا نفديها بأرواحنا وأموالنا (تصفيق)، وإنما نطلب لها الحياة السعيدة والعيشة الراضية لنعيش وإياها في سعادة وهناء ورضاء على قاعدة الاشتراك في الحكم وتبادل الحقوق.

ولا نحتاج في هذا المقام إلى زيادة إيضاح بعدما حصحص الحق وبان، وظهر الصبح للعيان، وصرح فخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية وغيرهما من كبار رجال الدولة بأمور خطيرة الشأن، وقدروا أهمية القائمين بالإصلاح حق قدرها وأثنوا على وطنيتهم أطيب ثناء، على أن هؤلاء يعتقدون أنهم إنما فعلوا ما يفرضه عليهم الواجب والصداقة والإخلاص لدولتهم ووطنهم وأمتهم.

لقد سُرَّ جميع العقلاء من العرب والترك بالاتفاق الذي تم بين عنصريهما، وبات الكل ينتظرون تنفيذه ليجني الوطن ثمره النافع، ولا سيما بعدما أكد لنا فخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية تأكيدًا ما وراءه زيادة

لمستزيد أن هذا التنفيذ واقع لا محالة في القريب العاجل، وأن الدولة لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد، بل تزيده وتعززه كلما سنحت الفرصة.

ونحن نعتقد أن هذا الاتفاق النافع لا تنحصر فوائده في العرب، بل في العرب والترك معًا، وأن القائمين به عربًا كانوا أو تركًا إنما هم يعملون لسعادة الفريقين معًا وسعادة الملك العثماني؛ لأنه على قدر ارتقاء العرب في سلم الحضارة والعمران يكون ارتقاء هذه الدولة ونجاحها.

من أجل ذلك أهنئ الترك والعرب معًا بهذا الاتفاق السعيد المبني على الحقوق المدنية والسياسية، وأضرع إلى الله — سبحانه — أن يجعله فاتحة عصر جديد مجيد للدولة العلية، وأن يوفق رجالها إلى كثير من الإصلاحات الحقيقية التي يحيا بها الوطن العثماني حياة سعيدة راقية، وأشكر للساعين فيه غيرتهم الوطنية، و«أول الغيث قطر ثم ينهمل.»

ويتساءل فريق من الناس أيها السادة قائلين: أتظهر الحكومة هذه الإصلاحات من حيز الوعود إلى علم الوجود؟ فالذي أراه أنه ليس من مصلحة الدولة البر بالوعد والوفاء فقط، بل أن تسبق أعمالها أقوالها من الآن، وأن تعتمد على الله وعلى نفسها وعلى الأمة في إنجاح الوطن، فتصبح الأمة العثمانية على اختلاف مذاهبها يدًا واحدة في إنهاض الوطن وإسعاده، ولنا في عظم استعداد أبنائنا خير كفيل للنجاح في أقرب آن.

وفي الختام نسأل الله أن يوفقنا جميعًا إلى ما فيه خير الدولة وسعادة الوطن، وأن لا يجعل للأغراض الذاتية سلطانًا علينا، وأن نرى في النوائب الأخيرة خير واعظ لنا؛ لأننا إن لم نعتبر بها فلا حياة لنا بعدها، وكثيرًا ما تكون النوائب سببًا في الفوائد والله ولي التوفيق.

ولكن الحكومة الاتحادية التي تظاهرت بالإخلاص للعرب، كانت في الباطن تضمر لهم الشر، وتدبر لهم مكيدة في السر؛ فقد استدعت بعض صنائعها السوريين إلى الأستانة، وكلفتهم معاكسة أحرار العرب، والمجاهرة بأن البلاد العربية لا تحتاج إصلاحًا، وكان في جملة هؤلاء المذبذبين النفعيين عبد الرحمن بك اليوسف والأمير شكيب أرسلان ومحمد باشا العظم والشيخ أسعد شقير، وغيرهم من اللائذين بها والمرتزقين من وظائفها أو من نهب الفقراء بواسطتها. فما وصلوا إلى الأستانة حتى حملوا حملة شديدة على القائمين بالإصلاح، فصرح أحدهم لمحرر تصوير أفكار بأنهم لم يأتوا إلى

الأستانة من تلقاء أنفسهم، وأن الحكومة استقدمتهم إليها لمشاورتهم في أمر الإصلاح، وقال إن العرب يأسفون جدًّا لانخداع الحكومة ومسالمتها لشبيبة عربية ليست على شيء من الوطنية، غايتها تسليم البلاد إلى الأجانب والقضاء على الدولة والإسلام والمسلمين.

وقال ثانٍ منهم إن الحكومة وضعت يدها بيد شبان مارقين خائنين لا يُعْبَأ بهم ولا يُحْسَبُ لهم حساب.

أما الثالث، فكان يسعى دائمًا إلى إقناع الرأي العام بأن الأمة العربية كافة في قبضة كفهِ وكف أصحابه، وقد أجمعوا كلهم على مطالبة الحكومة بإبقاء الحال على ما كانت عليه، حتى إن أحدهم الشيخ أسعد شقير قال لأحد محرري الصحف: إن بقاء اللغة التركية لغة رسمية في البلاد العربية في مصلحة العرب أنفسهم؛ لأنهم إذا كتبوا الاستدعاءات «العرضحالات» بالعربية وأرسلوها إلى الأستانة طالت مدة إقامتها فيها، وقد تظل السنين الطوال، فيكون العرب الخاسرين!

وقد اتضح لوفد مؤتمر باريس بعد وصول الوفد الاتحادي إلى الأستانة أن الحكومة لا تنوي تنفيذ الإصلاح، وأنها لا تقصد إلا المطل والتسويف، لا سيما وأن الإرادة السنية صدرت على قرار مجلس الوزراء في شأن الإصلاح بشكل لم يكن يتوقعه الإصلاحيون؛ فجاءت مبتورة في أماكن عديدة، وَزِيدَ فيها جعل تعليم اللغة التركية إجباريًّا في البلاد العربية حتى في المكاتب الرشدية فضلًا عن المكاتب الإعدادية والسلطانية، فتحرج موقف طلاب الإصلاح بسبب ذلك، وقرروا مغادرة العاصمة، وقد أرسلوا التقرير التالي إلى مندوبي الجمعيات العربية في الأستانة يوم سفرهم منها، وهو:

> جئنا الأستانة لتحقيق مواعيد الإصلاح وطلب تنفيذها في أقرب آن، وقد سمعنا من جلالة السلطان وسمو ولي العهد وفخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية وسائر رجال الحكومة وجمعية الاتحاد والترقي؛ وعودًا صريحة قاطعة لا نستطيع أن نظهر ارتيابًا فيها، وأكد لنا فخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية غير مرة أن تنفيذ الإصلاح واقع لا محالة في القريب العاجل، وأن الدولة العلية لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد، بل تزيده وتعززه كلما سنحت لها الفرص وساعدتها الأحوال، فرأينا من المصلحة أن نتظاهر بالرضى؛ لأن السياسة تقضي علينا بذلك، وعزمنا على السفر إلى بلادنا لعرض المسألة برمتها على مسامع الأمة وإعدادها لقبول الإصلاح إذا أبرت الحكومة بوعدها أو لاتخاذ التدابير اللازمة الفعالة للوصول إلى غايتنا الشريفة، وقد

أفهمنا رجال الحكومة حقيقة الحال، وقلنا لهم إن هذه آخر مرة نرضى فيها بالوعود، فإن لم يبروا بها في أقرب آن كانوا هم وحدهم المسئولين عن تفاقم الأمر وسوء العاقبة.

ثم تركوا الأستانة بعدما أعربوا عن استيائهم من سياسة الاتحاديين واستخدامهم بعض صنائعهم في سورية للقضاء على فكرة الإصلاح في البلاد العربية.

على أن المرحوم عبد الكريم الخليل وبعض أنصاره من شبان العرب في الأستانة لم يقنطوا من الاتحاديين، ولم يفقدوا الثقة بهم، فواصلوا مفاوضتهم معهم، وكانت نتيجة ذلك أنهم خُدِعُوا مرة ثانية، فأقنعوا المرحوم عبد الحميد الزهراوي بإخلاص الاتحاديين للعرب والمجيء إلى الأستانة.

وفي يوم الثلاثاء ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣ الساعة الواحدة بعد الظهر وصل المرحوم السيد الزهراوي إلى الأستانة على قطار الإكسبريس، فاستقبله في محطة السركجي أعيان العرب ونيف وسبعون ضابطًا من ضباطهم وجميع الشبان العرب ملكيين وعسكريين بحماسة عظيمة جدًّا. ولما وصل القطر وأطل سيادته من نافذته هتف الجمهور بصوت واحد «فَلْيَحْيَ الإصلاح، ولْيَحْيَ زعماء العرب، ولْتَحْيَ الأمة العربية»، فارتجت أرجاء المحطة من التصفيق والهتاف.

وقد استقل سيادته مركبة أُعِدَّتْ له، وسار المستقبلون في رتل من المركبات لا يقل عن خمسين مركبة كانت إدارة المنتدى الأدبي قد أعدتها لنقلهم إلى دارها في «قوم قبو»، وكانت حماستهم شديدة جدًّا.

ولما استقر بهم المقام نهض المرحوم الزهراوي، وشكر لطالبي الإصلاح حميتهم وتفانيهم في خدمة الدولة والأمة، وأثنى على اتحادهم المتين في المطالبة بالإصلاح، ثم سار من المنتدى الأدبي مع بعض أصدقائه إلى فندق الكونتيننتال في «بك أوغلي»، وبدأت مفاوضاته رسميًّا مع مدحت شكري بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي وبعض أعضاء الوزارة في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٣؛ أي بعد وصوله إلى الأستانة بيوم ونصف.

ولم يَمْضِ على هذه المفاوضات أسبوع ونصف الأسبوع حتى أدرك السيد الزهراوي — رحمه الله — أن الحكومة تنوي المطل والتسويف، فعزم على السفر إلى مصر، وكان أصدقاؤه — إلا المرحوم عبد الكريم الخليل — يلحون عليه بذلك ويحذرونه سوء العاقبة، وفي ٢١ نوفمبر رأى سيادته أن يجاهر باستيائه من مطل الاتحاديين، فقابل أحد محرري الصحف وطلب منه أن ينشر في جريدته الحديث التالي بعدما وقع عليه بخط يده، وهو:

المحرر: لقد حان الزمان أيها الأستاذ لأن توقف الرأي العام على بعض ما جرى في شأن الإصلاح فماذا تقول؟

– لا أعلم أكثر منك، ولا أعلم شيئًا جديدًا، فقد أتيت إلى الأستانة، وفاوضت فريقًا من رجال الحل والعقد في تنفيذ اتفاقهم مع مؤتمر باريس، فسمعت من وعودهم ما سمعه طالبو الإصلاح من قبل، ولكن ما الفائدة ونحن نريد أعمالًا لا أقوالًا؟! ولم يعد لي من الوقت متسع للإقامة في الأستانة، ويرى أصدقائي أن سفري منها أمر واجب، وفي كل يوم أتلقى كتبًا وتلغرافات تستحثني على التعجيل في السفر إلى مصر.

– وهل ترجو الانتهاء من هذه المسألة قبل سفرك؟

– لم أفقد الثقة بحسن نية الحكومة بعد، ومع ذلك فإن سير الأمور على منوالها الحالي يوهن عزمي، ويثبط همتي، ويمنعني من الرد على سؤالك.

– ولكن سفرك الآن يُعَدُّ بمثابة قطع الرجا من الحكومة بتاتًا.

– هذا ما أخشاه، وما أفهمته للحكومة، فلا عذر لها إذا تجاهلته في مستقبل الأيام.

– وما هو السبب في مماطلة الحكومة؟

– أظن السبب خلافًا قام في جمعية الاتحاد والترقي، فإن فريقًا من أعضائها يؤيد مطاليبنا، ويروم معاملتنا بالحسنى، وفريقًا يرفض مطاليبنا كل الرفض، ويشير باستعمال الشدة معنا، ولا نعلم أي الفريقين يرجح، فإن استطاع أولهما إقناع ثانيهما كان لنا ما طلبنا، وإلا ساءت العاقبة كثيرًا.

وقد وقع هذا التصريح أعظم وقع في الأستانة، فجاهر كثيرون من خيرة الترك علمًا وفهمًا في الأندية والمجتمعات وعلى صفحات الصحف أنهم مدركون حرج الموقف، وقد أعربوا عن رجائهم بأن الحكومة تجيب العرب إلى مطاليبهم، وقالوا إن تمزيق اتفاق باريس أو المطل بتنفيذه جناية لا تُغْتَفَر، وأنشأ الكاتب التركي الشهير علي كمال بك مقالة سابغة في جريدة بيام، أَلَحَّ فيها على الحكومة في إرضاء العرب وإشراكهم في الحكم، وهذا بعض ما قاله في هذا الشأن:

«اشتهر العثمانيون بطيب سريرتهم اشتهار حكومتهم بسوء سيرتها، وما من أحد ينكر أن الحكومة العثمانية تقول ولا تفعل، وتعد ولا تفي، ولو نهجت في الماضي غير هذا المنهج لأحسنت صنعًا، وفتحت أبواب النجاح والارتقاء للأمة والبلاد.

يعني الباب العالي اليوم بمسألتين تتوقف عليهما حياة الدولة ومستقبلها، المسألة الأرمنية والمسألة العربية.

فقد اتفقت الحكومة مع العرب وأعلنت اتفاقها هذا على رءوس الأشهاد، وصرحت بأنها لا تتوانى ولا تتأخر عن اتفاقها مع الأرمن، فإذا كانت الحكومة قد غيرت خطتها التقليدية ونبذت سياسة التسويف والوعد ظهريًّا، فالواجب عليها أن تنجز وعدها وتبدأ بالإصلاح فعلًا.

ومن يرغب في شيء لا تقف العقبات في وجهه ولا تحول دونه، فهمة الرجال تدك الجبال، والأرض ترتجف تحت أقدام أرباب العزم على ما قال شاعرنا التركي. وأما إذا أُرْغِمَ المرء على شيء وعمله مكرهًا من غير طيبة خاطر فلا تكون النتيجة إلا الخذلان.

علينا أن نعترف أن كل ما عملته الحكومة لإصلاح هذا الملك كان على الأكثر من الأمور الفرعية، فقد اعتبرت القشر دون اللباب والألفاظ دون المعاني، فبلغنا الحالة المؤلمة التي نشكو منها اليوم.

فالرجاء أن تعدل الحكومة عن خطتها الماضية التي لا يحسن اتباعها؛ لأن المصائب والفوادح التي نزلت بهذه الأمة المنكودة الطالع أيقظتها من سباتها العميق وأفهمتها حرج الموقف، فأول واجب على الحكومة هو أن تقرن أقوالها بالأعمال في المسألة العربية قبل أن يفوت الزمان فيندم أهل الحل والعقد. ولات ساعة مندم!

لقد أطرينا الحكومة، وقلنا فيها كل كلمة تسرها يوم اتفاقها مع العرب؛ لأنهم ركن الدولة المكين وسندها الأعظم، فعليها في هذه الحال أن تنفذ المطاليب التي اتفقت معهم عليها، وليس ذلك فقط، بل أن تشركهم في الحكم وتلقي قسمًا من المسئولية على عواتقهم.

لقد عشنا في الزمن الغابر غرباء عن العرب، وعاشوا هم غرباء عنا. إن بيننا وبينهم رابطة الدين ورابطة الاحتفاظ بالملك، فعلينا أن نشدها شدًّا، وأن نكون جميعنا عثمانيين، فلا يقال هذا تركي وذاك عربي، فعدم تفاهمنا معهم عار عظيم علينا وعليهم، ولكن اللوم الشديد واقع علينا نحن الترك وحدنا؛ لأننا نحن الذين ابتعدنا عن العرب كما ابتعدنا عن سائر العناصر.

عرف أهل الغرب ما للعرب النجباء من المدنية الزاهرة والآداب الباهرة، فاقتبسوا عنهم، وأما نحن فلم نفقه لذلك معنى، فإذا اشترك العرب في الحكم فبشر الدولة بالفلاح والنجاح؛ لأنهم يخدمونها جهد طاقتهم بما أوتوه من ذكاء وقوة وفهم وحكمة،

ولا سيما حين يرون أن الوطن العثماني وطنهم والخلافة الإسلامية خلافتهم والسلطنة سلطنتهم. إنهم ينضمون إلينا وننضم إليهم؛ فنكون متحدين متآخين كالبنيان الثابت المتين.

لقد عرف العرب كافة من مسلمين وغير مسلمين، وأيقنوا تمامًا أنهم يستطيعون أن يعيشوا إخوة مع الترك في ظل العلم العثماني، فلنقوِّم ما اعوج من أمرنا معهم، ونصلح ما فسد من ماضينا في معاملتهم، ولا يكون ذلك إلا بأن نشركهم في الحكم معنا، ونتيلهم حقوقهم في مجلس المبعوثان وفي دوائر الحكومة كلها، وليكن نصيبهم من مناصب الدولة الكبيرة والصغيرة جزاءً وفاقًا طبقًا لأحكام الدستور، وإذا نزلت بنا فادحة بعد ذلك لا تدفع مقلة التركي وحده، بل يشاركه العربي في بكاه ويجاهد في الدفاع عنه. لقد آن لنا أن نفهم أن التركي اليوم غيره بالأمس، فلا هو سيد ولا العربي مسود، فإذا فهمنا ذلك اشتد أزرنا بالعناصر العثمانية، ولا سيما العنصر العربي الكريم، كما يشتد أزر إنكلترا بالإنكليزي وفرنسا بالفرنسوي وألمانيا بالألماني.»

وبعث صاحب جريدة أقدام من لوزان في تلك الأثناء مقالة جعل عنوانها «السرعة السرعة، العجل العجل»، قال فيها:

> يا لقومي من التواني! اجروا؛ أي بيان إصلاحي استحسنته الحكومة أو وافقت عليه ولو كان فيه معايب كثيرة، فكل ما هو أوروبي يشير إلينا الآن من طرف خفي. إن مسألة الإصلاح لم تَعُدْ تحتمل إبطاءً ولا تخاذلًا، إن أوروبا تحبذ الإصلاح وتصفق له؛ لأنها تعلم أن في إجرائه تأمينًا لمصالحها، ولكن كلامنا فيه أصم الآذان فأين العمل؟ ألا تعلمون أن الأرمن بلغت شكواهم عنان السماء؟ ألا تعلمون أن الدول العظمى ولا سيما اللواتي يردن بلع «اللقمة الجديدة» أصغين إلى الأرمن وأصابت مطاليبهم منهن هوى في النفس؟ لقد صحت عزيمة الحكومة على إجراء الإصلاح فعلًا، فما بالها تمطل. إن مسألة الإصلاح صارت في نظر أوروبا كالمسألة الشرقية أهمية وشأنًا، فإذا لم تُحَل بالعقل والحكمة حلًّا يرضي العناصر العثمانية ويقنع أوروبا كانت خطرًا على المملكة لا يُصَدُّ ولا يُدْفَعُ.
>
> ابدأوا بالإصلاح في كل قطر وصقع، ولا تقولوا إننا لم نستعد بعد ولا أعددنا ما يلزم لكل ولاية أو قضاء في البلاد، فقولكم هذا يؤخذ حجة على ضعفكم، وعلى أنكم لا تستطيعون عملًا ولا ترومون إصلاحًا.

لا يغرنكم من الصحف الأجنبية لين ملامسها، ألا ترون بين تضاعيف سطورها آصارًا مفزعة. لم يبقَ لنا وقت للتردد والجمود، فطبيعة العمران لا تقف جامدة، إن كل توانٍ اليوم نُحَاسَبُ عليه غدًا؛ لأنه ينزل بنا مصائب أليمة، فاسمعوا وعوا.

قررنا أن نستقدم مفتشين أجانب ليراقبوا أعمالنا، واستحسنا أن يكونوا إنكليزًا، وقلنا إنهم متى رأوا بعيونهم ما نجريه من الإصلاح كتبوا عنه إلى صحف بلادهم، فتكون كتابتهم خير معين لنا … إلى آخر ما قررناه وقلناه. ولكنني علمت — والأسف ملء صدري — أن حكومتنا لم تفاوض أوروبا — حتى إنكلترا وألمانيا — في شيء من هذا.

ألا فليعلم القائمون بالأمر فينا أن حالنا حال غير طبيعية، وأن للطبيعة سننًا لا بد من التمشي عليها …

إلى أن قال:

فإذا كنا نحن نرى هذا الضعف والأود فينا، فما الذي يراه المراقبون لنا الطامعون فيما بقي من ملكنا؟! إنه بينما الحكومة تذيع أنها تريد أن تعين مفتشين أجانب، فيطير البرق عزمها هذا إلى عواصم أوروبا، وبينما هي مريدة خلع الثوب القديم ورفع أثقال الحكومة المركزية عن عاتقها نرى طائفة أو طوائف من الجهال البهال الذين لا يدركون أسباب ارتقاء الأمم يقولون إن استقدام المفتشين الأجانب ومباشرة الإصلاح مضيعان للاستقلال ومهينان لأبناء الوطن. كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

إن أولئك الضالين أو المضلين يكتبون إلى الصحف ما لا يقيمون له وزنًا، ويعلقون عليه قائلين إن الرأي العام مستاءٌ من ذلك، وبعد أيام يكترون قومًا من بائعي ذممهم ووطنيتهم، فيستكتبونهم تلغرافات تبكي وتضحك؛ الجهول يبكي لها، والثكول يضحك منها.

ومن المؤلم جدًّا أن رجال الحكومة لا يقرأون هذا الهذيان حتى تخور عزائمهم، وترتخي قوتهم، وتضعف إرادتهم، فيختبئوا وراء ستار مترقبين ما تحمله الأقدار. إن تاريخنا القديم وتاريخنا الحديث مملوءان بهذه الأحوال والحوادث العجيبة الغريبة.

إن الدولة لا تأمن على موقفها، وقد بلغ الغاية من التحرج والخطر إذا ظل أهل الحل والعقد مترددين تارة يحجمون إحجامًا حقيقيًّا، وتارة يقدمون إقدامًا وهميًّا، فقد سئمت أوروبا هذه الحال التي لا يُسْأَلُ عنها أحد ولا يُعْرَفُ من المسئول عنها.

عجلي أيتها الحكومة في إجراء الإصلاح، فقد عيل صبر طلابه في الداخل وفي الخارج، وباتت البلاد على شفا جرف هار. أتريدين أن يكون مصير الأناضول كمصير الروملي؟ أتريدين أن يكون مصير آسيا العثمانية كمصير أوروبا العثمانية؟ أيجدينا بعد ذلك نوح الباكين أم ترنم الشادين؟!

هذا نموذج مما كان يقوله عقلاء الترك وينصحون الحكومة به، ولكن الاتحاديين غلبت عليهم النعرة الجنسية والرغبة في الاستئثار بالسلطة، فصمموا على رفض كل إصلاح حقيقي للبلاد، وعملوا على القضاء على الأمة العربية بتحقيق آمال بعض الأفراد واتباع سياسة اللين والخداع والمكر والتسويف مع زعماء العرب وقادة آرائهم.

ففي أواخر شهر دسمبر سنة ١٩١٣ صدرت الصحف الاتحادية وفي مقدمتها طنين وتصوير أفكار مزينة برسم المرحوم السيد الزهراوي، وإلى يمينه رمز للجيش العثماني وإلى يساره رمز للأسطول وتحته رسوم صغيرة لأنور باشا وطلعت بك وجمال باشا مع العبارة التالية بحروف كبيرة: «بمثل هؤلاء الأبطال يعتز الملك، وعلى مثل هذا الاتحاد تشيد الدولة العثمانية مستقبلها العظيم.»

وفي صباح الأحد في ٤ يناير سنة ١٩١٤ صدرت الإرادة السنية بتعيين المرحوم عبد الحميد الزهراوي وعبد الرحمن بك اليوسف ومحمد أفندي بيهم ويوسف أفندي سرسف ومحيي الدين أفندي النقيب وأحمد أفندي الكخيأ أعضاء في مجلس الأعيان العثماني. فوقع هذا الخبر وقوع الصاعقة في البلاد العربية، ولا سيما في الشبيبة التي رأت في قبول السيد الزهراوي بمنصب الأعيان أكبر ضربة على الإصلاح الذي لم يكن نفذ منه شيء على الإطلاق. فأظهرت عدم ارتياحها إلى عمله، وتبرأت منه، وألقت عليه وحده تبعة الحوادث التي كانت تتوقعها.

وقد أدرك — رحمه الله — في الحال عظم الخطأ الذي ارتكبه، فأبلغ الشبيبة أنه مستعد لتقديم استعفائه إذا أصرت على ذلك، وأنه لم يقبل بهذا المنصب إلا لمساعدة الحكومة على تنفيذ الإصلاح بالسرعة اللازمة مع بعض زعماء العرب الذين قرَّ القرار على تعيينهم قريبًا في مناصب عالية، فأجابته الشبيبة قائلة إنها قطعت كل صلاتها

السياسية معه، وأن حزب اللامركزية هو المسئول عن أعماله، فإذا شاء أن يقرر الاستعفاء أو عدمه فما عليه إلا أن يستشير ذلك الحزب الذي عُيِّنَ باسمه عضوًا في مجلس الأعيان.

ورأت الشبيبة من جهة أخرى أن المرحوم عبد الكريم الخليل لم ينهج منهجًا يلائم خطتها في مفاوضتِهِ مع الحكومة، فاستدعته لاستيضاحه عما جرى في أمر الإصلاح إلى ذلك التاريخ وعن موقفهِ إزاء الحكومة والجمعية وعدم ممانعته في قبول المرحوم الزهراوي بمنصب الأعيان، فوافاها إلى دار المنتدى الأدبي في الموعد الذي ضربته له، وكان بانتظاره هناك ما يزيد على ألف رجل من أعيان العرب وأدبائهم وشبانهم، وبعد المداولة في الأمر أعلن — رحمه الله — أنه لا يستطيع أن يبوح بأسرار سياسية تتعلق بالمسألة العربية أمام مئات من الناس، فقرَّ القرار حينئذ على انتخاب نجيب بك شقير صاحب جريدة بيام التركية والمرحوم سيف الدين الخطيب وأسعد أفندي داغر والمرحوم جلال أفندي البخاري وصبحي بك حيدر ليجتمعوا به في جلسة سرية ويقفوا على مجرى الأحوال السياسية، فإذا وجدوا ما تم في جانب الأمة العربية فبهِ، وإلا أعلنوا عدم اعتماد الشبيبة له.

وقد اجتمع هؤلاء المنتخبون بالمرحوم عبد الكريم الخليل في ٧ يناير سنة ١٩١٤ في جلسة سرية في بيرا — بك أوغلي — دامت من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى الساعة الثالثة والنصف بعد نصف الليل، ومما قاله — رحمه الله — في تلك الجلسة أن قبول المرحوم عبد الحميد الزهراوي الانتظام في سلك الأعيان خير من عدم قبوله؛ لأنه يفعل في المجلس ما لا يقدر على فعله في خارجه؛ إذ يكون له من الكلمة النافذة والقوة على الإقناع في الجمعية الاتحادية ما يبلغ به أبناء العرب المطالب التي يرمون إليها «وعصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة»، وأن سيادته رحمه الله لم يقبل هذا المنصب إلا لأن الاتفاق السري الذي أبرمه باسم الإصلاحيين مع جمعية الاتحاد والترقي يحتوي على فوائد عظيمة للعرب لا سبيل إلى الحصول عليها إلا بالتدريج ومع الزمن خوفًا من هياج العنصر التركي وسائر العناصر العثمانية على الحكومة ومطالبتها بمثل ما نال العرب منها، فمثل هذه الفوائد العظيمة يجب أن نفدي في سبيل الحصول عليها ردحًا من الزمن وأن لا نتألم من الانتظار؛ لأن جمعية الاتحاد والترقي أخلصت لنا ووضعت يدها بيدنا، إلى أن قال: «ولا أنكر عليكم أن أهم الأسباب التي اضطرت عبد الحميد أفندي إلى قبول منصب الأعيان وإثبات الاتفاق العربي التركي بأدلة جلية واضحة عظم

أطماع الأجانب في بلادنا العربية ورغبتهم في انتهاز فرصة اختلافنا مع الترك لتحقيق آمالهم فيها، وهذا السبب وحده يكفي لتبرئة السيد الزهراوي في نظركم، فضلًا عن ثقتنا التامة بإخلاص الاتحاديين لنا وارتباطهم معنا بعهود رسمية في مصلحة جمعية الاتحاد والترقي أن تبر بها إذا شاءت أن تظل الحكومة في قبضة يدها.» ولم تكن تصريحات عبد الكريم أفندي مقنعة بالإجمال، ولكن رغبة أعضاء اللجنة في اجتناب كل ما يئول إلى اشتداد الأزمة بين الترك والعرب جعلهم يصدرون القرار التالي الذي أُعْلِنَ في ٩ يناير في صحف الأستانة، وفي ١٠ منه في صحف بيروت، وفي ٢٤ منه في صحف مصر. وهذا نصه:

> اجتمعنا نحن الموقعين أسماءنا أدناه بمعتمد الشبيبة العربية عبد الكريم أفندي الخليل اجتماعًا طويلًا في جلسة خصوصية، وبعد المفاوضة معه وجدنا مبادئ الإصلاحات العمومية الأولى حسنة على ما يظهر، ولكن أمر التنفيذ لم يصل إلى الدرجة المطلوبة وليس فيه ما يوجب السرور، ولكننا نرى أن الوقت الحاضر لا يساعدنا على إظهار الاستياء من سير الأحوال؛ لأن ذلك يشوش على المصلحة العامة، وربما يقف عقبة في طريقها، فلا يجوز الآن عدم اعتماد عبد الكريم أفندي، بل يجب انتخاب لجنة استشارية من أربعة أشخاص تشد أزره، ويرجع هو إليها ويستشيرها في مفاوضاته استشارة خاصة، ولا صلة لهذه اللجنة بالحكومة، وإنما صلتها بعبد الكريم أفندي الذي يبقى الرسول الوحيد بين الشبيبة والوزارة وجمعية الاتحاد والترقي؛ لأن ذلك أقرب إلى المصلحة العامة.
>
> الإمضاءات

وجعلت الحكومة بعد ذلك تتزلف إلى الشبيبة العربية، وتعمل على أرضائها وإقناعها بحسن نية الاتحاديين، فكثر تردد الوزراء وزعماء جمعية الاتحاد والترقي على المنتدى الأدبي، وكثرت خطبهم فيه، فكان لا يمضي أسبوع أو بعض الأسبوع إلا ويزوره طلعت وأنور وجمال ومدحت شكري وغيرهم، فيتبادلون الخطب الحماسية وعبارات الوداد والإخاء مع الأعضاء، وكان آخر ما سُمِعَ من طلعت بك في هذا الصدد في خطبة ألقاها يوم احتفال المنتدى الأدبي بذكر المولد النبوي الشريف قوله:

وإذا فر العرب منا، فإننا نتمسك بهم، ونلتزمهم، ونضمهم إلى صدورنا، ونصافحهم مصافحة الأخ لأخيه.

ولما ظن الاتحاديون أنهم فرَّقوا بين الجمعيات الإصلاحية بإرضائهم بعض أفرادها وأخمدوا الحركة في البلاد العربية غيروا خطتهم فجأة، وتمسكوا ببعض زعماء العرب — كما قال طلعت بك — ولكن لإعدامهم لا لمصافحتهم مصافحة الأخ لأخيه.

الفصل الرابع

الصدمات الأولى

توقيف عزيز بك علي ومحاكمته – الحال في البلاد العربية بعد الاتفاق الانتخابات النيابية – خطب نواب العرب في مجلس المبعوثان حالة العدلية – المعارف – وسائر مصالح الحكومة

* * *

ظن الاتحاديون أنهم فرقوا بدسائسهم بين الأحزاب والجمعيات العربية وقضوا على اتحادها وحماستها وأنهم خدعوا العرب كما خدعوا بعض زعمائهم وأخمدوا الحركة نهائيًّا في بلادهم، فرغبوا في انتهاز الفرصة للقضاء على فكرتهم القومية، ورسموا تلك الخطة الفظيعة التي جعلوا يعدونها منذ شهر فبراير سنة ١٩١٤ ولم يتمكنوا من تنفيذها قبل سنة ١٩١٦ في البلاد العربية.

زعموا أن استياء الشبيبة من المماطلة بتنفيذ الإصلاح نشأ عن استياء ضباط العرب منه، وأنهم إذا قتلوا الفكرة القومية في الجيش سهل عليهم قتلها في الشبيبة وفي سائر الأحزاب العربية، فأرسلوا الفرق العربية التي كانت في بولاير إلى جهات حلب وأبعدوا في أسبوع واحد أكثر من أربعمائة ضابط عربي عن الأستانة إلى الأناضول وتراقية وشبه جزيرة غليبولي؛ حيث قلدوهم وظائف اسمية سامية، فلما انتهوا من عملهم هذا وظنوا أنفسهم في أمن من انتقاض العرب عليهم في الأستانة قرروا الفتك بزعماء العرب الذين فيها من عسكريين وملكيين، وابتدأوا بالضابط العربي الكبير عزيز بك علي بطل برقة.

(١) القبض على عزيز بك علي

أصدرت الحكومة الاتحادية أمرها بتوقيف عزيز بك علي صباح الإثنين في ٩ فبراير سنة ١٩١٤. فبينما كان خارجًا من فندق توكتليان بعد ظهر ذلك اليوم دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكي بكل احترام، ودَعَوْهُ إلى دائرة البوليس في اسطنبول، ولما ذاع الخبر في الأستانة قام له أبناء العرب وقعدوا، وذهب كثيرون منهم إلى مركز البوليس مستعلمين عن السبب، فقابلهم مدير الأمن العام بكل بشاشة وتلطف، وقال لهم إن عزيز بك لم يوقف، ولكنه يُسْتَوْجَبُ عن أمور لا دخل له فيها، وسيُطْلَق سراحه في المساء. وقصد المرحوم الزهراوي منزل طلعت بك ليقف منه على حقيقة الحال، فقيل له إنه ليس في منزله، والحقيقة أنه لم يرغب في مقابلته كما اتضح بعدئذ.

ولما أزفت الساعة العاشرة مساءً ولم يخرج عزيز بك من دائرة البوليس قصد أحد الضباط العرب المرحوم عبد الحميد الزهراوي في فندق كركور، وطلب منه باسم الضباط العرب أن يبحث عن السبب ويخبره به في اليوم التالي، وأبلغه استياء العرب ملكيين وعسكريين من تلك المعاملة؛ لأن عزيز بك لا دخل له في سياسة الأستانة وشئون أحزابها، إلى أن قال: «أبلغ الحكومة أيها الأستاذ أن دماءنا نحن العرب يجب أن تُحْفَظَ للدفاع عن الوطن، فلا تضطرنا إلى إراقتها في سبيل الأفراد.»

وفي ١٠ فبراير عقد مندوبو الأحزاب العربية اجتماعًا مهمًّا للوقوف على الأسباب التي أدت إلى القبض على عزيز بك، وإجراء ما تقتضيه الحال، ثم قابلوا جمال باشا وطلعت بك وغيرهما، فسمعوا منهم كلهم جوابًا واحدًا، وهو أن عزيز بك أخوهم وحبيبهم وأن وزارة الحربية تحقق معه في بعض الشئون العسكرية التي تتعلق بأمر الدفاع عن الدولة، وأن الحكومة قررت تعيينه واليًا على البصرة!» ولكن العرب لم ينخدعوا بكذب الاتحاديين هذه المرة، فقاموا بمظاهرات عديدة في الأستانة، وطلبوا من الحكومة أن تعجل في محاكمة عزيز بك، وأن يُضَافَ إلى المجلس العسكري الذي يتولى أمر هذه المحاكمة لجنة من أركان الحرب وكبار الأمراء العسكريين الخبيرين بالشئون الحربية، فلم تفعل شيئًا من ذلك، وألفت المجلس العسكري من بعض صنائع أنور باشا وعبيده وبعض الذين لا يخالفون له أمرًا.

(٢) محاكمة عزيز بك

وقد بدأت المحاكمة يوم الأربعاء في أول أبريل سنة ١٩١٤ بحضور الشهود سليمان بك العسكري، ورمزي أفندي المهداوي، وضيا أفندي، والملازم نور الدين أفندي، ورشيد أفندي، وإلى القراء التهم التي وُجِّهَتْ إلى عزيز بك، وخلاصة أقوال الشهود كما وردت في محضر الجلسة الرسمي:

قال سليمان العسكري: «إن فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية؛ فقد سعى وهو في طرابلس الغرب في بث الفكرة العربية بين الأهلين، وفي إنشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو إدارة شئونها وكاد ينجح في سعيه لولا معاكستي أنا وبعض الضباط الأتراك له.»

وقال رمزي أفندي: «إن عزيز بك اجتمع بالإيطاليين أثناء الحرب اجتماعًا مهمًّا، ولكني لا أعرف ما دار بينهم من الكلام.»

وقال ضيا أفندي: «إن عزيز بك عدو للأتراك عمومًا، وعدو لأنور باشا خصوصًا، فهو خائن للدولة التركية.»

وقال نور الدين أفندي: «إن عزيز بك اتفق مع الإمام يحيى على نهج خطة واحدة، الغرض منها ضم اليمن إلى مصر، وكان يسعى وهو في بنغازي إلى تنفيذ هذه الفكرة، وجعل بنغازي واليمن دولة عربية واحدة.»

وقال رشيد أفندي: «إن عزيز بك أعرب أمامي عن سروره وارتياحه إلى ما أصاب المسلمين في البلقان، وأنه ذبح بعض العرب في بنغازي ودفن عشرات من العرب أحياء.»

وفي ٤ أبريل عُقِدَتْ جلسة ثانية لسماع شهادة العبد الماس «الذي قُبِضَ عليه في السودان في العام الماضي» وشخص آخر يُدْعَى قاسم كان قهوجيًّا عند عزيز بك في برقة، فقال العبد الماس: «سمعت في برقة أن عزيز بك استلم من الإيطاليين مبلغًا من النقود لا يقل عن ١٥ ألف ليرا مقابل تسليمهم البلاد.»

وقال القهوجي قاسم: «إن سمو خديوي مصر أوفد إلى عزيز بك رجلًا اسمه حسن بك حمادة لمفاوضته في تسليم البلاد إلى الإيطاليين.» واستشهد على صحة ذلك بمقابلة عزيز بك لسمو الخديوي السابق أثناء مروره في مصر.

هذه هي التهم التي وجهها الاتحاديون إلى بطل برقة، وهذه خلاصة أقوال الشهود الذين شهدوا عليه.

وقد كان قصد الاتحاديين أن يعدموه بلا محاكمة، ولكن اهتمام الرأي العربي العام به اضطرهم إلى العدول عن ذلك، ولما انتهت المحاكمة ورأوا أن هياج العرب لم يخمد بل كان يزداد شدة يومًا فيومًا قرروا اغتياله في السجن، فبلغ الخبر زعماء العرب من أحد المصادر الاتحادية في الأستانة، فاجتمعوا وتداولوا في الأمر ثم عرضوا المسألة على الصدر الأعظم والمرشال فون ساندرس باشا، وعلى سفراء الدول العظمى طالبين منهم باسم العدل والقانون منع الاتحاديين من اقتراف جريمتهم الفظيعة، وكانت بريطانيا العظمى قد اهتمت اهتمامًا خاصًّا بمسألة عزيز بك علي، وفاوضت الحكومة العثمانية مرارًا في شأنه، وأقنعتها ببراءته ووجوب إطلاق سراحه، فلم يتمكن الاتحاديون إلا إجابة هذا الطلب، لا سيما بعدما أدركوا أن إعدامه يؤدي إلى ثورة عظيمة في البلاد العربية.

وبدهي أن محاكمة عزيز بك لم تكن قانونية على الإطلاق؛ لأن التهم التي عزوها إليه تهم صبيانية مختلقة، ولأنها إما أن تكون قد وقعت قبل معاهدة لوزان وإبرام الصلح مع إيطاليا أو بعدهما، فإن كانت قبلهما كان الواجب على أنور باشا القائد العام حينئذ أن يحاكمه عليها، وإن كانت بعدهما فلا شأن للحكومة العثمانية في التعرض له بسببها؛ لأن البلاد أصبحت بعد الصلح إما عربية أو إيطالية، وخرجت عن السلطة العثمانية، فإن حسبها الاتحاديون عربية فإن عزيز بك كان أميرًا مستقلًّا فيها ولا صلة له بحكومة الأستانة، وإن حسبوها إيطالية فكان من الواجب تسليمه إلى حكومة إيطاليا التي يحق لها محاكمته دون سواها.

والحقيقة أن الاتحاديين لم يقرروا توقيف عزيز بك لمحاكمته، بل قرروا ذلك لقتله بطريقة من الطرق للسبب الذي تقدمت الإشارة إليه، وهو رغبتهم في قتل الفكرة العربية بقتل القائمين بها.

(٣) من هو عزيز بك؟

هذا كان جزاء عزيز علي بك على خدمه الباهرة للوطن العثماني، فإن حياته قبل الدستور وبعده كانت حياة جهاد دائم في سبيل الحرية، وكانت صلاته بجمعية الاتحاد والترقي قوية متينة، بل كان يدها اليمنى في مكدونية؛ حيث أعلن الدستور قبل أن أعلنه نيازي ببضعة عشر ساعة، وقد اعترفت له جمعية الاتحاد والترقي بخدمه العظيمة وأحلته موضعه من الاحترام والإكرام، ولكنه انفصل عنها بعد إعلان الدستور، لاعتقاده

أن سياسة تتريك العناصر التي اتبعتها لا تُؤْمَنُ عقباها ولا يُحْمَدُ منتهاها، فنصح لرفقائه الأتراك بأن ينيلوا العناصر العثمانية حقوقها، ويمهدوا السبيل إلى ارتقائها بلا فرق ولا تمييز، وإن كان لهم عنها مشاكل وشواغل لا يخلصون منها، فأنكروا عليه نصحه واتهموه بالمروق والخيانة، وقالوا إنه يبث الفكرة العربية في الجيش العثماني، وجعلوا يفسدون عليه طرقه ويقيمون العثرات في سبيله. واغتنم عزيز بك فرصة إقامته في الأستانة سنة ١٩١١؛ فاستدعى فريقًا من العثمانيين وأصحاب الرأي السديد إلى منزله، وقال إن اتفاق العناصر العثمانية أمر لا بد منه لإعلاء شأن الدولة، وعرض عليهم آراءه، فاستحسنوها إلا واحدًا روسي الأصل قربته منافعه إلى الترك فتزلف إليهم وهو في الحقيقة أبعد الناس عنهم، وكانت معارضة هذا الرجل سببًا في إلقاء النفور بين عزيز بك وجمعية الاتحاد والترقي، وبالتالي بين الفكرتين العربية والتركية.

ولما شبت نار الثورة في اليمن وانغلبت العساكر العثمانية في معركة جيزان بالعسير، وفقدت أكثر من ثمانية وعشرين ألف مقاتل بين ضابط وجندي بالجوع والحرب، وانقطعت عنهم المئونة والذخيرة بسبب الحرب الطرابلسية رأى عزيز بصائب رأيه أن يصالح سيادة الإمام يحيى، فعقد معه صلحًا حسنًا لا تزال الدولة إلى اليوم تجني ثماره، فشق عمله هذا على فريق من حساده ومبغضيه، واتهموا بالمروق في الوطنية بحجة أنه قدم مصلحة العرب على مصلحة الدولة العثمانية.

ثم دفعته وطنيته الصادقة إلى طرابلس الغرب؛ حيث تمكن على قلة جنوده ونفاد يده من المال أن يوقف الإيطاليين على الساحل زمنًا طويلًا، وقد شهد له أعداؤه بالبسالة والمقدرة والتفوق في ميادين القتال، وكانت معركة ١٦ يوليو التي انتصر فيها من أعظم المعارك من الوجهة الحربية، حتى إن بعض صحف الغرب شبهتها بمعركة «كان» الشهيرة التي انتصر فيها هنيبال على الرومانيين.

وقد استعفى عزيز بك من الجيش العثماني في ٢٠ يناير سنة ١٩١٤؛ أي قبل سجنه بخمسة عشر يومًا، وهذه ترجمة استعفائه:

إلى وزارة الحربية الجليلة

لقد تركت الجيش العثماني من هذا التاريخ، ولكن حياتي العسكرية الماضية لا تزال تربطني به برباط متين لا تقوى الأيام على فصمه، فإذا شبت حرب

واحتاج الوطن إلى أبنائه فلتطلبني وزارة الحربية الجليلة من القومسيرية العثمانية بمصر محل إقامتي، على أن تعين لي الفرقة التي أقودها.

الإمضاء: عزيز علي

(٤) الاتحاديون وعهودهم

(٤-١) مسألة الانتخابات

وكانت الحكومة الاتحادية قد اتفقت مع المرحوم الزهراوي على أن يكون للعرب ٧٠ نائبًا في مجلس المبعوثان، فألغت هذا الاتفاق ساعة التنفيذ، وقلبت للعرب ظهر المجن، فكانت النتيجة أن نواب العرب عُيِّنُوا تعيينًا إلا في بيروت والبصرة وقسم من ولاية الشام، وأن عدد مبعوثيهم لم يبلغ الخمسين، وبينهم عدد كبير من الترك، ومعظمهم من صنائع الاتحاديين، وقد ورد على مندوبي الجمعيات العربية في الأستانة التقرير التالي من جمعيات العراق في إبان الانتخابات النيابية، وهو بنصه:

> أَجَّلَتْ الحكومة الانتخابات النيابية في العراق لتتمكن من اتخاذ التدابير اللازمة لفوز مرشحيها، فالبغداديون يرغبون في انتخاب هادي باشا الفاروقي رئيس أركان الحرب في الجيش العثماني سابقًا والميرلوا عبد الفتاح باشا والميرلوا محمد علي باشا، والثلاثة من أكبر قواد الجيش الذين أحيلوا على التقاعد من عهد قريب، وأما الحكومة فتريد أن تنتخب صلاح الدين أفندي من أتراك كركوك وفؤاد أفندي من الشبان الأتراك نزلاء بغداد وخالد بك شقيق المرحوم محمود شوكت باشا، وكل من الثلاثة دون الثلاثين من العمر. وقد أرسلت الحكومة خمسة وثلاثين ضابطًا برتبة بكباشي إلى بغداد، وتسعة وعشرين بكباشيًّا أيضًا إلى سائر أنحاء العراق، وعينت مبعوثًا تركيًّا عن الموصل، ولم يُنْتَخَب عن حلب إلا اثنين من العرب، وانتخب بعض الترك نوابًا عن الحديدة في اليمن؛ حيث كانوا موظفين، وخرج مبعوث تركي عن لواء ماردين … إلخ، إلخ.

ولم تَكْتَفِ الحكومة الاتحادية بذلك كله، بل كمت أفواه العرب، ولا سيما الإصلاحيين منهم، ووضعتهم كلهم تحت المراقبة الشديدة، وبالغت في احتقارهم كما

كانت تبالغ في احترامهم وإكرامهم، ثم رغبت في عدم قبول نوابهم — وخصوصًا نواب البصرة — في مجلس المبعوثان، وكادت تنجح في ذلك لولا خوفها من زعماء العرب وأحزابهم، ولا سيما السيد طالب بك النقيب الذي كان قد استقل تقريبًا في القسم الجنوبي من العراق.

(٤-٢) الحالة في البلاد

أما حالة البلاد العربية بعد الاتفاق التركي العربي — كما سماه الترك أنفسهم — فأكتفي بأن أذكر عنها ما قاله نواب العرب في خطبهم في مجلس المبعوثان نقلًا عن جريدة «تقويم وقايع» وهي الجريدة الرسمية العثمانية.

(٤-٣) العدل في البلاد العربية

قال سليمان فيظي بك مبعوث البصرة في خطبة ألقاها في مجلس النواب في ١١ يوليو سنة ١٩١٤ أثناء المناقشة في ميزانية وزارة العدلية — الحقانية — ما تعريبه:

> حينما يسمع المرء اسم نظارة العدلية يتصور منبع العدل والقانون، ويقول إن المكان الذي يُقَامُ فيه العدل لا يعرف غير الاستقامة والقانون دينًا وطريقًا، في حين أن ذلك المكان الذي تصورناه منبع العدل لا يخالف القوانين العادية فقط، بل القانون الأساسي عينه، ولا سيما في البلاد العربية.
>
> فالمادة ٨١ من القانون الأساسي تقول إنه لا يجوز عزل الحكام إلا لأسباب، ولكن وزارة العدلية تعزلهم من غير سبب ولا موجب، وقد أرسل أحد مأموري العدلية الذين عُزِلُوا تلغرافًا إلى الوزارة يحتج فيه على عزله، ويطلب أن يُؤْذَن له في المجيء إلى الأستانة للدفاع عن حقوقه، فردت عليه النظارة بالتلغراف التالي: «جهنمة كيت.» أي: اذهب إلى جهنم.
>
> إنا نعرف كثيرين من أبناء العرب يستحقون الترقية، ولكنهم عُزِلُوا، فإذا كانت وزارة العدلية — الحقانية — التي هي منبع العدل تعامل المأمورين بما يخالف القانون، فإلى من نشكو أمرنا إذن؟!
>
> تعلمون أن الواجب يقضي بأن يكون المأمورون واقفين على اللغة المحلية أو ملمين بها احتفاظًا بحقوق العباد، ولكننا نرى الأمر على الضد من ذلك،

ولرب قائل يقول: وهل ينبغي أن يتعلم إخواننا الترك اللغة العربية؟ فنجيب بأنه لا ينبغي أيضًا أن يُوَظَّفُوا كلهم في البلاد العربية.

لقد صدرت الإرادة السنية في ٢٢ أغسطس سنة ١٣٢٩ موجبة المحاكمة باللغة العربية في البلاد العربية، فسر الجميع بذلك وابتهجوا، ولكننا نرى والأسف ملء صدورنا أن المحاكمة لا تزال تجري في العراق مثلًا باللغة التركية، وليس بين أهل العراق واحد في المائة يفهم هذه اللغة.

زلفي أفندي (أحد مبعوثي الترك)**:** لا فرق في ذلك، فجميعنا عثمانيون.

الخطيب: وإني ألفت أنظار وزارة العدلية إلى حالة المحاكم أيضًا.

مبعوث عربي: إن حضرة وزير العدلية يعمل دائمًا بالشفاعة والالتماس؛ فيعين من يريد هو تعيينه، ويرفض من يريد هو رفضه.

الوزير: أرد هذا الكلام وأنقضه، فالرشوة بعيدة عني.

المبعوث: لم يتهمك أحد بالرشوة، والشفاعة والالتماس هما غير الرشوة، وهما يجريان بلا عوض، وقد يكون ذلك ببطاقة زيارة أو «بتسليم».

(٤-٤) المعارف في البلاد العربية

وقال سليم أفندي سلام أحد مبعوثي بيروت، يصف حال المعارف في البلاد العربية في خطبة ألقاها في مجلس النواب في ١٤ يوليو سنة ١٩١٤ أثناء المناقشة بميزانية المعارف:

> تكتفي وزارة المعارف بأن تقول عندي مدارس سلطانية كذا ومدارس إعدادية كذا. ولكنها لا تفكر في حال هذه المدارس. خذوا أيها السادة مسألة تعيين المديرين والمعلمين والمعلمات مثالًا للتطبيق والكلام، إنها تعين لتدريس اللغة العربية الشريفة أناسًا ليست معارفهم بها بأكثر من معارف العوام، بل هي تعين مديرين تبرأ الإدارة إلى الله منهم، تحدث الوزارة وظيفة في المعارف، فتقلدها من تشاء بغير حساب؛ فتارة تتبع هواها وإرادتها، وتارة تمتحن، ولكن بلا قاعدة ولا أصول إلا الشفاعة والالتماس والانتساب إلى رجل كبير. كل هذه الأسباب جعلت مدارسنا الرسمية في الانحطاط الذي تعرفونه، هذه مدرستنا السلطانية في بيروت تأسست منذ ٣٠ سنة، ولا يبلغ عدد طلابها

مائتي طالب، في حين أن عدد الطلبة في الكلية الأميركية ألف ومائة طالب، وفي كلية اليسوعيين في بيروت سبعمائة طالب، وفي مدرسة الفرير سبعمائة أيضًا. ولعلكم تقولون إن الثقة بمدارس الأجانب هي التي سببت هذا الإقبال عليها، نعم إنها الثقة، ولكن الثقة لا تُكْتَسَبُ من غير جد وعمل، ولولا رغبة الأهلين في الانتظام بسلك الوظائف لما دخل أحد من أبنائنا مكاتب الدولة، وذلك ظاهر للعيان، أرأيتم حتى الآن متخرجًا من مدارس الحكومة يتعاطى التجارة أو الصناعة أو الزراعة، كلَّا ثم كلَّا، فإن جميع الذين يتعاطونها من خريجي المدارس الأجنبية أو الأهلية لا المدارس الرسمية.

يحزنني أن أبلغكم أن مدارسنا الرسمية باتت معامل لصنع الموظفين مع أن المدارس لم تُنْشَأ إلا لكي تُخْرِجَ للوطن رجالًا يعيشون بكدهم وجدهم، رجالًا ينفعونه بثمرة عقولهم.

تلك حال مدارس الصبيان في بلادنا العربية، أما مدارس البنات، فماذا أقول فيها؟ ماذا تريدون مني أن أقول يا نواب الأمة؟ إنها لفي الدرك الأسفل!

المرأة قوام الحياة الأدبية، وركن الهيئة الاجتماعية، فما دامت منحطة فالأمة تظل منحطة أيضًا، إن مدرسة البنات العثمانية في بيروت لم تتخرج فيها منذ إنشائها إلى الآن تلميذة واحدة جديرة بالاحترام العلمي، بخلاف مكاتب البنات الأجنبية التي يتخرج منها كل سنة عدد كبير من الفتيات الراقيات.

وخلاصة القول أن حال مدارس الصبيان والبنات في البلاد العربية توجب الأسف الشديد والعجب العجاب، وأن وزير المعارف المحترم واقف على أحوال المعارف في سورية، ومع ذلك فهو يتقاعد عن إصلاح الحال.

وإنه ليحزننا جدًّا أن تهمل وزارة المعارف واجباتها، ولا سيما في سورية؛ حيث المصلحة السياسية تقضي عليها بمزاحمة الأجانب.

لجمهورية فرنسا أيها النواب الكرام مدارس في سورية فيها ٤٣ ألف تلميذ، ولروسيا مدارس فيها ٣٥ ألف تلميذ، ما عدا المكاتب الإيطالية والألمانية والأميركية وغيرها، فإذا علمتم أن عدد تلاميذ المدارس الرسمية دون ذلك العدد الكبير بكثير أدركتم الخطر الذي يتهدد البلاد.

هذا بيان موجز عن مكاتبنا الرسمية وتواكل وزارة معارفنا وإهمالها بلادنا العربية، ولم تكتفِ بهذا الإهمال فقط، بل تعمدت هضم حقوق العرب

بإرسالها مئات من الترك على نفقة الأمة إلى أوروبا، فقد سعيت كثيرًا لأعلم أَيْنَ هؤلاء الطلبة عربي واحد، فما وجدت واحدًا في المائة، فضلًا عن أن عدد المدارس في كل البلاد العربية يقل عن نصف عدد المدارس التي أنشأتها الحكومة في الولايات التركية سنة ١٩١٣ فقط بمال الأمة العثمانية كلها.

مبعوث تركي: لا تفرق بين الترك والعرب.

الخطيب: إننا إخوان في السراء والضراء في وجه الأجنبي، ولكننا كالإخوة أيضًا نتحاسب في كل شيء في مسائلنا الخصوصية.

وقد قامت الضجة في المجلس حينئذ، واشتد الجدال، ورغب النواب الاتحاديون في إكراه الخطيب على النزول عن منبر الخطابة، فعُطِّلَت الجلسة مؤقتًا.

(٤-٥) مصلحة البريد والتلغراف

وقال فارس أفندي الخوري مبعوث دمشق في خطبة ألقاها في مجلس المبعوثان في ١٧ يوليو سنة ١٩١٤ عن حالة البريد والتلغراف في البلاد العربية:

> إن بعض المكاتيب يُفْتَحُ في البلاد العربية ولا يُرْسَلُ إلى أصحابه إلا بعد الاطلاع عليه، وفي الأكثر أنه لا يُرْسَلُ، وكنت أسمع في دمشق مثلًا إشاعة كذا وكذا عن العاصمة، فسألت عن منبع هذه الإشاعات، فكان الجواب أن تلغرافًا في هذا الموضوع أُرْسِلَ من الأستانة إلى إحدى الجرائد المصرية، فمر بمكتب التلغراف. إن صون أسرار الناس السياسية والخصوصية من أهم واجبات البريد والتلغراف وأقدسها.
>
> وكثيرًا ما ترد التلغرافات غير واضحة، والسبب في ذلك أن المأمورين غير عارفين اللغة المحلية، فالمأمور الذي يجهل اللغة العربية في الشام مثلًا يجعل الكلمة كلمتين أو الكلمتين كلمة واحدة، فيتعذر على المُرْسَل إليه فهم المراد، وقد تلقينا كلنا تلغرافات على هذا الشكل، فاضطررنا إلى مراجعة مرسليها والاستفهام منهم عن فحواها، وفي ذلك من ضياع الوقت والخسارة ما فيه، فلماذا لا يكون موظفو التلغراف من الواقفين على اللغة المحلية؟ أليس بين أبناء العرب من يصلح لهذه الوظائف؟!

وقد كانت كل دوائر الحكومة وأعمالها في البلاد العربية بعد الاتفاق المزعوم بين العرب والاتحاديين عرضة لانتقاد أشد من هذا الانتقاد في مجلس النواب عينه، فكاد يتفاقم الأمر لولا أن خليل بك — رئيس المجلس في ذلك الحين — منع النواب من الكلام في مثل هذه المواضيع بحجة «تخديش الأذهان»، وبديهي أن ما صرح به نواب العرب الكرام عن حالة بلادهم كان دون الحقيقة بمراحل؛ لأن حريتهم كانت محدودة، ولأنهم كانوا دائمًا مهددين بالمشنقة أو بالاغتيال إن هم أعربوا عن آرائهم بصراحة ووضوح.

هذه أول نتيجة من نتائج ذلك الاتفاق المشئوم الذي أظهر فيه العرب، ولا سيما المرحوم الزهراوي وغيره من سلامة النية والإخلاص للعرش العثماني ما ورط الاتحاديين بهم وجرأهم على احتقارهم والحنث بالعهود التي قطعوها معهم. وقد كافأ أحد كبار الاتحاديين المرحوم الزهراوي على مساعيه العظيمة للاتفاق مع الترك بقوله عنه في نادي «السركل دوريان» بعد قبوله منصب الأعيان ببضعة أيام: «بوزهراوي زهراوي دن كلير» أي: «إن هذا الزهراوي — أي المرحوم عبد الحميد الزهراوي — مشتق من زهراوي؛ عملة عثمانية قيمتها نحو فرنك» فأثبت بذلك صحة قول القائل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

هذا وقد تعمدنا في هذا الكتاب عدم الإشارة إلى احتقار الترك ولا سيما الاتحاديين للأمة العربية الكريمة؛ لأن في ذلك ما يؤلم القراء من أبناء العرب، فلم نذكر لهم أن الترك يسمون الكلب الأسود «عرب»، وأن من أمثالهم الشهيرة قولهم عند ترفعهم عن الدنايا: «بوني يا بارسه م عرب اوله يم» أي إن فعلت هذا أكون عربيًّا، ولم نعرب المقالات التي كتبها مندوب جريدة أقدام في البلاد العربية، وقال فيها «إن العرب يبيعون كل شيء حتى أعراضهم بالمال» ولا النشرة التي وزعها الاتحاديون في البلاد التركية، وجاء فيها «إن العرب هم بلية علينا، وأن حصان التركي خير من أي نبي ظهر في العالم» إلى غير ذلك من الأمثال والأقوال والكتابات التي يعرفها كل من زار الأستانة والأناضول في السنوات الأخيرة.

الفصل الخامس

إخلاص العرب للاتحاديين

موقف أمراء العرب – كتاب للعبرة والتاريخ خطة الأحزاب العربية قبل الحرب الأوروبية وبعدها كتب سياسية سرية من زعماء العرب المشنوقين

* * *

أخلص العرب أمراؤهم وأحزابهم للاتحاديين قبل الدستور وبعده، وأخلصوا لهم بعد الاتفاق الذي أبرموه معهم في أواخر سنة ١٩١٣، وبعد إعلان الحرب الأوروبية أيضًا، والأدلة على ذلك عديدة ذكرت بعضها في الفصول السابقة، وأذكر منها الآن ما يزيده إيضاحًا وجلاء فلا يرده راد ولا ينقضه ناقض.

(١) إخلاص أمراء العرب

لم تَحُلْ أعمال الاتحاديين وفظائعهم دون إخلاص أمراء العرب لهم في زمن من الأزمان، فالحملات التي أرسلوها على أمراء العرب والدماء التي أراقوها في شبه جزيرة العرب لم تقطع تلك الصلة التي رغب العرب في المحافظة عليها حبًّا بالإسلام ورغبة في المحافظة على كيانهم القومي، فإن سيادة الإمام يحيى أبرم معهم ذلك الاتفاق الشهير بواسطة عزيز بك علي، ونفذ كل بنوده بإخلاص عظيم، فخدم حكومة الأستانة خدمًا جلى لا تزال تجني ثمارها إلى اليوم، واتفق الأمير ابن السعود مع حكومة الاتحاديين بواسطة السيد طالب بك النقيب، وقبل على أثر ذلك أن يعين قومندانًا عثمانيًّا على الأحساء، ولا يزال بعض القبائل العربية في العراق مواليًا لها إلى الآن مع كل الفظائع التي اقترفتها في بلادهم، وقد خدمتها تلك القبائل خدمًا عظيمة في هذه الحرب ولولاها لما بقي للاتحاديين أثر في العراق. ولم يكن سيادة شريف مكة جاهلًا لما ينويه الاتحاديون

له ولبيته الكريم ومع ذلك فإنه ظل محافظًا على ولائه لهم إلى أن طفح الكأس وتفاقم الخطب وعم البلاء.

أما السيد الإدريسي أشد أمراء العرب كرهًا للاتحاديين، فقد كان مع كرهه لهم واعتقاده بسوء سياستهم ميالًا إلى الاتفاق معهم، وراغبًا في ذلك الاتفاق بدليل سكوته عنهم في إبان شدائدهم والمساعي التي بذلها لحسم المشاكل التي كانت سببًا في حروب عديدة بينه وبينهم، وقد رأيت أن أنشر في هذا المقام صورة كتاب سياسي أرسله السيد الإدريسي إلى سيادة الإمام يحيى، وضمنه حقائق تاريخية تدل على حسن نية أمراء العرب وعلى السياسة الخرقاء التي اتبعها الاتحاديون معهم، وهذا هو الكتاب بنصه:[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن علي الإدريسي إلى جناب المولى الذي هو بالمحامد أولى[٢] الإمام يحيى حميد الدين، أشرق الله شموس سعده، وأعلى مراتبه على سنن جده، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد تقديم تحيات بين يدي نجوى هذه السطور تهديها إليكم نسمات الوداد ونفحات الإخلاص على أطباق النور، فقد وردت كتبكم الكرام آخرها ما هو بصحبة السادة الأجلاء العلماء الأعلام السيد العلامة صفي الإسلام الصنو أحمد بن يحيى بن قاسم عامر والصنو العلامة العزي محمد بن علي بن أحمد بن حسين الذاري والصنو العلامة الوحيد عبد العزيز بن يحيى بن المتوكل والصنو العلامة العزي محمد بن محمد السرعي الحولي، وقد سرنا وصولهم وشريف قدومهم، وانشرح البال من لطائف علومهم وظرائف فهومهم وتذاكرنا في أبحاث شتى.

أما مادة الصلح بيننا وبين الحكومة، فمن أول يوم وما ندعو إليه هو الوفاق، وكلما أرادوا عقد ذلك نقضوه، وكفى بما كان في هذه المدة الأخيرة، فإن المذاكرة حصلت بيننا وبينهم في هذا الموضوع ثلاث مرات، بل أربع — مرات — بعد وصول رسلهم إلينا، فإذا أجبنا بما فيه الوفاق أعرضوا تيهًا وكبرًا واحتقارًا لنا.

فأولى المرات بواسطة محمد توفيق في مجيئه الأخير، فأجبناهم ذاكرين مواد بسيطة؛ لأن في ذلك الوقت لم يكن قد وقع بيننا وبينهم سفك دماء، وتلك المواد هي أن نكون في جهاتنا آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، ضابطين للبلاد من الفساد، مع بقاء مراكزهم، وإليهم تُساق الحاصلات،

وعليهم القيام بما يلزم من معاش القضاة والمترددين في مصالح البريات، وأن يبقوا «جازان» برتبة المعتاد، وأن لا يحدثوا زيادة من القوة في البلاد، وأن يفك أمير مكة صالح بن حسن وصاحبه من الحجاج، وأن نتوسط فيما بينكم وبينهم من الصلح، وهذه المواد مما يُضْحَكُ منها؛ لأنها لبساطتها لا تكاد أن تكون مطالب، ولكن أدانا إلى ذلك حب الراحة للبلاد والعباد.

فما كان الجواب إلا بنقيض ذلك، فساقوا تلك القوة التي يقدمها محمد راغب بك ومحمد علي باشا على جازان، وملأوه بالآلاف، وازدادوا عدوانًا على طلب الحجاج لحبسهم، كما وقع في حبس بعض رجال «ألمع» في حج هذا العام، وأشعروا أن العسيري تابع لإمارة حسين بن عون،[٣] وأرسلوا إلينا بطريق مصر في حين وصول القوة العامة برفق عزت[٤] أني إن أردت السلامة أفتح لهم الطريق إلى الأمام التي تمر على طرف البلاد التي بيدنا، ففوضنا الأمور إلى الله واستعنا به في مدافعتهم وبحمد الله قد كان ما كان.

ثاني المرات بواسطتكم عندما وصل إليكم عزيز،[٥] ووافقناكم، فكان منهم الجواب بالتعليق على ما هو في حكم المستحيل، وهو إجابتنا لحضور الأستانة، وقد تحقق لكم من هذا نهاية الإعراض، مع أنكم قد بذلتم الجهد، كما أخبر عزيز عند وصوله مصر لبعض أصدقائنا بذلك، وبما كررتموه من المراجعة فيما هنالك، ومنع عزت وأخذ في تجهيز نحو تسعة وثلاثين طابورًا إلى أن حال بيننا وبينهم الله بما تداركنا به من رحمته الأخيرة، فكشف عنا الغمة ونجانا، كما هو سنته مع عباده المؤمنين، وعكس عليهم القضية، وسلط عليهم عبادًا له أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وكان وعدًا مفعولًا.

ثالثها كان بواسطة السيد الشراعي مع بعض إخواننا فأجبنا، فكان الجواب منهم بالسكوت.

رابعها مع سليمان متصرف عسير، لما أتانا جوابه بعد أن قامت عليهم فتنة الطليان يدعونا فيه إلى الوفاق، وأن نكون إخوانًا ونهجر الشقاق، فأجبنا عليه بالترحيب والتسهيل، فأرسلنا بعض خلص أصحابنا إلى أن وصل بقرب معسكرهم، وخاطبه بحضوره لأجل المذاكرة فيما يجمع الشأن، فكان يساجل إلى أن تمكن من أرزاق ومعاش؛ لأنه في ذلك الوقت كان عادمًا، فلما رأى أنه استغنى تكبر وأجاب بالغلظة وإعداد الطوابير الجملة للمخالفين فرجع صاحبنا بذلك.

ثم في هذه المدة مع ما رأيناه من فتك الطليان بهم أخذنا العطف، فأمسكنا كل حركة، وكتبنا لمن في مفرزة «ميدي» إن دهمكم شيء فلكم مناعون، فكان منهم أن محمد علي[٦] مر بطريق القنفدة، وليته لما مر قصر اشتغاله بمصلحة العسكر، بل أخذ يحرق ما وجد في طريقه من بيوت السادات العلماء؛ لأن هذا الرجل أكبر عداوته لأهل الدين؛ لأن ما ناله من الشرف في الأستانة (كان) بأسباب شنقه لعالم في أطنة أيام تنازع وقع بين المسلمين والنصارى هناك، ولما قدم جازان بالعساكر لم يختر لهم «خسته خانه» إلا جامع تلك البلدة، ولا يهمه أن تلوث بالنجاسة، وتعطلت إقامة الجمعة فيه.

وكأنه يظن أن هذه هي الأسباب في ارتزاقه النياشين والرتب من باب «من رزق من شيء فليلزمه»، وهذا هو السبب في تجهيز ما وجهناه من الجند إلى جهة الشام[٧] لأجل مدافعة هذا الطغيان، والمحافظة على مراكز أهل الدين والإيمان.

وقد حصلت المذاكرة بيننا وبين هؤلاء الإخوان في هذه الأحوال إلى أن ساق بنا الكلام إلى مفرزة «ميدي» وأخبرناهم أن الطليان قد ضرب قلاع الدولة ومراكزها من باب المندب إلى جدة، وهد تلك الحصون بمدافعه المُسلَّطة، ولم يبقَ إلا هذه القلعة، مع أن شيخ البلدة التي فيها قد سبقت له جناية مع الطليان بواسطة شهادة سبنوك طال الخلاف بين الترك والطليان فيه وتوقف الأمر على شهادة هذا الشيخ وتهددته الدولة بالشهادة لها فشهد، فإذا قصد الطليان هذه المفرزة لا يقتصر عليها، بل يتعداها إلى تلك البلد؛ لما جناه شيخها عليهم، وسابقًا قد ضربوا هذه البلدة كما عرفته.

ومن المشاهد أن هذه العساكر كجملة من في كل موضع إذا ضرب الطليان المواقع هربوا من مواقعهم تلك إلى محلات العامة، ولم يدافعوا ولا يضرب مدفع واحد، وقد ضُرِبَتْ هذه القلعة من نحو شهر وخرجوا منها كما ذكرنا، وهذا مما أوقع الناس في العجب، فإن الدولة لما عجزت عن إصلاح الداخلية كان يرجى منها حفظ الخارجية أو القيام بالمدافعة عن الرعايا ممن قصدهم بسوء، فعجزت الدولة الآن عن هذا وهذا، فما بقي لهم إلا أن يسعوا الناس بحسن الخلق لو كانوا يعقلون.

ثم إنه قد اشتد الخطب من الطليان بمحاصرتهم للحديدة إلى حالة يُخْشَى معها أن تحتل الحديدة، فتكلمنا مع العسكر الذين في القلعة بأن بقاءهم بها

ضرره على الإسلام والمسلمين؛ لأن الحديدة إذا احتلت يتبعها ملحقاتها، ومن ذلك هذه القلعة، ومن المعلوم حسب أصولهم أنه إذا احتلت الحديدة وجاء المحتلون ببوابيرهم لاستلام هذه النقطة تبعًا للمركز ومعهم الإذن بالتسليم من كبراء الترك، فإن من في هذه النقطة لا يلتفت إلى الإسلام ولا إلى المسلمين ولا يهتمون بأمر الوطن، بل حالًا يعملون الترتيب اللازم في التسليم إلى المحتلين، ولو بطريق الحرب مع أهل الوطن بأن يضربوا من القلاع وتضرب البوابير من الساحل حتى يتصلوا بالمحتلين ويدفعوا لهم موقع الحرب، ويسلموا أهل الوطن إلى الأسر، كما فعلوا في بني غازي، إحدى متصرفيات طرابلس، فإن أهلها عشية احتلال الطليان لما رأوا بوابير الطليان بالساحل أسرعوا إلى مركز الحكومة ليستعدوا للقتال ويودعوا أهاليهم وأموالهم في محل مكين، فمنعهم الأتراك وألزموهم الطمأنينة، فرجعوا إلى بيوتهم، فلما جن الليل لم يشعروا إلا والمتصرفية بأجمعها صارت عساكر طليانية، فقاموا للدفاع ولم يمكن الخروج من المنازل إلا للرجال دون النساء والذرية، وهم الآن تحت قبضة الطليان، واشتهر أن هذه المعاملة من العساكر بأسباب ما أخذه كبراؤهم من الطليان خفية، وبأسباب ذلك استقال الصدر، فتبين أن بقاءهم حينئذ في المواقع الحربية لا للدفاع وحماية الثغور كما هو اللازم لمن يتولى إمارة المسلمين بل للأغراض الفانية، وبيع البلاد للمصلحة الشخصية، فمن ينع الإسلام فلينعهِ من الترك، ومن يندب الدين فليندبه مما لهم من اختلاق الإفك، فلما خاطبناهم في النزول معنا ليبقوا مع العساكر العربية جنبًا بجنب حتى إذا احتلت الحديدة يكون موقع المفرزة الميدية بأيدي المسلمين يؤدون فيه ما أوجب الله عليهم وإن امتنعوا فلا إلزام، وإن أرادوا اللحاق بكبرائهم فلهم ذلك، فأبوا هذا وهذا «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.»

والعجب من هؤلاء الناس يذكرون أننا السبب في تركهم للمدافعة كما روى عنهم السادة الواصلون، فليت شعري من أي وجه؟ وأي قرب بيننا وبينهم في المسافة أن يقولوا نخشى أن نصلى بنارين؛ إذ في الأقل بيننا وبين الحديدة ثمانية أيام، ولو سلم هذا فما يكون جوابهم في احتلال الطليان لطرابلس؟ وما المانع من المدافعة هناك مع أن أهل تلك الجهة من المخلصين للحكومة، بل هم قائمون بالقتال للمحتلين من الآن، ومن العجاب أن الحكومة

قبل أن يحتل المحتلون رفعت الأسلحة والوالي والعسكر إلا شيئًا قليلًا، وبعد ذلك لم تمد المجاهدين ولا بدرهم أو نفر، وفي عهدي أنا عرفناكم سابقًا أن في صبح ليلة خروج الأتراك من جازان وفي اليوم الذي بعده جاءت بوسطة بطريق البحر فوقعت بيد المجاهدين، فإذا بعض رسائلها يحتوي ترجمتها على إعلان حرب إيطاليا لهم، وأنه يلزم مأميرهم هنا العناية برعايا الإيطاليين وحفظهم، فتعجبنا من حسن معاملتهم هذا لمن ناوءوهم بالعداء الأكبر، وإذا حصل منا معاشر المسلمين أدنى شيء معهم قامت القيامة، وبينما نحن في هذا الموضوع؛ إذ ورد كتاب كريم، فتلقيناه بالترحيب والتكريم، وسنوفي كل بحث مما أشرتم إليه حقه إن شاء الله.

أما ما أشرتم إليه من قولكم: «والدولة العثمانية وإن كان أمراؤها كما عرفتم، فإنه عند الشدائد تذهب الأحقاد — إلى أن قلتم — أما ما كان سابقًا مما ذكرتم من تباعد العثمانية عن الصلاح، فإنه لا يغرنا الآن الإنصاف.»

وقد أنصف الغارات من راماها، فلا يخفاكم أي حقد عندنا؟ ولما جاءني كتاب سليمان (باشا) يجنح إلى السلم في وقت قيام الطليان وافقت وأجبت بما صدرت إليكم صورته وأرسلت من أخصاء إخواننا من يقوم بحل هذه المشاكل، كما قد أشرنا لكم في أول الجواب، ولم نلتفت إلى ما سبق منهم من الإبعاد بأنواع المهالك حتى بشق بطون الحوامل، فلما جاء جواب سليمان لذلك الأخ — يعني مندوبه — بالتهديد وإعداد الطوابير للتربية تعجبنا من ذلك وما زلنا نتوقف عن عمل أي حركة رجاء أن يهتدوا إلى الصواب، فما كان بعد ذلك إلا مرور محمد علي (باشا) في شهر ذي الحجة يحرق بيوت السادات والعلماء وأفاضل الناس، كما قد ذكرنا لكم أول الكتاب، فيا ليت شعري! ما نصنع بعد هذا؟ وهل فيه إنصاف أعظم من هذا الإنصاف؟ حتى من كان لنا بالأمس عدوًّا لدودًا أصبحنا نتقرب إليه بالمودة لا لشيء، بل كان حبًّا للصلاح مزيدًا! وهل من العقل بعد ذلك أن نرمي بأنفسنا إليه ولو على المهالك؟ وهل هذا من الدين؟ كلا! وأصدق القائلين يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ثم إن ما أشرتم إليه هو لم يَزِدْ عن كونه من قبلكم، ولم نَدْرِ ما هم عليه؛ إذ لم يَرِدْ من كبرائهم وأعيانهم من تحسن المخاطبة معه في ذلك وفي

كيفية مواصلة الخطاب إلى الأستانة؛ لأن ولاية اليمن صارت الآن منقطعة عن الولاية العثمانية للحيلولة بالقوة الإيطالية.

أما ما أشرتم إليه «أن لو اقترن ما بيننا وبينهم بصلح ما بينكم وبينهم» فاعلم أيها الإمام أني عندما أتلو ذلك أجد خاطري ينكسر مما هنالك؛ لأنه حين أرادوا أن يغتنموا الفرصة فيَّ، وإن كنتم — جزاكم الله خيرًا — كررتم التوسط في الصلح، لكن لا على طريق الشرطية بخلاف الآن لما كان الصلح لمصلحتهم أوفق، فآثرتموهم عليَّ، مع أني الصاحب القديم، والخل الذي هو على العهد إلى الممات مقيم:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
ومنازل في الأرض يألفها الفتى ... وحنينهُ أبدًا لأول منزل

وأما ما ذكرتموه «أن الملل الكفرية — كما عرفنا — فوقت سهام انتقامها على الدين القويم، وفعلت بالمسلمين أقبح الأفاعيل ... إلى آخر ما شرحتموه»، فلا يخفاكم أن هذه الأمة قد أخذت هذه الأزمان الطويلة، وهي في اطمئنان بال، وسكون الأحوال؛ لما كان سلاطين آل عثمان قائمين بحماية الشرع الشريف، ولا مظهر لهم إلا أنهم نواب الأمة الإسلامية في حقوق دينهم الحنيف، ولا شك أن أهل الملل المختلفة لا يتجاسرون على هدم هذه السياسة؛ لأنها تستدعي الثورة العامة بين المسلمين وغيرهم في جميع الأقطار الشاسعة، ولا أضر على الأجانب من هذه الحرب الدينية، وبها كان يتهددهم السلطان السابق عند المشاكل الدولية، فيجنحون إلى الموافقة، فلهذا عشنا وعشتم طول النشأة لم نسمع في الخارج بمشاقة، بل كان في آخر المدة الأخيرة ما رفع الدولة لأعلى مكان؛ حيث ظفرت باليونان، واحتلت عاصمة ملكهم بقوة عظيمة القدر والشأن، فلما جاءت هذه النشأة الأخيرة من الأتراك تظاهروا بالحرية ليرضوا أهل الملل الأخرى، وقد أرسل جنابكم إلينا تلك الرسالة المؤلفة لشيخ الإسلام سري زاده محمد صاحب، ونبهتم — عافاكم الله — على ما فيها من الإلحاد وجزاكم الله خيرًا بتلك الإفادة، فحينئذ حدث أمران: ضج أهل الإسلام من رغبة الأتراك عنهم، وطمع أهل الملل في الأتراك لنفور الجمعية الإسلامية منهم، فأخذوا في انتهاب البلاد منهم، فاستقلت ولاية البلغار،

بعد أن كان ملكهم في زمن السلطان السابق برتبة ياوران، وبيعت ولايتا البوسنة والهرسك علنًا وطرابلس خفية، وصُدِّقَ لفرنسا على تبعية تونس، وحينئذ قامت الأجانب يغار بعضهم من بعض، فمدوا أيديهم إلى احتلال البلاد العثمانية لهذه الأسباب ولغير العثمانية بطريق أولى كتبريز وفاس — كما ذكرتم — مع أن فاس هذه من أعوام قريبة سعى السلطان السابق في استقلالها، فتغيرت في هذه الأيام السياسة الإسلامية من أهلها، فكان ما كان في مسافة ثلاث سنوات، وهذه الرابعة أقبلت فيها تتداعى الشدائد من كل الجهات، وكل فريق يمد يده إلى ما شاء من النواحي المختلفات.

وقد عرفناكم بمنشأ هذه الأحوال، لتعرفوا من هم السبب في محاق البلاد الإسلامية والاضمحلال، فهم الأحق بالملامة والتقريع والتوبيخ وسلب الكرامة.

ويا ليت شعري! ما المراد منا في الرابطة التي أشرتم إليها، فإن كان لقصد التسكين المجرد إلى أن توافق معهم الأمور ثم يثبوا كأن لم يكن بيننا وبينهم صداقة، كما كان بالعام الماضي؛ إذ قدمنا لهم عشرة آلاف عود للسك، وأَمَّنَّا لهم الطرق، وتعهدنا لهم بالإصلاح حتى صاروا دولة حقيقية يروحون ويغدون بكل شرف؛ فما كان منهم إلا تدبير الحيلة في الهجوم للقبض علينا فنجانا الله وآل الأمر إلى ما هم فيه من الإهانة والحيرة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أوَلا توافق الأمور كما هو المنتظر إن لم يستعطفوا خواطر المؤمنين واشتد الحال أن آل إلى سقوط البلاد بأيدي الغير يسلمها الأتراك لهم ولا يلزمنا إلا قبول ما حلوه وأبرموه، فما في هذه إلا إقامة الحجة علينا من الله، وما المعذرة في ذلك المقام الإلهي، وما كان القصد أن نكون نحن وهم شركاء في المواقع بدون خداع في الحال والاستقبال، شركاء في الدفاع عن الدين، شركاء في الرأي حتى نعلم ما يُرَادُ بنا، ونؤدي ما أوجب علينا ربنا، ولا نكون ألعوبة للأتراك يسلموننا إلى الغير متى شاءوا والعياذ بوجه الله، بل نكون على أمن من ذلك كله، فأهلًا بالوفاق وسهلًا.

وفي الحقيقة الحقير إن هو إلا رجل قام بتأييد الله في هذه البرية القفراء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الشريعة التي لا حرز لنا دونها ولا عصمة، إن كنا ممن يحتفلون بتعاليمها الإلهية ويخدمونها.

فقامت هذه النشأة الجديدة من الأتراك، وحشدوا العساكر المصحوبة بالمدمرات والسيوف البواتر، وشاع وذاع أنه صدرت إرادة سلطانية،

وإشارة من لدن الجمعية، باستئصالنا، ولا يعلمون أن الأمر بيد الله، وهو أكرم الأكرمين، لا يضيع من منَّ عليه من بريته، وكساه من الإيمان بحلل كرامته، بل ينصره وينتقم ممن عاداه كما وعد في كتابه العزيز، وعد الله حقًّا، ومن أصدق من الله قيلًا! فقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وقال عز وجل: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإني والله عند هذه الآيات أعلم من أين أُخِذَتْ هذه الدولة، فتداعت عليها الأهوال من كل جانب جملة واحدة على غير أسلوب معروف، ولا تقدير في الحساب مألوف ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾.

فاجأها القهر الإلهي بغتة، وانقطعت في مدافعته كل حيلة، فسبحان القائل ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾، وإني والله لأعلم بدواء تلك العلة، فهل من سبيل إلى أن أكون الطبيب الرباني، ولا تكاد تلبث هذه الدولة ساعة يشفيها الله في جميع الأنحاء، لكن إن رجعت سياستها إلى الصراط المستقيم الرحماني، وقد ذكرنا للسادة الواصلين تفاصيل الأمور وأبدينا لهم ما يصلح في المقام واكتفينا ببيانهم عن شرح ذلك هنا؛ لأن للكلام مقامات طويلة ومباحث مختلفة، كما سيوضحون لكم، وهم من أفضل عباد الله، وله الحمد أن جعل بيننا وبينهم التآليف وخالص الوداد في الله، ومثلهم يقوم بالبيان، وكونوا على يقين أن ما فيه صلاح المسلمين والإسلام وحفظ البلاد بدون خداع فإنا فيه على وفاق، وكذلك اكتفينا ببيانهم في مادة الحدود من «الشرق» إلى «بني جماعة»، وقد تحررت بذلك ورقة بخط العلامة المفضال بدر اللآلي السيد أحمد بن يحيى عامر. هذا وشريف السلام وأسناه يعمكم ومن بالمقام ورحمة الله وبركاته.

الإمضاء

ولم تكن سياسة الاتحاديين مع السيد الإدريسي غير سياستهم مع سائر أمراء العرب، فقد كانت سياسة خداع ونفاق وكذب واعتداء لم يألفها العرب في زمن من

الأزمان، ولكنهم قابلوها من الاتحاديين بالصبر والحكمة واللين للأسباب التي ورد ذكرها في الفصول السابقة، وأشار إليها السيد الإدريسي في كتابه إلى الإمام يحيى، وأهمها رغبتهم في رفع منار الإسلام، والمحافظة على كيانهم القومي. نعم إن فريقًا من أمراء العرب حارب الدولة غير مرة في السنوات الأخيرة، ولكنه حاربها دفاعًا عن نفسه ولأسباب حيوية، كالأسباب التي ذكرها سيادة الإدريسي أو ما هو أهم منها، وكان دائمًا يهادنها أو يصالحها كلما دخلت في مأزق أو خاضت غمار حرب خارجية.

أما الأحزاب العربية فقد أخلصت للاتحاديين إخلاصًا عظيمًا، وكانت أعظم تساهلًا معهم من أمراء العرب في شبه الجزيرة، وأكبر دليل على ذلك ما سبق ذكره عن خطتها وأعمالها وقراراتها وأقوال زعمائها وما سأثبته في هذا الفصل من الكتب السياسية السرية التي تُبُودِلَتْ بين بعض الزعماء وأصحاب الرأي الذين أُعْدِمُوا في سورية والعراق وبعض أصدقائهم السياسيين الذين لم تصل إليهم يد الأشرار السفاحين، وهذه هي الكتب بنصها لم يُحْذَفْ منها إلا أسماء الأحياء، وما ليس له علاقة بالسياسة:

كتب المرحوم الضابط الكبير سليم بك الجزائري إلى أحد أصدقائه السياسيين في ١٥ يناير سنة ١٩١٤ ما نصه:

عزيزي …

لقد أخلصنا للاتحاديين، فلا مجال للشك في إخلاصهم لنا، نعم إن الاتفاق الذي أبرموه مع الزهراوي وعبد الكريم لا يسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج إليه من الإصلاحات وإن زعم فريق من الأصدقاء أنه «كجراب الكردي» يحتوي على كل شيء ولكن ما العمل؟ أيجوز لنا أن نخطئ الزهراوي وننتقده على هذا الاتفاق؟ أنا لست على هذا الرأي؛ لأن الزهراوي لو لم يتفق مع الحكومة لكُنَّا الآن في أشد المآزق حرجًا، فإما أن نقوم بعمل يهدد استقلال الدولة العلية ويؤدي إلى عكس الغاية التي نرمي إليها، وهي نيل حقوقنا من إخواننا الترك ومشاركتهم في كل ما يئول إلى تقوية الدولة وإسعاد سكانها أو أن نخلد إلى السكينة بعد كل هذه «القرقعة» فيهزأ العالم بنا ويحتقرنا الاتحاديون أنفسهم ونصير مثلًا بين الناس.

إن الحال السياسية حرجة جدًّا أيها العزيز، فبقدر ما يسيء الاتحاديون إلينا الآن يجب أن نحسن إليهم حرصًا على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ.

سليم الجزائري

وكتب المرحوم مختار بيهم إلى أحد أصدقائه السياسيين في مضر في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٤؛ أي قبل دخول الدولة العثمانية في الحرب بخمسة أيام فقط ما نصه حرفيًّا:

أخي العزيز

يُخَيَّلُ إليَّ أن الحرب واقعة لا محالة بين الدولة العلية ودول الحلفاء، والأمل عظيم جدًّا بأن تكون حربًا قومية ظافرة تعيض الدولة من الخسارة التي مُنِيَتْ بها في السنوات الأخيرة، وترفع شأن العثمانيين في نظر العالم، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية؛ لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك، وسوف يرى إخواننا الترك ولا سيما الاتحاديون من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم عظم إخلاصنا للعرش العثماني وتفانينا في خدمة الوطن المشترك، ونحن الآن على أحسن ما يُرَامُ مع حزب الحكومة الذي أظهر وطنية عظيمة في هذه الأزمة الشديدة، وسنظل كذلك إن شاء الله إلى الأبد، فكن على ثقة بأن سورية ستكون في إبان الحرب أحسن منها قبلها، فلا يقع ما يكدر من جانب الأهلين ما زلنا أحياء.[٨]

مختار بيهم

وكتب المرحوم عبد الكريم الخليل إلى أحد أصدقائه في ٦ أغسطس سنة ١٩١٤ ما نصه:

أيها العزيز، أنا على وشك السفر إلى سورية؛ لأن التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها دواءً لخطر الحرب العظمى تقضي على كل عثماني مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن ما يُرَامُ، وستكون مهمتي في سورية جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية،

وقد وعدتني الحكومة بأن تشد أزري في هذه المهمة وتجيبني إلى كل المطالب العادلة التي أطلبها منها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من أبنائها، فلنكن كلنا يدًا واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأنًا وأعلى مقامًا.

عبد الكريم الخليل

وقال المرحوم محمد المحمصاني إلى بعض أصدقائه الذين نصحوه بالبقاء في مصر بعد إعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية: «إن الوطن في حاجة إلى كل فرد من أبنائه في هذا الأوان العصيب، فمن الخيانة أن لا نقوم بالواجب علينا نحوه.»

وكتب المرحوم عبد الحميد الزهراوي إلى صديقه الأستاذ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الإسلامية وأحد أركان حزب اللامركزية كتابًا سريًّا مطولًا في ١٦ يناير سنة ١٩١٤، كتب في أعلاه: «مكتوم كله عن كل أحد»، وضمنه كل آرائه السياسية، وأعرب فيه عن ثقته التامة بالاتحاديين ووجوب الإخلاص لهم، فرأيت أن أنشر الكتاب برمته في هذا المقام ليدرك القراء عظم الجناية التي اقترفها الاتحاديون بإعدام هذا الرجل الحسن النية الطيب السريرة الذي عرَّض نفسه لانتقاد أصحابه وحقد أمته عليه رغبة منه في التوفيق بين العرب والترك وإنقاذ الدولة من أعظم مشاكلها الداخلية، وهذا نص الكتاب بعد المقدمة:[٩]

كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى، وكيف تعبنا في ستر الأمر وإيجاد المؤتمر مرونقًا بتوفيق من الله — تعالى — فوق المأمول، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقًا، ثم بعد قليل نفد صبر البيروتيين، فذهبوا إلى بلادهم عن طريق استانبول، وبقيت يا عزيزي وحدي أمثل الفكرة، وبقي خليل زينيه وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وإنما همهما بيروت وحدها لا شريك لها، ولكن لأنهما متعلمان سايراني وسايرتهما وتوادينا جيدًا حتى سفري، ولم يكن مثل هذا التواد ولا ربعه بينهما وبين رفقتهما البيروتيين المسلمين.

لو عجلت تلك الأيام ورجعت على الفور إلى مصر لبقيت المسألة مقطومة بتراء، فيكثر استهزاء الأفراد والجماعات والأقوام بأشخاصنا وبجماعتنا وقومنا، لكن الله — عز وجل — سلمني من هذا، وقدرني على الصبر هناك ممثلًا للفكرة مدة خمسة أشهر — وما هي بالقليلة ولا الكثيرة — ونعمت المدة كانت، وُفِّقْت فيها على كثير، وعظم فيها اختباري لأوروبا، وما أحوجنا إلى مثل هذا الاختبار.

جئت بعد ذلك إلى استانبول لأرى ما جدَّ فيها؛ لأن المعرفة بالقديم لا تغني، والمعرفة عن بعد كثير من مآخذها غير صحيح، وما أضر العلم المبني على مأخذ غير صحيح!

بعد وصولي بقليل عرفت كثيرًا من الأحوال الحاضرة هنا، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر، وكدت أظنني اكتفيت وأحطت كل الإحاطة، ولكن الآن تبين لي أنه لولا الصبر والتأني اللذان مكنني الفاطر — سبحانه — منهما لرجعت بمعرفة غير كافية؛ ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت إحاطتي، وإنما أقول أصبحت يجوز لي أن أفصل وأشرح بشيء من الطمأنينة، وأن تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم في وقته.

الشرح ها هنا يتعلق بثلاثة مواضيع — أو موضوعات: (١) أوروبا والعثمانية (٢) الاتحاديون وغيرهم (٣) رجال الإصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى. وإني أبدأ لكم بالأول لقصر البحث فيه، وأشفع بالثاني، وأخرت الثالث لطوله، وطوَّلته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الإحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه:

أوروبا والعثمانية: لقد كشفت أوروبا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة العثمانية، وقررت التداخل في سائر شئونها، وإنما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم، وليس في أوروبا اليوم موضوع مُقَدَّم على هذا الموضوع، ولا يمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه، والذي أظنه أن الدولة ستبقى بعد ذلك وتعيش أحسن مما كانت عائشة لأن بعض التداخل طب، ولست مغاليًا إذا ذهبت إلى أن الموت أقرب إليها مع عدم التداخل البتة منه مع شيء من ذلك، فإنا إذا قلنا بعدم

التداخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سببًا لإنشاب الحرب عليها، فتُؤْخَذ بداء السكتة دفعة واحدة.

الاتحاديون وغيرهم: الاتحاديون معروفون، فمن غيرهم؟ لا يُوجَدُ الآن حزب سياسي آخر إلا أن يكون خفيًّا، ولم أشم شيئًا من هذا، وحينئذ لا نجد مقابل الاتحاديين إلا جماعات الأجناس كجماعات الروم وجماعات الأرمن وجماعات العرب.

نعرف أن للروم جماعات وللأرمن جماعات، فهل للعرب مثل هذا؟ هلَّم ننظر:

أولًا: الروم كلهم جماعة واحدة يرأسهم البطرك، ولكي لا يستبد ربطوه بمجلسين روحاني وجسماني، وهكذا الأرمن، أما العرب فليس لهم مثل ذلك.

وثانيًا: الروم والأرمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية، وليس للعرب مثل ذلك، اللهم إلا جماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت، إذن غير الاتحاديين هم الروم والأرمن وجماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت.

فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة، وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية، وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف، ويشتهون أن يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية ويودون أن لا يعودوا إلى مثلها بقدر الإمكان، أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الإيمان لأدلة كثيرة ظهرت لي، ولكنني مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم، ويُرْجَى به أن تقوى قابليتهم، فإن شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن إلى هذه الدرجة — كما أشرتم إلى ذلك في كتاب … فإني لا أخطئكم بالتخطئة؛ لأني أجل رأيكم أكثر من رأيي، وإنما أرجو أن يكون في خطأي شيء من البركة، أرجو ذلك من مصداق قوله — سبحانه: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ الله فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم، أما الروم فقد قلوا في المملكة وقصاراهم أن يحافظوا على ما بيدهم من امتيازات البطركية وحق

المبعوثية وسيقل الالتفات إليهم، وأما الأرمن فهم اليوم آلة بيد روسية، وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون، وأما نحن معشر العرب فإن أخاكم الآن يُعْتَبَرُ ممثل جماعتنا، وقد فصلت ما تم على يدي في الكتاب الذي أرسلته إلى الأخ الرفيق في البريد الماضي، وها هنا سأزيد.

رجال الإصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى: ما أظنكم — أستغفر الله — ما أعتقد أنكم في حاجة إلى بيان أن رجال الإصلاح الحقيقيين غير كثيرين، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، وأعني برجال الإصلاح الحقيقيين من جمعوا في موضوع الإصلاح بين صدق النظر وصدق العمل، من كثرت تجاربهم ومرنت رويتهم وصحت عزيمتهم وشهد لهم ماضيهم، من كثر اختلاطهم بمختلف الطبقات، ووقوفهم على متباين النزعات، وصبرهم على متنوع العقبات، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله وكره الفساد الذي يكرهه الله، وامتزجت سيرتهم بأخبار معامع الجهاد الإصلاحي، ومن أشربت أفكارهم فهم معنى الرابطة وأفئدتهم محبتها وتعشقها، فنحن لقلة هؤلاء واقعون أمام حاجتين عظميين؛ الحاجة إلى تكثيرهم، والحاجة إلى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبعيتهم، ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين؛ الأول السبات الذي الأمة فيه، والثاني الجشع الذي أوروبا فيه.

أترك تفصيل هذا الإجمال لحكمتكم، وحسبنا هي في كل موضوع، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لأنكم علقتم الأمل مرارًا على صنف منهم ها هنا.

العرب هنا ثلاثة أصناف: متاجرون، ومتعلمون، ومأمورون. فالصنف الأول لا في العير ولا في النفير من جهة السياسة والإصلاح، ثم هو في غاية القلة، والصنف الثاني أولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم،[١٠] والصنف الثالث أربعة أقسام: الضباط، والمأمورون المنصوبون في بعض الوظائف، والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا، والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا؛ فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك البتة والأولى عدم دخولهم فيها، فإن هذه التجربة القليلة التي

سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا: ذلك أن … ناقم اليوم على الحكومة، فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفًا، وهو لأجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له؛ لأنه على زعمه يؤخر حركات العرب، ولا أدري ما هي حركات العرب وأين تسير وأين ترسي، وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الأولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا،[11] ولكن لا ينجح بحوله — تعالى — ومن جهة أخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح إلى مصالحة أولياء الأمور، وحينئذ يرضى عن كل شيء، فانظر يا عزيزي إلى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا.

وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء، وأما المأمورون المنصوبون فلا هم لهم إلا حفظ المنصب.

وأما طلاب المأموريات فجياع مساكين لا يفهمون من الإصلاح إلا المأمورية، إن جاءت فقد جاء الإصلاح، وإن لم تجئ فقد مُنِعَ الإصلاح، ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم، اللهم إلا أن يكون «فلان وفلان»، وكل ما أخبركم عنه «فلان» وهو سراب بقيعة جاءه أخوكم الظمآن فلم يجده شيئًا، وبعض أولئك الأولاد يحسدون الشاب عبد الكريم، وبعضهم لم يتمكن من إنالتهم إربًا لأبيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلًا، فمن ها هنا أكثروا عليه من قيل وقال، وكله هراء وهواء.

وأما العرب في الجهات الأخرى فهم أهل سورية وأهل العراق وأهل الجزيرة الخلص؛ فالسوريون والعراقيون حضرٌ قد ألفوا الذل وتعودوا الاستخذاء والاستكانة، لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا، لا يهبون ولا يروق لهم أن يوقظوا، وأما أهل الجزيرة الخلص فهم الأهل وقاهم الله الخير وشد سواعدهم، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها مع الحضر على قلة غنائهم، قد فهمت من كتاب الأخ «فلان» كثيرًا واستنبطت كثيرًا، ولو كان في وسع البشر أن

تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكان روحي أوزاعًا على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت، ولكن نظرية الصوفية في هذا الباب لا يمكن تطبيقها.

انظر يا عزيزي أنا لازم لهناك كما تشير ولازم إلى هنا، فإن هنا محل عمل ليس بقليل، فإني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يُعْتَمَدُ عليهم، فإن رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان معجلان وعمل يمشي مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر، فالأول من المعجلين تبشيري بتلغراف عن رضائك خاصة وهو الأهم، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم، والثاني منهما حملك الرفاق على تقديم تلغراف للصدارة يحبذون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارة رقيقة تشويقية، أما الثالث فهو ما بيننا من أمر إيجاد الرجال الذين يُعْتَمَدُ عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الإصلاح العلمي والعملي.

وإن لم ترضَ عن هذا الرأي، فاكتب إليَّ مفصلًا ومبينًا كل جهة من جهات الموضوع، وأنا من عهدت من يدع رأيه أخيرًا إلى رأي وليه.

هذه هي الخلاصة المفصلة، وإليك خلاصة الخلاصة، وهي أن اليأس لا يجوز بحال من الأحوال، ولكن الأمة في كل أطرافها ليست بحالة يُعْتَمَدُ عليها في شيء، وأنه مع هذا لا يجوز إهمالها، وكذا لا يجوز إهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم وحدهم، وأنه لا بد لنا من رجال ها هنا، وأن أكثر ما يتصرف به الرواة من الأخبار غير صحيح، وإني منتظر أمركم بسرعة، وإن شوقي عظيم.

عبد الحميد الزهراوي

فهذه الكتب السياسية السرية ومئات من أمثالها[١٢] تثبت للملأ عظم إخلاص العرب للاتحاديين قبل إعلان الحرب الأوروبية وبعدها، ولكن هذا الإخلاص العظيم لا يظهر بأتم مظاهره إلا بعد دخول الدولة العثمانية في الحرب، فقد تناسى العرب حينئذ كل خلافهم مع الترك وانضموا إليهم قلبًا وقالبًا دفاعًا عن الوطن المشترك، فخاض جنودهم غمار المعارك في العراق والقوقاس والدردنيل والقنال، ومات منهم عشرات الألوف في ميادين القتال واشتركت الأمة العربية مع جميع الشعوب العثمانية في دفع الضرائب

والأموال، بحيث يمكنني أن أقول استنادًا إلى إحصاء رسمي أن ما دفعه العرب من الضرائب والتبرعات الحربية عن طيبة خاطر كان أضعاف ما ضُرِبَ على الأمة التركية وما تبرع به الترك في هذه الحرب.

هذا بعض ما فعله العرب العثمانيون، أما أمراء العرب في شبه الجزيرة وجنوبي العراق وسورية، فقد مدوا إلى الدولة يد المساعدة بإخلاص وتناسوا خلافهم معها، وتطوع عدد كبير من رجالهم في جيشها، وأرسلوا إليها ما تحتاجه من الجمال، وشدوا أزرها في ميادين القتال ولا سيما في العراق والقنال وجهات عدن، وكانوا يعملون بهمة لا تني على خوض غمار الحرب في جانبها بكل ما عندهم من الرجال.

أما الجمعيات العربية فقد حلت كلها بعد إعلان الحرب العثمانية، واتجهت أفكار العرب قاطبة إلى الدفاع عن الدولة وإعلاء شأنها، وبلغت منهم الحماسة أقصى درجاتها، وصار أشدهم كرهًا للاتحاديين أعظمهم غيرة عليهم ورغبة في تأييدهم، فوجه السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الإسلامية وأحد أركان حزب اللامركزية خطابًا إلى مسلمي سورية،[١٣] قال فيه ما نصه:

> ثم أشكر لكم ما أظهرتموه من النجدة والهمة في الإخلاص والطاعة للدولة وبذل الأنفس والأموال والثمرات لها والكف عن طلب الإصلاح منها، وتقديركم الحال الحاضرة قدرها، حتى إنكم ساهمتم في هذا أرقى أمم الأرض التي سكتت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية ... إلخ.

ونشر غيره من رؤساء الدين وزعماء الأحزاب العربية الذين أُعْدِمُوا أو حُكِمَ عليهم بالإعدام في محاكم الاتحاديين بيانات عديدة في هذا المعنى، أثبتت للعالم كله عظم إخلاص العرب للحكومة الاتحادية وعزمهم على بذل كل غالٍ ونفيس في سبيلها.

هوامش

(١) نُشِرَ هذا الكتاب في الجزء الرابع من مجلة المنار، سنة ١٣٣١.

(٢) حذف من هذا المكان ما اعْتِيدَ من الألقاب والسجع.

(٣) أي جعلوا بلاد عسير تابعة لأمير مكة الشريف حسين بن عون.

(٤) هو عزت باشا، قائد حملة اليمن حينئذ، وقد كان القائد العام لجيش الدولة العثمانية في شطلجة.

(٥) هو عزيز بك علي المصري، الذي كان واسطة الصلح بين الإمام والحكومة العثمانية.

(٦) هو محمد علي باشا، والي اليمن وقائدها العام حينئذ.

(٧) هي الحدود الشمالية لعسير، يسمونها جهة الشام.

(٨) كان — رحمه الله — في تلك الأثناء رئيسًا لبلدية بيروت.

(٩) نُشِرَ هذا الكتاب في مجلة المنار الصادرة في أوائل شهر (ذي القعدة سنة ١٣٣٤/سبتمبر سنة ١٩١٦).

(١٠) كُتِبَ هذا الكتاب إثر الخلاف الذي وقع بين الشبيبة والمرحوم الزهراوي بعد قبوله منصب الأعيان. وأشرنا إليه في الفصول السابقة.

(١١) توهم المرحوم الزهراوي ذلك على إثر تهديد بعض الشبان الملكيين والعسكريين له بعد قبوله منصب الأعيان، وقد اعترف — رحمه الله — بخطأه إلى فريق من أبناء العرب في الأستانة بعد كتابة هذا الكتاب بأيام قلائل.

(١٢) سيُنْشَرُ كل ذلك حين سنوح الفرصة.

(١٣) نُشِرَ هذا الخطاب في جريدة الأهرام الغراء في ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٤؛ أي قبل دخول الدولة العثمانية في الحرب.

الفصل السادس

معدات الاتحاديين لمحو الإسلام وسحق العرب

جمعية ترك أوجاغي وفروعها – الفكرة القومية في الترك – الأناشيد الحماسية الوطنية كيف يعلمون الضباط والجيش والأمة – الإسلام في نظر الاتحاديين – أركانه وتعاليمه النبي ﷺ وصحابته وخلفاؤه الراشدون (رضي الله عنهم) الملائكة والأنبياء وكل ما هو مقدس في الإسلام

* * *

ذلك ما كان من أمر العرب، أما الاتحاديون فإنهم بعدما صفا لهم الجو في أوائل سنة ١٩١٤ باتفاقهم مع فريق من زعماء العرب وسكوت الفريق الآخر عن مطالبتهم بتنفيذ بنود الاتفاق انتهزوا الفرصة، وجعلوا يعدون المعدات الهائلة لسحق العرب والقضاء على فكرتهم القومية ومنعهم من العودة ثانية إلى المطالبة بحقوقهم المهضومة، وقد قالوا في أنفسهم إن القومية العربية أساسها الإسلام، وإنها لا تُسْحَقُ ما دام الإسلام قويًّا محترمًا، فعملوا على محو الإسلام أيضًا، وتوسلوا لذلك بكل وسيلة سافلة.

(١) المعول الاتحادي العظيم

أنشأ الاتحاديون جمعية تركية عظيمة سموها جمعية «ترك أوجاغي» — أي طائفة الترك أو العائلة التركية — وجعلوا غايتها محو الإسلام وتتريك العناصر العثمانية، ومركزها في الأستانة، ومصاريفها من تخصيصات وزارتي الأوقاف والداخلية ومن المشيخة الإسلامية أيضًا، وهي منتشرة في كل بلدة وقرية في الأناضول والقوقاس

وتركستان وتراقية ومكدونية، ولها أربعة فروع لكل منها مهمة خاصة به، وهذه الفروع هي:

أولًا: «ترك يوردي» — أي المملكة التركية — ومهمته العناية بالآداب التركية بطرق شتى أهمها «تطهير» اللغة التركية من الكلمات العربية وجعلها لغة مغولية بحتة، وتأليف الكتب القومية بهذه اللغة وتعليمها في المدارس، ونشرها في البلاد التركية، وكتابتها بحروف منفصلة؛ لكي لا يبقى بينها وبين اللغة العربية أقل شبه.

ووظيفة أعضاء جمعية «ترك يوردي» مقاومة كل كاتب تركي أو غير تركي لا يرى رأيهم ولا يعتقد معتقدهم، ونشر الكتب القومية والأناشيد الحماسية بين الترك وتدريسهم التاريخ التوراني القديم، وإفهامهم أن الترك أعظم أمة في العالم اختارتها الأقدار لسيادة الأمم، وقد جرى لهم حوادث عديدة مع فريق من عقلاء الترك أنفسهم كعلي كمال بك والدكتور رضا نور بك ولطفي فكري بك وغيرهم، فاتهموا هؤلاء بالخيانة وتهددوهم بالقتل، وقالوا إن العنصر التركي يتبرأ منهم، وأنهم من أصل يوناني وأنه لا وطنية لهم ولا قومية ولا شرف.

ثانيًا: «ترك درنكي» — أي ثبات الترك — ومهمته بث الفكرة القومية في الترك العثمانيين وغير العثمانيين بشكل لم يسبق له مثيل في تواريخ الأمم.

وأعضاء ترك درنكي من غلاة الاتحاديين وأشدهم كرهًا للعناصر ورغبة في تتريكها والقضاء على الفكرة القومية فيها، وهم على جانب عظيم من الهمة والنشاط، ولكن الغرور أعمى أبصارهم وأسدل ستارًا من الجهل على عقولهم، فكانت ثمرة نشاطهم شرًّا على الدولة ووبالًا.[١]

ثالثًا: «ترك بلكيشي» — أي العلم التركي — ومهمة أعضائه ترجمة الكتب العلمية إلى اللغة التركية القديمة، ونشر هذه اللغة بين الترك، وبث الفكرة القومية التركية في تركستان والقوقاس وربطهما بدولة الاتحاديين برباط سياسي متين.

رابعًا: «ترك كوجي» — أي القوة التركية — ومهمته العناية بصحة الترك، وتقوية أجسامهم، ونشر الألعاب الرياضية بينهم.

ويشترط للدخول في جمعية «ترك أوجاغي» أو في أحد فروعها أن يكون طالب الدخول تركيًّا، وأن يدفع رسمًا شهريًّا، وأن يتعهد ببذل حياته ونشاطه وماله لإعلاء شأن الترك وبسط سيادتهم على الأمم الأخرى، وأن يغير اسمه باسم توراني يُعْرَفُ به

بين أصحابه، فمن كان اسمه أنور مثلًا صار يُعْرَفُ اليوم بين أصحابه باسم ايشلداق — أي أنور بالتركية القديمة — ومن كان اسمه محمدًا أو سليمًا أو حسينًا أو سعيدًا صار اسمه اليوم تيمورًا أو جنكيزًا أو هولاكو أو أوغوز ... إلخ.

وقد بدل كل الضباط الاتحاديين أسماءهم بأسماء تورانية، وكذلك رجال الحكومة الحالية؛ لأنهم كلهم من جمعية «ترك أوجاغي»، ويُعْرَفُونَ بين أصحابهم الترك بأسماء تورانية غير أسمائهم التي يعرفهم بها غير الترك.

وقد أنشأت جمعية ترك أوجاغي وفروعها أندية عديدة في جميع المدن والقرى التركية لتدريس تاريخ الترك القديم، ولا سيما تاريخ هولاكو وأوغوز وجنكيز خان، وبث الفكرة التركية في الأمة التركية، وجعلها تعتقد بتفوقها على الأمم الأخرى في كل شيء، وعينت هذه الجمعية ثلاثة أيام في الأسبوع لتعليم النساء التركيات التاريخ القديم، وبث الفكرة العنصرية فيهن، وحملهن على العناية بتربية أطفالهن تربية قومية تركية، وتبرعت وزارة أوقاف المسلمين أخيرًا بخمسين ألف ليرا عثمانية لجمعية «ترك أوجاغي» لأجل تأليف تواريخ مفصلة لهولاكو وأوغوز وجنكيز وتيمورلنك.

وأندية «ترك أوجاغي» محرم دخولها على غير الترك، فكل من يود أن يدخل إليها يجب عليه أن يظهر للبواب ورقة عليها اسمه ورسمه وتاريخ ولادته، وقد سعت جمعية ترك أوجاغي أخيرًا في ترجمة القرآن الكريم إلى التركية القديمة مع خطبة الجمعة والأدعية الدينية وغيرها مما يوجب الدين الإسلامي تلاوته باللغة العربية، وعزمت على نزع أسماء الصحابة من الجوامع؛ لاعتقادها بأن وجود هذه الأسماء العربية في الجوامع والأماكن المقدسة مما يضعف الفكرة القومية في الترك.

وليست المدارس العثمانية رشدية كانت أو إعدادية، ملكية أو عسكرية؛ إلا فروعًا من فروع جمعية «ترك أوجاغي»، وكذلك جمعية الاتحاد والترقي وجميع الجمعيات السياسية والعلمية والدينية والأدبية التي تأسست في الأستانة والأناضول قبل الحرب الأوروبية وبعدها.

وقد أدخلت الحكومة في برنامج مدارسها العالية، ولا سيما المدرسة الحربية ومدرسة أركان الحرب في الأستانة درس تاريخ التورانين وعلومهم الحربية وآدابهم ونظاماتهم، وعهدت إلى أحمد أغايف بك وأمين بك وخالد ضيا بك وحمد الله بك في إلقاء محاضرات يومية في هذه المواضيع على تلامذة المدارس الحربية ومدارس الحقوق والطب والهندسة وغيرها، وترسيخ الفكرة التركية في نفوسهم، واستعاض التلامذة

في جميع المدارس الابتدائية والإعدادية والعالية من الكتب العصرية بمجموعة «ترك يوردي» — المملكة التركية — وكتاب ترك قليجي — السيف التركي — وتاريخ توران وتاريخ تيمورلنك وهولاكو وجنكيز خان وغيرهم.

وفي كل يوم يجتمع تلامذة المدارس الحربية في ساحات مدارسهم ويستلون سيوفهم وينشدون نشيدهم الوطني الذي يبتدئ بهذه الأبيات:

جنكز خانك بايراغي   آنلي شانلي صانلاندي
آيت خانك بايراغي   حربده بويله اكلاتدي

أي: لقد تموجت أعلام جنكيز خان في جو المجد والشرف، وأرشدتنا أعلام آيت خان إلى نهج هذا الطريق المجيد في الحرب ... إلخ.

والأغرب من هذا كله الدعاء الجديد الذي ألفتهُ جمعية «ترك يوردي»، وجعلت الترك يستعملونه في منازلهم ومدارسهم، وقد قررت أخيرًا استعماله في الجوامع في الأستانة والأناضول، وهذه ترجمته:

أيها الإله القادر على كل شيء، أنعم على الترك بالصحة والعافية، وأحسن إليهم بذئب أبيض،[٢] واشملهم برعاية مولانا السلطان الأعظم.

وأنت يا مملكة توران الجميلة المحبوبة، أرشدينا إلى الطريق المؤدية إليك؛ لأن جدنا أوغوز الكبير ينادينا.

أيها الإله القادر على كل شيء، أنر طريق توران أمامنا، واجعل أمتنا كالورد الناضر، واهدنا الصراط المستقيم.

(٢) الأناشيد الحماسية في الجيش

أما الجيش العثماني فمعظم ضباطه وجنوده الترك من الاتحاديين ومن المنتسبين إلى جمعية ترك أوجاغي، وهم يحتقرون الضباط والجنود من أبناء العناصر العثمانية الأخرى، ولا يسمون الدولة إلا الدولة التركية، وينفرون من تسميتها الدولة العثمانية؛ لاعتقادهم أن البلاد العثمانية غير التركية ليست إلا مستعمرة فتحها الترك بالسيف، وهذا نموذج من الأناشيد الحماسية التي يترنمون بها في الجيش:

بزتركز سن تركلكه امانتسك
هيج قورقمه هب اولورسني ويرميز.

أي: نحن ترك وأنت «يا آسيا» أمانة بيد الترك، فلا تَخْشَيْ شرًّا؛ لأننا نفديك بأرواحنا.

اي ترك كنجي يتيشير ارتق اويومه
قوش كويلينك امدادينه دورمه.

أي: انهض أيها الفتى التركي، فقد نمت طويلًا، وأسرع في الحال إلى إمداد بلاد أجدادك.

جنكيز خانك بايراغي انلي شانلي صانلاندي
ايت خانك بايراغي حربده بويله اكلاتدي.

وقد سبقت ترجمته.

انتقامي آله مزسك تركلك بزه نافله
صوصتره لم بايقوشلري يتيشر بوولوله.

أي: لا يحق لنا أن نُدْعَى أتراكًا ما لم ننتقم من أعدائنا، فلنسكت اليوم عن نعيقه، وليكفنا ما سمعناه من الضجيج والنحيب.

يورييالم ايلري يه اتلايه لم طاغ تبه
باطلاتالم بومبالري جانلر كيرسون يرلره.

أي: هلموا إلى الأمام، فتنبسط أمامكم الجبال والآكام، وتتفجر قنابل الديناميت، وتفغر الأرض فاها لابتلاع النواقيس والأجراس.

آل بايراغك التنده انآلرم يورودي
كوك بايراغك التنده يكي توران بيودي.

أي: لقد سار أجدادنا إلى المجد تحت العلم الأحمر الذي هو مصدر عظمة توران الجديدة.

يورين طاغلر اينسين التون اردوشان ويرسون
آل بايراق! يا نغينلر اوزرنده يوكسلسك.

أي: سيروا لتنبسط الجبال وتكسبنا جيوش التاي[٣] الشرف، فإن مجدنا سيشاد تحت العلم التركي على الأنقاض والحرائق.

بزايغورز دونميز قوناغمز طاغ اوه
تركز بزمدر اسيا تركز تركز هبمز.

أي: نحن سعداء، فلا نرجع عن سيرنا إلى الأمام؛ لأن مسكننا الجبال والبطاح، نحن ترك، وآسيا كلها لنا، نحن أتراك أتراك كلنا.

(٣) كيف يعلمون الأمة؟

هذا نموذج من الأناشيد التركية الوطنية التي يترنم بها الترك في ميادين القتال على مسمع من جنود العرب وضباطهم.

وإلى القراء نموذج من الخطب والدروس التي يلقيها على التلامذة العثمانيين في مدارس الدولة أساتذة من أعضاء جمعية «ترك أوجاغي» عُيِّنُوا برواتب باهظة لتتريك أبناء العناصر العثمانية.

قال أستاذ التربية العسكرية في المدرسة الحربية في الأستانة في درس ألقاه على صف الضباط بعد إعلان الحرب العثمانية بأيام ما خلاصته: «أود أيها السادة أن ألقي عليكم كلمة في غاية الأهمية بمناسبة الحوادث العظيمة التي وقعت في الغرب، فأظهرت لنا معاشر الترك أمورًا لم تخطر في بالنا من قبل وعبرًا ينبغي أن نعتبر بها، فإن البلجيك الصغيرة تجاسرت على محاربة ألمانيا العظيمة ووقفت بجيش لا يزيد على مائة ألف جندي أمام أعظم جيش ذكره تاريخ بني البشر، فحالت دون القضاء على حليفتها فرنسا؛ لذلك لا يسعنا نحن الترك أعداء البلجيك إلا أن نطأطئ رءوسنا إجلالًا لها واحترامًا لجيشها الباسل، ولكن أتعلمون أيها الأصدقاء لماذا وقَّفَت البلجيك تيار الجيش الألماني العظيم؟ وقفته لأنها كانت تحاربه باسم القومية وباسم الوطن،

أوَتعلمون لماذا عظمت فرنسا وإنكلترا وألمانيا وسدن العالم وصرن أعلى أمم الأرض مقامًا وأكثرها ثراءً؟ لأنهن خضن معترك الحياة باسم القومية لا باسم الدين، فعلينا أيها الأعزاء أن نظهر من الآن وصاعدًا أمام العالم بصبغة القومية المقدسة، وأن نضرب بالعصبية الدينية عرض الحائط.

نحن أيها السادة أتراك، وإني لأعجب من تسميتنا عثمانيين، فمن هو عثمان الذي ننتسب إليه؟ إنه تركي جاء من آلتاي واجتاح هذه البلاد بجيشه التركي، فانتسابنا إلى أصله أشرف من انتسابنا إليه، ولقد خُدِعْنَا بجهل أسلافنا في الماضي، فبئس الأسلاف الذين أنسونا قوميتنا. إنكم أيها الأعزاء ستلحقون بالجيش قريبًا، وستكونون أساتذة جنودنا الأبطال، فعلموهم أنهم ترك وأنهم إذا حاربوا العدو من أجل الترك وتحت العلم التركي ينتصرون عليه ويحرزون ما أحرزته البلجيك من المجد والفخر، وتأكدوا أن التركية خير لنا من الإسلام، وأن التعصب للجنسية من أكبر فضائل الهيئة الاجتماعية.»

فأجابه أحد ضباط العرب قائلًا: «تعلم أيها القائد أن للأمم الشرقية تقاليد لا يمكن الإغضاء عنها، وقد حفظت الجنسية العثمانية هذه التقاليد وكفلت سلامة الدولة إلى الآن، فتتريك العناصر العثمانية أو إنكار قوميتها عليها يؤدي إلى اضمحلال الدولة في القريب العاجل، فأنا أحتج على هذا الكلام وأقول بكل صراحة إن الرابطة الإسلامية العثمانية هي الرابطة الوحيدة التي تربطنا بالترك، ولما كنت حضرتك تعلمني الآن أن هذه الدولة دولة تركية، وأن هذا العلم الذي عهدت إلي في الدفاع عنه هو علم تركي؛ أي علم أجنبي عني فقد قضيت على قوتي المعنوية قضاء مبرمًا، وأخمدت كل عواطفي الوطنية؛ لأني أنا وأبناء العرب، وجميع أبناء العناصر غير التركية لا نحارب في جنب الترك إلا لمقاصد متحدة وذبًّا عن حياض الإسلام والعثمانية.»

فأجاب القائد قائلًا: «اعلم أن الحقيقة غير العواطف، وأنك وإن تكن عربيًّا فأنت وعنصرك من تبعة تركيا، ألم يستعمر الترك بلادك؟ ألم يفتحوها بالسيف؟ إن العثمانية التي تتخذها حجة لك هي حيلة اجتماعية يستعملها الضعيف للوصول إلى غايته، أما الدين فلا شأن له في السياسة، وسننهض قريبًا باسم التركية وتحت العلم التركي ونترك الدين جانبًا؛ لأنه من الأمور الشخصية الثنوية، أما أنت وأبناء جنسك فعليكم أن تعرفوا أنكم ترك وأنه ليس في العالم قومية عربية أو وطن عربي.»[٤]

وقد احتج ضباط العرب الذين سمعوا هذه الخطبة إلى وزارة الحربية، وطلبوا منها عزل القائد الأستاذ، فلم تعبأ باحتجاجهم ولا أجابتهم إلى طلبهم، بل اتخذت التدابير

اللازمة للتخلص منهم، فقذفت بهم إلى ميادين القتال، وعرضتهم لرصاص العدو بلا سبب إلا رغبتها في محوهم ليتسنى لها بعد ذلك قتل الفكرة القومية في بلادهم، وهذه الرغبة — رغبة قتل العرب — قديمة العهد في الترك الاتحاديين؛ فقد عثر ضباط العرب سنة ١٩١٢ في بولاير على كتاب من أحد زعماء الاتحاديين إلى قائد اتحادي كبير جاء فيه: «عرضوا العرب لرصاص العدو، واعملوا على التخلص منهم؛ لأن قتلهم يفيدنا. أما الكرد فاحتفظوا بهم؛ لأنهم يلزمون لنا في بلاد الأرمن!»[٥]

(٤) الاتحاديون والإسلام

لقت جمعية «ترك أوجاغي» نجاحًا باهرًا في بث الفكرة القومية في الترك، فلم يَمْضِ على إنشائها بضعة أشهر حتى انخرط في سلكها مئات الألوف من شبان الأستانة وتراقية والأناضول والقوقاس وتركستان، فاتخذها الاتحاديون سلاحًا لهم ومعولًا في يدهم لهدم الإسلام، وعهدوا إلى المعممين من أعضائها في إلقاء الخطب والمحاضرات الدينية في الجوامع والمدارس ونشر كتب الكفر والإلحاد في البلاد التركية من أقصائها إلى أقصائها، وكان من أشهر المعممين الذين عهدوا إليهم في إلقاء الخطب والدروس الدينية في جامع أياصوفيا الشهير رجل أفغاني الأصل اسمه عبيد الله، وهو غير عبيد الله مبعوث آيدين، ولكنه مثله في كره العرب والإسلام، وكان أعظم كتب الإلحاد رواجًا كتاب «قوم جديد» — وهو خلاصة الخطب التي ألقاها عبيد الله المذكور في جامع أياصوفيا — وكتاب «تاريخ المستقبل» لجلال نوري بك، «وصوك كتاب»، ومجلة «اجتهاد» الشهيرة … وغيرها، وإلى القراء نتف من الخطب التي أُلْقِيَتْ في أعظم جوامع الأستانة والكتب التي طُبِعَتْ على نفقة المشيخة الإسلامية ووزارتي الأوقاف والداخلية وَوُزِّعَتْ بالملايين في البلاد التركية:

(٤-١) خيل الترك ورؤساء وأشراف الأمم الأخرى

قال عبيد الله في خطبة ألقاها في جامع أياصوفيا في شهر رمضان المبارك ونُشِرَتْ في صفحة ٩٠ من كتاب قوم جديد ما نصه:

> أوروبا وبتون جهان بشريت ترك حكومت مستقله سنى. شجيع فدا كار برقومك حكومتي اوله رق طانيور ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ آيت جليلة سيله

> تقديس ايديلن ترك اوردوسنك. باركيرلري سزك تقديس ايتديككز أقوام سائرة أشراف. وروؤساسنك شرافت وحرمتندن أضعاف مضاعفة ايله فضله در.

أي: «إن أوروبا وكل العالم المتمدن يعرفون حكومة الترك المستقلة، بأنها حكومة شعب شجاع غيور، وأن خيل الجيش التركي التي نزلت في تقديسها آية ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ هي أعظم شرفًا واحترامًا بأضعاف مضاعفة ممن تقدسونهم من أشراف الأمم الأخرى ورؤسائها»، ومعنى هذه العبارة واضح لا يحتاج إلى بيان، فإن الترك لا يقدسون من أشراف ورؤساء الأمم الأخرى إلا النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وأئمة آل البيت الطاهرين عند العرب.

(٤-٢) رأي الاتحاديين في الحرمين الشريفين

وجاء في كتاب قوم جديد صفحة ٨٦ ما نصه عن الحرمين الشريفين وحج بيت الله الحرام:

> ما دام كه حرمين شريفين ترك خلافت اسلاميه سنك. نفوذ وقوت قاطعة وحافظة سي التنده تماميله مصون دكلدر اوحالده. مقامات مشار اليها نك شرف وحرمتي ده خلافتك تناقص نفوذ. وقدرتي نسبتنده تناقص ايتدي، بوندن جيقه جك نتيجة شودركي. بوكوندن اعتبارًا شرعًا خلافت اسلامية نك تحت إدارة ونفوذ نده. اولمسي لازم كلن أو مقامات مقدسة برًّا وبالخاصة نصارى ودشمن. دوننمالريك مهابتي تحتنده بحرًا تهلكه يه معروضدر، أو تهلكه يي. دفع ورفع ايده جك دهادهشتلي دوننمالر اوردولر احضار واعداد. ايتمدكجه حجك اداسي فرض دكلدر، كيدنلر ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ﴾ إلخ. آيت جليله سيله خطاب بيور يلان عتابه كرفتار اولانلردندر، زيرا. حرمينك شرافتي شرافت ذاتية دكلدر اولجه ديد كمزكبي شرافت. مكان بالمكيندر اومكين دولت عثمانية در.

أي: «ما دامت مقامات الحرمين الشريفين ليست مصونة كما ينبغي بنفوذ خلافة الترك الإسلامية وقوتها القاطعة والحافظة، فإن شرف المقامات المذكورة وحرمتها

يتناقصان بنسبة تناقص نفوذ الخلافة وقدرتها، ونتيجة ذلك أن تلك المقامات المقدسة التي يجب أن تكون تحت إدارة الخلافة التركية ونفوذها هي معرضة من جهة البر، ولا سيما من البحر إلى أساطيل النصارى والأعداء؛ ولذلك لا يكون الحج فرضًا على المسلمين قبل أن تنشئ الدولة أساطيل وجيوشًا أعظم من أساطيل الأعداء وجيوشهم لدفع أخطارها، أما الذين يذهبون إلى الحج فإنهم يقعون تحت طائلة الملام في قوله — تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ﴾ إلخ؛ لأن شرف الحرمين غير قائم بذاتهما، بل هو كما قلنا قبلًا من قبيل شرف المكان بساكنه، وهذا الساكن الذي به شرف الحرمين الشريفين هو الدولة.»

(٤-٣) رأي الاتحاديين في الخلفاء الراشدين

وقال عبيد الله من خطبة ألقاها في جامع أياصوفيا، ونُشِرَتْ في كتاب قوم جديد في صفحة ٨٩ ما نصه:

> بونقدر جهالت نه مرتبهِ غفلت دركه جامعلركزه خلفاي. عربك اسملريني اصارصكزده برجوق أحاديث نبوية ايله تقديس. بيورلمش اولان خلفاي تركدن هيج برينك اسمنى حرمتله ياد. ايتمز سكز خطبه ده خلفاي ترك اسمنى ذكر اولنوركن مقام. تذليل وتنزيلده براياق اشاغي اينرسكز جمعه نمازنده آخر. ظهر ديه رك برده نماز ضم ايدرسكز. بونلرهب سياسةً سزك تنزيل واعتباريكز ايجون محدث. ومبدع شيلردر. دهاسي وار: قومكز برقوم مقدس ومبجل اولديغي حالده أقوام. سائره دن عبد القادر كيلانيلر شيخ بدويلر وشيخ فلان وفلانلرك. تقديسي وأهل جنت منكر ونكير وملائكه وتاجناب حقه قدر. هب عربجه تكلم ايتملرى أول شام آخر شام كبي سوزلره بتون. تركلرك قائديرلسي قوم عربك أيجنده برمهدى ظهور أيده جكنه. اعتقادله اكا انتظار اولنمه سي ودهانيجه نيجه خرافات …

أي: «ما هذا الجهل وما هذه الغفلة التي استولت عليكم؟! تعلقون أسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم — أي أسماء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم — ولا تذكرون بالاحترام اسمًا من أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة، وإذا ذُكِرَ في الخطبة اسم الخليفة التركي ينزل الخطيب درجة من درجات

المنبر تنزيلًا لمقاله وتذليلًا له، ثم تزيدون ركعتين يوم الجمعة باسم «آخر ظهر»، فكل هذا مبتدع ومحدث للحط من شأنكم سياسة، ولم تقف الحال بكم عند ذلك، بل تركتم أبناء قومكم المقدسين المبجلين وصرتم تقدسون عبد القادر الكيلاني والشيخ البدوي والشيخ الفلاني، وتدعون أن الله وملائكته حتى الموكلين منهم بعذاب القبر منكر ونكير يتكلمون اللغة العربية، وتقولون دائمًا: «أوله شام وآخره شام»، وتسعون لتضليل الترك وإقناعهم بأنه سيخرج من العرب مهدي … إلى غير ذلك من الخرافات.»

(٤-٤) الخضر والملائكة والأولياء في نظر الاتحاديين

وخطب عبيد الله في جامع أياصوفيا في شهر رمضان المبارك خطبة في هذا الموضوع نُشِرَتْ في كتاب «قوم جديد» صفحة ٨٨ فيها ما نصه:

> شاشارم عقلكزه واعتقاد باطلكزه كي قومكزدن اولان. ترك اوغلي ترك جليل الشان بر حكمداريكز بوبلده وجامعي فتح. ايتمزدن أول خضر نرده ايمشكه كلوب بنايي قيله يه جويرمه مش ده. حضرت فاتح ضبط ايتدكدن صكره بوجامعه كيره بيلمش. حضرت فاتح — صلى الله عليه وعلى أصحابه وسلم — كبي قوي الشوكت. برحكمداري تقديس ايتمزسكزده موهوم ومخيل خضر لره إسناد. حرمت ايلرسكز، بونك كبي ادرنه ده اسكي جامعده هر صباح. نمازي اثناسنده خضرك بولنديغنه خلقجه بر اعتقاد واردر. اردوي إسلام غلوب أولوب ده بلغارلر ايجري كيردكلري زمان. اوخضر نريه قاجمش؟ بيكلرجه اوليا وخضرلر وملكلر عسكر دن. اول قاجمد يلرمي؟ كفاره قارشونه ايجون طورمديلر؟ أحد محاربه سنده. فن جريجه مهم أولان بر نقطة نك تركني متعاقب مليونلرجه. ملائكة نك قوة معنوية سي لاحق أيكن اسلام اردوسي مغلوب. ورسول كبريا — صلى الله تعالى عليه وسلم — افندمز مجروح اولديغي. وايكي محارب بيننده غالبيت ومغلوبيتك مادي قوته منوط وجناب. حق بيطرف اولديغي آيات وأحاديث نبوية ايله مثبت دكلميدر؟

أي: «يا للحيرة من عقلكم واعتقاداتكم الباطلة! أين كان الخضر قبل أن يفتح هذه البلد وهذا الجامع سلطان جليل الشأن تركي ابن تركي من قومكم المبجلين؟ لماذا لم يأتِ الخضر قبله، فيدير الكنيسة إلى القبلة، ولماذا لم يَسْتَطِعْ أن يدخل هذا الجامع إلا بعدما دخله السلطان الفاتح؟ إنكم تتركون تقديس سلطان قوي الشوكة كحضرة الفاتح — صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلم (كذا)، وتوجهون احترامكم لشخص خيالي موهوم كالخضر، «وكذلك العامة في أدرنة» يعتقدون أن الخضر يحضر صلاة الصبح كل يوم في الجامع القديم هناك، فإلى أين هرب هذا الخضر لما انغلبت عساكر الدولة ودخل البلغاريون أدرنة؟ ألم ينهزم الخضر وألوف من الأولياء والملائكة قبل أن تنهزم عساكرنا؟ لماذا لم يقف هؤلاء الملائكة والأولياء في وجه الكفار؟ ألم يُغْلَبْ جيش الإسلام ويُجْرَح الرسول — عليه الصلاة والسلام — في غزوة أحد لأنهم أهملوا نقطة مهمة من فن الحرب مع وجود قوة الملايين من الملائكة؟ أليس ثابتًا في الآيات والأحاديث النبوية أن الانتصار والانخذال منوطان بالقوة المادية، وأن المولى — سبحانه وتعالى — لا شأن له في ذلك؟»

(٤-٥) أركان الإسلام عند الاتحاديين

ولم يقف الاتحاديون في كفرهم وإلحادهم عند هذا الحد، بل حاولوا هدم الإسلام من أركانه، فصرحوا في كتابهم القومي الشهير «قوم جديد» بما يلي — في صفحة ٥١ و٥٢:

> قوم جديد أحكام دينية دن اولان صوم وصلات وحج وزكات وكلمة. شهادتي حاشا انكار ايتمزآ كلرده متمسكدر فقط آكلري أركان. دين عدايتميوب قوم جديدك أحكام آياتيه وأحاديثيه دن جيقارديغي. أركان دين شونلردر أولًا: عقل، ثانيًا: كلمة شهادت، ثالثًا: أخلاق حسنة. رابعًا: مالًا وبدنًا جهاد وحرب، خامسًا: خلافت معظمه عثمانيه. سنجاغي التنده اتحاد واتفاق ايله تحصيل لوازم حربدر.

أي: «إن النشء الجديد — الشبيبة التركية التي تتألف من الاتحاديين وأعضاء جمعية ترك أوجاغي وعشرات الألوف من غلاة الترك — لا ينكر من أحكام الدين الصوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة، بل يتمسك بها، ولكنه لا يعدها من أركان الدين التي استخرجها النشء الجديد من أحكام القرآن والأحاديث وهذه هي،

أولًا: العقل، ثانيًا: كلمة الشهادة، ثالثًا: الأخلاق الحسنة، رابعًا: الجهاد والحرب مالًا وبدنًا، خامسًا: السعي لإعداد لوازم الحرب بالاتحاد والاتفاق تحت راية الخلافة المعظمة العثمانية.»

(٤-٦) آراء الاتحاديين في الجوامع والأماكن المقدسة

وجاء في كتاب «قوم جديد» في صفحة ١٩ ما نصه:

> ملت اسلامده اتحادي محافظة مقصد علو يسيله نبي ذيشان. أفنديمز خطوه بخطوه محله بمحله جامع بناسنه مساعده ويرلمزدى. ويكديكرينه يقين أولان برقاج قرية يه بر جامع كفايت ايديورلردي.

أي: «كان النبي ﷺ يمنع بناء المساجد المتقاربة وفي كل محلة، وكان يرى أن المسجد الواحد يكفي لبضع قرى؛ وذلك بقصد المحافظة على الاتحاد في الملة الإسلامية.»
وجاء في صفحة ١٤ منه ما نصه:

> مركز خلافتده سلاطين جامعلرندن ما عدا سني وتكيه لري. بر طرف ايدره ك مصارف واقعه لريني لوازم عسكرية يه تخصيص اولادر.

أي: «الأولى بنا أن نعطل المساجد والتكايا الموجودة في مركز الخلافة ما عدا المساجد التي بناها السلاطين، وأن نخصص نفقاتها للوازم العسكرية.»

(٤-٧) الاتحاديون وترجمة القرآن

وجاء في صفحة ١٥ من كتاب قوم جديد ما نصه:

> كجنلرده سياسي غزته لردن برنده عموم تركياده لسان عربك. تعلم وتعممنه أهميت ويرملي ايمش كه ملت هيج أولمزسه جمعه كونلري. قرائت ايديلن خطبه لري آكلايه بيلسون دينيليوردي. بوسوزده بلاهت اثريدر. خطبه يى آكلاتمق ايجون بتون. تركلره عربجه يى اوكرتمكدن ايسه خطبه يى تركجه ايراد ايتمك. قولاي برشئ تصور ايديلورمي؟ ذاتًا أمام أعظم مذهبنجه قرآن وحديث وخطبة يى ترجمه جائزدر.

أي: «جاء في إحدى الجرائد السياسية من مدة أنه يجب الاهتمام بتعليم اللسان العربي وتعميمه في كل تركيا؛ حتى تستطيع الأمة أن تفهم خطبة الجمعة على الأقل.

وهذا القول أيضًا أثر من آثار البلاهة؛ لأنه بدلًا من تعليم اللغة العربية يوجد شيء آخر وهو إلقاء خطبة الجمعة باللغة التركية، فهل يتصور العقل شيئًا أسهل من هذا؟ لا سيما وأن الإمام أبا حنيفة أجاز ترجمة القرآن والحديث والخطبة؟!»

(٤-٨) الاتحاديون وأركان الدين والمذاهب والكتب الفقهية

وجاء في كتاب قوم جديد في صحيفتي ٣٨ و٣٩ ما نصه:

> أي امت اسلاميه باقيكز آيت كريمة نه خبر ويرييور ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ﴾ الآية، ايشته بو آيت كريمه دن صراحة مستبان اولوركه خلاف قرآن وحديث وخلاف. حقيقت اسلام جبين جاهل ذليل مسكين بر (قوم عتيق) واردر. بو قوم اعتقادات دينيه وسياسيه يه خلاف قرآن اوله رق حرب. ولوازم حرب وحسن أخلاقه علوم وفنون حكمت وتجارت وصنايع وثروت وسياست وسائر آدميت وبشريتك موجب شان وشرفي اولان كمالات وترقياته اعتبار واعتقاد ايتمز بوكبي كمالا تدن محروم اولد قلري جهتله دائمًا مغلوب ومقهور اولو رلر، ويومًا فيومًا ديندن ارتداد اوزره درلر. تدريجًا خرستيانديننه كيررلر. بونلر جناب واجد الوجود حضرتلرينك باشليجه أمر بيورديغي شيلردن بيكلرجه سني هيج قاله آلميه رق أركان ديني يالكزبش شيئه يعني صوم صلاة حج زكاة وكلمة شهادته حصر ايدرلر وكافة معاملات. وحركاتده أوامر قرآنيه وأحاديث نبويه خلافنده أولسه دخي كنديلرينه بر كوي. حلبي. شافعي. كنز. منية المصلي. مالكي. فتاوي. حنبلي ... إلخ، كبى بر طاقم كتابلري دستور العمل اتخاذ. ايدرلر، بوكتابلر اختلافات كثيرة نفاق وشقاق ومنافرات ايله. مملودر، بونلر له اجراى عمل غير جائزدر.

أي: «أيها الأمة الإسلامية، انظري ماذا ورد في الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ﴾ الآية، وظاهر من صريح هذه الآية الكريمة أنه وُجِدَ قوم عتيق جبان جاهل ذليل مسكين يخالف القرآن والحديث وحقيقة الإسلام، وهذا القوم لا يعتقد الاعتقادات الدينية والسياسية، وأنه خلافًا للقرآن لا يحترم الحرب ولوازمها وحسن الأخلاق والعلوم وفنون الحكمة والتجارة والصناعة والثروة والسياسة، وكل الكمالات والترقيات التي ترفع شأن البشر وتشرف الإنسانية، ولأنهم محرومون من هذه الكمالات تراهم دائمًا مغلوبين مقهورين، وهم يرتدون عن الدين يومًا بعد يوم، ويدخلون في دين النصرانية بالتدريج، وأنهم لا يهتمون بألوف الأشياء الأولية التي أمر الله — تعالى — بها، ويرون أن أركان الدين خمسة أشياء؛ وهي: الصوم، والصلاة، والحج، والزكاة، وكلمة الشهادة، دون غيرها. وفي كل معاملاتهم وحركاتهم جعلوا دستور العمل كتب البركوي والحلبي والشافعي والكنزومنية المصلى والملكي والفتاوى والحنبلي ... إلخ، وإن خالفت هذه الكتب الأوامر القرآنية والأحاديث النبوية، وأن هذه الكتب مملوءة في الواقع بالاختلافات الكثيرة والنفاق والشقاق والتنافر، ولا يجوز العمل بها.»

(٤-٩) الاتحاديون يفتون بقتل الأمة

وخطب الشيخ عبيد الله في جامع أياصوفيا في أوائل شهر رمضان المبارك، فقال ما ترجمته — نقلًا عن كتاب «قوم جديد» صفحة ٢٥:

> وهنا أكرر ما قلته آنفًا من أن جميع الناس، ويُسْتَثْنَى منهم الفقير المعدم والأعرج والأعور فقط، ويدخل بينهم المشايخ الذين يدعون أنهم ورثة النبي، والمدرسون، والمفتون، والقضاة، ومشايخ الطرق، والدراويش، والتجار، والصناع، والحاصل جميع الناس؛ أصبحوا في حكم القرآن المجيد مرتدين ومن زمرة المنافقين، ومن ثم وجب قتلهم؛ لأنهم تعمدوا ترك الجهاد بالمال والنفس الثابت بوجود آلاف من الآيات البينات ...

إلى أن قال:

ويتوقف تجديد إيمان هؤلاء أولًا على الاشتراك بدنًا بالحرب، وثانيًا على إعطاء نصف ما يمتلكونه إلى دار الخلافة التركية إذا كانوا من أصحاب الغنى والأموال؛ ليتسنى لرجال الترك الانتقام من أعدائهم في الداخل والخارج ونزع البلاد التي انتزعوها من أيديهم، وإعادة ذكر كلمة «الله» إلى مساجدنا وجوامعنا، وإذا لم يفعلوا هكذا؛ أي إذا لم يدفعوا نصف ما يمتلكونه للدولة، فلا يُقْبَل منهم تجديد الإيمان؛ فيُحْشَرُونَ وهم مرتدون وكفرة، ويلحقون بأهل جهنم. وهذا لا بد منه، ولو قرأوا في اليوم مائة ألف مرة «آمنت بالله …» ولو صلوا الليل والنهار، ولو كانوا من الذين صلوا وراء النبي، ولو حجوا بيت الله الحرام مائة ألف مرة، ولو كانوا بدرجة الإمام الأعظم من العلم أو بدرجة الغوث عبد القادر الكيلاني من القطبية.

وقال أيضًا في صفحة ٢٧:

إن بعض المشايخ والحفاظ والحجاج في الأستانة وكثيرين ممن يتبعونهم وكلهم من الذين يجرؤون على ارتكاب أنواع المنكرات؛ اشتغلوا بالكتب، كالحمير التي تحمل التوراة، فتركوا الجهاد، والبعض منهم فسروا الآيات والأحاديث حسب ما تقتضيه منافعهم، وللحصول على غرض دنيوي، فلعنة الله على أمثال هؤلاء الحفاظ الذين يقرأون القرآن بالدراهم، وعلى المنافقين الذين تسلطوا بالاشتراك مع أعداء الدين على فرقة الاتحاد والترقي التي هي في الحقيقة الفرقة المحاربة والساعية لاتحاد الإسلام، والمجاهدة في سبيل تشييد قوى الإسلام، وبالنتيجة لعنة الله على أولئك الذين سلكوا طرق الدسائس والتغفيل والتزوير لمنع الذين كانوا يريدون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لعنة الله عليهم وعلى آلهم وأقوالهم وعلى تآليفهم ومصنفاتهم واعتقاداتهم أجمعين.

فكل الذين ثبتوا في الصوم والصلاة والحج، وأعرضوا اليوم عن الجهاد المفروض مالًا وبدنًا أصبحوا أعداء رسول الله ومن أكبر المنافقين.

(٤-١٠) رأي الاتحاديين في المسلمين

وبعدما أفتى الخطيب المحترم بقتل «جميع الناس» لأنهم تعمدوا ترك الجهاد بالمال والنفس في صفوف الاتحاديين؛ استطرد في الكلام إلى جميع العناصر الإسلامية، فقال ما ترجمته:

> إن مَن لا يشترك من رعايا الدولة الإسلامية العثمانية الثابتة خلافتها بالنص القاطع! من العرب أو التتار أو الألبان أو أبناء مكة واليمن، والحاصل جميع الأقوام المختلفة، إذا لم يشتركوا مالًا وبدنًا ونقدًا بالجهاد الذي هو أعظم العبادات في صفوف حضرات عبد الرحيم وجمال ورضا وشكري وبكر وجاريد ورءوف وأنور وعزت وطلعت وأمثالهم من أبناء الترك الذين هم أولياء الله — صلى الله تعالى عليهم وعلى آلهم وأصحابهم وقدس الله أسرارهم؛ يكونون في صف المرتدين عن الدين والمعتنقين طوعًا دين الصليب الباطل، ومن هذا القبيل الأرناءود، فإنهم ارتدوا عن الإسلام؛ إما لاستعمالهم السلاح ضد الجنود التركية مشتركين مع الكفار، أو لإضعاف قوة الجيش التركي بفرارهم من ساحات القتال؛ فسببوا بذلك انهزام الترك وأصبحوا من الكفرة، ومن هذا القبيل أيضًا المصريون والهنود والبخاريون والتتار الروسيون وسكان فاس وتونس والجزائر وأهل الحجاز واليمن، ولم يكتفِ قسم من العثمانيين الأتراك بذلك، بل إنهم اتفقوا مع قوزميدي وبوشو والبطركخانة الرومية، وأعانوا دين الصليب، وأعلنوا العصيان سمعًا وطوعًا على الإسلام، وأقاموا الدنيا على أهل الإيمان.

(٤-١١) السياسة والشريعة في نظر الاتحاديين

وجاء في الكتاب عينه في صفحة ٥٦ و٥٧ ما ترجمته:

> يجب أن تقرأ الخطب أيام الجمعة والأعياد باللغة التركية، ثم تُقَرَّر خطبة كل جمعة بتلقين من الحكومة تتضمن الأحوال السياسية، ويجب أيضًا أن تُقْدَّمَ الأمور السياسية في بعض الأحوال على الأمور الشرعية، ولو لم تكن منطبقة على الأحكام الشرعية! فتُعَطَّل مؤقتًا الأمور الشرعية. ويوجد جواز

شرعي للعمل هكذا، بدليل وضع النبي توقيعه على عهدة الصلح في وقعة الحديبية مجردًا من ألقاب ونعوت النبوة حسب طلب كفار قريش، وكما تقتضيه الأحوال، ويوجبه الزمان، وكذلك الآيات الناسخة والمنسوخة هي من مقتضيات السياسة.

(٤-١٢) تكفير غير الاتحاديين

وجاء في إحدى الخطب التي ألقاها الشيخ عبيد الله في هذا الموضوع ما ترجمته — نقلًا عن كتاب «قوم جديد» صفحة ٧٠ و٧١:

> كثير من المسلمين حتى من علمائهم ومشايخهم أثبتوا في الحرب البلقانية أنهم ارتدوا عن دينهم؛ لأنهم دخلوا في حزب الحرية والائتلاف، واتفقوا مع البطركخانة لأجل الدراهم والمنافع. ومن هذا القبيل أيضًا الضباط والجنود والمعممون الذين فروا من ساحات القتال، فهؤلاء ليسوا مسلمين، بل هم منافقون ومرتدون عن دينهم، أما المسلمون الحقيقيون فهم الذين حاربوا في طرابلس الغرب وحرب البلقان تحت إمرة أنور ورضا وأسعد وجاويد ورءوف — صلى الله تعالى عليهم — (كذا)، وبقية رجال جمعية الاتحاد والترقي المقدسة الذين لم يولوا ظهورهم إلى العدو، بل داوموا في جهادهم في سبيل الله، فهؤلاء هم المسلمون الحقيقون، وقد كان عدد الذين ينتمون إلى جمعية الاتحاد والترقي في هذه الحرب لا يتجاوز مائة ألف، أما الباقون فإنهم كانوا من المرتدين المنتمين إلى الائتلاف (أي حزب الحرية والائتلاف) والبطركخانات.

هذا نموذج من الخطب والكتب الدينية التي أُلْقِيَتْ في جوامع الأستانة، ووُزِّعَتْ مجانًا بالملايين في الأناضول والقوقاس وتركستان، أما كتاب «قوم جديد» فقد طُبِعَ بمطبعة شمس بالأستانة على نفقة الحكومة الاتحادية، وتضمن خلاصة آرائها في الدين الإسلامي المبين. فليتدبره المسلمون الحقيقيون.

هوامش

(١) بلغ منهم الغرور مبلغًا لا يتصوره العقل، فبينما كانت جيوش البلقانيين أمام شطلجة تهدد كيان الدولة كان أحدهم — أحمد أغايف بك — ينشئ سلسلة مقالات في جريدة تصوير أفكار جاء فيها ما ترجمته: «يجب أن تهتم تركيا بشئون إيران أعظم اهتمام، لأن إيران طريقنا إلى الهند والصين!»

(٢) الذئب الأبيض إله من آلهة الترك الأقدمين، وقد كان شعارًا لهم أيضًا.

(٣) اسم لجبل «آلتون طاغ» الذي يعده الترك التورانيون بلادهم الأصلية.

(٤) جرت هذه المناقشة على مسمع مئات من ضباط العرب في المدرسة الحربية في الأستانة، وقد نقلها إلينا غير واحد منهم، فعربناها للقراء.

(٥) نُشِرَ هذا الكتاب في حينه في معظم الصحف العربية.

الفصل السابع

تفاقم الخطب

الاتحاديون وأقوالهم وخططهم – جمال باشا السفاح – نكبة العرب – بيان جمال باشا تهم الاتحاديين – رد زعماء العرب – سورية التعسة

* * *

قال أحد عظماء الترك: «إن لم نعامل العرب كما نريد عاملونا بما نستحق.» فذهب قوله مثلًا.

وألف «جلال نوري بك» الكاتب التركي الشهير كتابًا عنوانه «تاريخ المستقبل» جاء فيه:

> إن المصلحة تقضي على حكومة الأستانة بإكراه السوريين على ترك أوطانهم، وأن بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين، ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية؛ لأن النشء العربي الحديث صار يشعر اليوم بعصبية جنسية، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن.

وقال أحمد شريف بك في جريدة طنين:

> لا يزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلًا تامًّا، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك، فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال أن ينسيهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم، فإذا أهمل هذا الواجب

كان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه؛ لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فإنهم سيعملون عاجلًا أو آجلًا على استرجاع مجدهم الضائع وتشييد دولة عربية جديدة على أنقاض دولة الترك.

هذه هي آراء الاتحاديين بالأمة العربية كما صرح بها فريق من زعمائهم، وهذه هي الغاية التي وضعوها نصب أعينهم منذ تقلدوا زمام الأحكام في البلاد العثمانية، وقد أدرك العرب مصيرهم من ذلك الحين، وعلموا أن الاتحاديين قرروا حسم المسألة العربية حسمًا نهائيًّا باتًّا بالطريقة التي ألفوها منهم، وهي مداواة العلل الاجتماعية بالسيف والمحافظة على سلامة دولة الترك ببتر الأعضاء التي يخشون أن يتطرق الفساد إليها، فنشأ عن ذلك أن العناصر العثمانية التي عمل الاتحاديون على سحقها واستئصالها لمت شعثها وجمعت كلمتها واستعدت للدفاع عن كيانها شأن كل ذي حياة في الوجود، واقتفى العرب أثر تلك العناصر، فألفوا الجمعيات التي أشرنا إلى بعضها في الفصول السابقة، وكان من شدة إخلاصها للدولة العثمانية ما أدى إلى ذلك الاتفاق المشئوم الذي أبرمه المرحوم الزهراوي مع عصبة الاتحاديين.

على أن تلك العصبة السفاحة لم تكن لتعدل عن الخطة التي قررت اتباعها مع العرب مهما أخلصوا لها، وما تظاهرها بالميل إلى بعض زعمائهم في بدء الأمر إلا خدعة قصدت منها اكتساب الوقت لإعداد ما ينقصها من المعدات لسحق الأمة العربية والتربص لأحسن فرصة تمكنها من ضرب العرب ضربة قاضية.

أُعْلِنَتْ الحرب الأوروبية في أوائل أغسطس سنة ١٩١٤، فقابلها الاتحاديون بحماسة عظيمة لا لثقتهم بانتصار ألمانيا التي قرروا خوض غمار الحرب في جانبها، بل لأنهم رأوا في انشغال الدول الأوروبية عنهم واهتمام الرأي المتمدن العام بسواهم خير فرصة ينتهزونها لتحقيق آمالهم وتنفيذ الخطة التي رسموها من زمن بعيد، فأعلنوا التعبئة العامة في البلاد العثمانية وجعلوا يقربون أحرار العرب منهم ويعينون زعماءهم وأدباءهم في أسمى المناصب الملكية والعسكرية ليكسبوا ثقة الأمة العربية بهم فتطمئن إليهم ولا تحتاط لهم، فينفذون خطتهم فيها على أهون سبيل.

وهذا ما وقع فعلًا، فإن الاتحاديين عينوا في بدء الحرب الأوروبية الفريق زكي باشا الحلبي — وهو من كبار ضباط العرب — قائدًا على الجيوش التي كانت مرابطة في سورية، وجعلوا معظم أعوانه ومساعديه والجنود التي كان يقودها من أبناء العرب،

وعاملوا السوريين والعراقيين أحسن معاملة، فقلدوهم المناصب، وتظاهروا بالإخلاص لهم، وقالوا إنهم سيعملون معهم يدًا واحدة للدفاع عن كيان الدولة المشتركة بينهم، فصدق العرب هذه الأكاذيب، واندفعوا بعامل الوطنية إلى شد أزر الاتحاديين، وأجمعوا على وجوب تأييدهم وبذل كل غال ونفيس في سبيلهم، فخاض جنودهم غمار المعارك في معظم ميادين القتال، وأبلوا بلاءً حسنًا في القوقاس والعراق والدردنيل، وألغوا جمعياتهم وأحزابهم السياسية، وتناسوا كل المنازعات الداخلية، ودفعوا في سبعة أشهر من الضرائب والإعانات الحربية أضعاف ما ضُرِبَ على الأمة التركية وما تبرع به الترك منذ بدء الحرب إلى الآن. وقد ظلت الحال على هذا المنوال، والعرب درع الدولة المتين وموردها العظيم في المال والرجال إلى أن عُيِّنَ جمال باشا السفاح خلفًا للفريق زكي باشا الحلبي في منصب القيادة العامة في سورية.

جمال باشا السفاح

اشتهر جمال باشا من زمن بعيد بتفننه في طرق القتل والاغتيال وجرأته على سفك دماء الأبرياء، فهو مدبر مذابح الأرمن في أطنة بعد الدستور؛ إذ كان واليًا عليها، وهو منظم مؤامرات الاتحاديين ومدير فرع الجواسيس والفدائيين في جمعيتهم، وهو الذي قتل مئات من الأبرياء في الأستانة عقب اغتيال محمود شوكت باشا لا لجرم ثبت عليهم، بل لأنهم لم يكونوا من أنصار جمعية السفاحين، وقد اختارته جمعية الاتحاد والترقي لقيادة الجيوش العثمانية المرابطة في سورية؛ لأنها رأت فيه أقدر رجل على تنفيذ الخطة التي قررت اتباعها في البلاد العربية.

وصل جمال باشا إلى سورية بعد إعلان الحرب الأوروبية بنحو سبعة أشهر، فتظاهر بكره الاتحاديين[١] والميل إلى العرب، وأخذ يقرب أحرار السوريين والعراقيين منه، ويستشيرهم وينفذ رغائبهم، إلى أن أمنوا جانبه وأخلصوا له، فاستعمل بعض الذين كانوا واسطة التفاهم بين الترك والعرب كالمرحوم عبد الكريم قاسم الخليل وغيره آلة لتنفيذ خطته، وحملهم على السعي لإقناع ضباط العرب وقادة آرائهم بقبول وظائف كبيرة ملكية وعسكرية في الأناضول وعلى الحدود، بحجة أن الدولة في حاجة إلى أمثالهم في تلك الأنحاء، ثم أمر بإقفال مكتب «صف الضباط» الذي فُتِحَ في دمشق بعد الحرب الأوروبية، وكان فيه نيف وخمسمائة ضابط من خيرة شبان العرب.

فلما تمكن من إبعاد الضباط والجنود العرب عن سورية والعراق وإقناع بعض أحرار العرب وزعمائهم وقادة آرائهم بقبول مناصب ملكية وعسكرية في خارج البلاد

العربية؛ أماط اللثام عن حقيقة حاله، وقلب للعرب ظهر المجن؛ فنصب المشانق، وفتح أبواب السجون وطرق المنافي، وكان أول من شنق صديقه وصديق الاتحاديين المرحوم عبد الكريم قاسم الخليل الذي سعى إلى حتفه بظلفه، وساعد بإخلاصه وحسن نيته ذلك السفاح العظيم على ارتكاب ما ارتكبه من الفواجع والموبقات.

أَمَّن الاتحاديون جانب العرب بعد التدابير التي اتخذها جمال باشا السفاح، فصبوا عليهم جام نقمتهم، ساقوا الزعماء والأدباء إلى المشنقة زرافات ووحدانًا، ونفوا النساء والشيوخ والأطفال إلى الأناضول، وجوعوا العرب في سورية والعراق؛ فأماتوا منهم الألوف ومئات الألوف، فمن نجا من ميادين القتال لم يَنْجُ من المشنقة، ومن نجا من هذه لم يَنْجُ من النفي أو الاغتيال أو الموت جوعًا.

وقد صبغ الاتحاديون فظائعهم بصبغة قانونية على طريقتهم، فألفوا مجلسًا عرفيًّا في عاليه «بلبنان» جعلوا مهمته التوقيع على أحكام الإعدام التي تصدرها جمعيتهم في الأستانة، فأبدى هذا المجلس من الجرأة على ارتكاب الفظائع والسرعة في تنفيذ أوامر الأستانة ما أدهش الاتحاديين أنفسهم، فلم يَمْضِ على تأليفه بضعة أشهر حتى قضى على الأمة العربية في سورية أعظم قضاء، ولم يبقِ فيها رجلًا من ألف رجل يحسن القراءة والكتابة، ولا عجب في ذلك ما دام الرئيس الحقيقي لعصبة الاتحاديين في سورية جمال باشا السفاح حفيد جنكيز وتيمورلنك وهولاكو هذا العصر.

بنى المجلس العرفي الذي ينفذ إرادة جمال باشا أحكام الإعدام على أمرين؛ أولهما: الانتساب إلى إحدى الجمعيات العربية التي كانت أشد إخلاصًا للدولة العثمانية من كل من يدعي الإخلاص لها كما يتضح للقارئ من مراجعة برنامجها وخلاصة أعمالها في هذا الكتاب، وثانيهما: رسائل سياسية اختلق الاتحاديون بعضها، وعزوا البعض الآخر إلى زعماء الأحزاب العربية. أما الرسائل التي اختلقوها فلم ينشروا صورتها بالزنكوغراف كما فعلوا بالرسائل الأخرى؛ لأنها مكتوبة بخط يدهم وبلغة تركية أكثر منها عربية، وأما الرسائل التي عزوها إلى بعض زعماء الأحزاب العربية، فينتهي تاريخها إلى ما قبل إعلان الحرب الأوروبية بأعوام، وقد نشروا صورتها الفوتغرافية في صحف سورية، ولكنهم حذفوا منها كل ما يظهر حقيقة رأي الكاتب مدعين أن ما حذفوه يمس حلفاء الدولة، وقد عملوا فيها حذفًا وتحريفًا وتشويهًا ومسخًا بحيث لم يتركوا إلا عبارات متقطعة لا رابطة بينها ولا هي تفيد المعنى المقصود متحدين في الحذف والتحريف طريقة الشاعر العربي القائل:

ما قال ربك ويل للألى كفروا بل قال ربك ويل للمصلينا

ثم رأى جمال باشا السفاح بعد ذلك أن يثبت عدالة مجلسه العرفي للملأ، فنشر البيان التالي بإمضائه في صحف سورية في ٥ رجب سنة ١٣٣٤ و٧ مايو سنة ١٩١٦. وهذا هو البيان بنصه وفصه:

لما جرى القصاص على بعض الأشخاص المنتسبين إلى الحزب المتشكل في مصر والممالك العثمانية تحت تمويه عنوان «حزب اللامركزية»، والذين حُوكِمُوا في ديوان الحرب العرفي بعاليه؛ كنت كتبت في البيان الذي نشرته في أوائل أغسطس سنة ١٣٣١ أن التحقيقات جارية بصورة دقيقة بحق أعوانهم الأشرار الذين لم يكن قُبِضَ عليهم قبلًا.

إن الوثائق السياسية التي عثرنا عليها واعتراف عبد الغني العريسي صاحب المفيد الذي أُلْقِيَ القبض عليه أخيرًا بعد أن ذكرنا في البيان خبر فراره واعتراف سيف الدين الخطيب عضو محكمة بداية حيفا السابق، ورفيق رزق سلوم ضابط الاحتياط ورفقائهم الآخرين؛ قد نُوِّرَ المسألة من جميع أطرافها، وسِيقَ إلى ديوان حرب عاليه الأشخاص الذين ظهر أن لهم علاقة في هذه المسألة بدرجات متفاوتة مع من تبين أن لهم دخلًا في المساعي الخائنة بتنفيذهم ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها، وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه صدرت الأحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين والفارين كلٌّ على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة، فحُكِمَ على: شفيق بن أحمد مؤيد العظم، والأمير عمر بن الأمير عبد القادر، وعمر بن مصطفى حمد، ورفيق بن موسى رزق سلوم، ومحمد بن حسين الشنطي، وشكري بن بدري علي العسلي، وعبد الغني بن محمد العريسي، وعارف بن محمد الشهابي، وتوفيق بن أحمد البساط، وسيف الدين بن أبي النصر الخطيب، والشيخ أحمد بن حسين طبارة، وعبد الوهاب بن أحمد الإنكليزي، وسعيد بن فاضل عقل، وبتروباولي، وجرجي بن موسى الحداد، وسليم بن محمد سعيد الجزائري،

وعلي بن محمد بن حاجي عمر، ورشدي بن أحمد الشمعة، وأمين لطفي بن محمد حافظ، وجلال بن سليم البخاري؛ بالإعدام؛ لثبوت اشتراكهم في هذه التشبثات بالدرجة الأولى وبصورة فعلية. وعلى من تبين دخولهم في الدسيسة بصورة فرعية: سالم بن مصطفى مظلوم بالاعتقال بالقلعة خمس سنين. وتوفيق بن محمد الناطور، ويوسف بن مخيبر سليمان بعشر سنين. وحسين بن خليل حيدر بخمس عشرة سنة. وعلى رياض بن رضا الصلح بنفي مؤبد. وعلى الأمير طاهر بن أحمد الجزائري بعشر سنين في الكريك. وعلى الذين مع كونهم لم يفهموا المقصد والتشبث الحقيقي وثبت وجود مساغٍ لهم مع هذه الجمعية بصورة محسوسة، إما بسائق الجهل أو التصاف، وإنما لم يوجد عليهم وثائق تنور وجدان الهيئة الحاكمة وتثبت مجروميتهم واشتراكهم، وهم: رضا الصلح، وأسعد حيدر؛ بإعادتهما إلى منفاهما، وأُعْطِيَ القرار بمنع محاكمة وبراءة كل من محمد أفندي كامل الهاشم، إبراهيم القاسم، سامي العظم، الشيخ جمال الدين الخطيب، عبد الحميد معلم الرسم، محيي الدين فريحة، البيطار حسين صبري، رشدي الغزي، عاصم بسيسو الغزي، عزت الأعظمي، مصطفى الكيلاني، عبد الرحيم حنون، الدقتور حسام الدين، نجيب شقير، الشيخ فتح الله، الدقتور أحمد قدري، سليم الطيارة، جميل الحسيني، المفتي سعيد أفندي الباني، سليم الشمعة، سليم البخاري، فائز الخوري، رشيد الخشيمي، عمر الأتاسي، البكباشي علي رضا، الدقتور أمين قازما، سعيد عدرة، الدقتور عبد الحفيظ، اليوزباشي جميل، فريد باشا اليافي، عثمان العظم.

ومن الذين صدر بحقهم حكم الإعدام، وهم: شفيق المؤيد، الأمير عمر، شكري العسلي، عبد الوهاب الإنكليزي، رشدي الشمعة، رفيق رزق سلوم؛ جرى إعدامهم هذا الصباح في الشام، والآخرون جرى إعدامهم في بيروت. وسائر المجرمين صار سوقهم إلى منفاهم وحبوسهم، وعلى هذه الصورة تقرر إذن في سورية وفلسطين السكون والأمن المحتاج إليهما إلى الأبد.

وسيُنْشَرُ كتاب حاوٍ جميع الوثائق على حدة، مع اعترافات المجرمين المهمة، وتاريخ صغير لهذه المسألة.

ومن إمعان النظر في الوثائق يفهم؛ أولًا: أن هؤلاء الأشخاص قد ضحوا بلا تردد جميع ما لديهم من المقدسات الدينية والوطنية لقاء منافعهم

الخسيسة والمادية. إن هؤلاء الأشخاص قد أشركوا في مساعيهم ونفوذهم وقدرتهم أعداء الدولة، وسعوا في إعداد الطاعة في الداخل تجاه تجاوزات الأعداء في الخارج.

ومما هو جدير بالتقدير أن إدارة هذه التشبثات لم تتسع بالنظر لما جُبِلَ عليه العنصر العربي النجيب من الصداقة والطاعة والصلابة الدينية العارية عن شوائب الظنون والشكوك بأسرها، بل حُصِرَتْ بين بعض أشخاص مسلمين ومسيحيين لا أهمية لهم ولا يكاد يتجاوز عددهم المائتين من المحكوم عليهم حديثًا وقديمًا وجاهًا وغيابًا.

وبناءً على الصلاحية التي تخولني إياها المادة الثانية من القانون المؤرخ في ١٤ مايو سنة ١٣٣١ المتضمن التدابير التي ينبغي للجهة العسكرية التوسل بها في وقت النفير العام ضد الخارجين على الحكومة وإجراءاتها؛ فإني ساعٍ في إبعاد أولئك الأشخاص الذين يتخذون حقوق الدولة ومقدساتها ملعبة في سبيل منافعهم الشخصية مع من لهم علاقة معهم من أسرهم وعائلاتهم من قريب أو بعيد إلى بعض ولايات الأناضول. وقد اتخذت الأسباب الكافلة لإعاشة هذه العائلات ورفاهيتهم في المحال التي يُنْفَوْنَ إليها تحت عناية الحكومة السنية وعاطفتها، وسيُعْطَوْنَ هناك أراض وأملاكًا قيمتها تعادل أملاكهم وأراضيهم التي يملكونها في سورية، وإني أوصي جميع الأهلين في سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة، على أنه من الآن فصاعدًا لم يبقَ محل لإجراء التعقيبات والإبعاد إلى الولايات العثمانية في حق أحد مطلقًا ما لم تظهر وثائق قوية تدل على خيانته.[٢]

قومندان الفيلق الرابع وناظر البحرية
أحمد جمال

هذا هو بيان جمال باشا السفاح، وقد رأينا أن نترك الكلام في الرد عليه إلى بعض زعماء الأحزاب العربية؛ قال زعيم كبير من زعماء العرب: «نشر جمال باشا السفاح بيانًا يبرئ فيه عمله الفظيع وجريمته التي أجرمها في سورية بقتل الأبرياء واضطهاد المسالمين، ويظهر أن الدافع له على كتابة ذلك البيان هو شعوره بسوء فعله، وبما كان له من الوقع السيئ في جميع البلاد العربية، وقد ذكر فيه أسماء الذين وقع عليهم

ظلمه من الشهداء والمعتقلين، ولم يرد في هذا البيان وبيناته إلا ما عرفناه في هذه العصابة السفاكة من العمل بالهوى وانتحال الأسباب التي لا يبني عليها حكمًا إلا الجهلة والسفاحون، ألا وهي المحاسبة على ما في النفوس والمعاقبة على ما في النيات إن كان هناك شيء مما ذكره في بيانه في نفوس أولئك الشهداء استحقوا من أجله العقاب، وما مثله في هذا إلا مثل قاضٍ أحمق جاءه رجل وقال له إني اعترف لك أني أنوي سرقة بيت فلان، فحكم عليه بأقصى عقوبة السارقين.

هكذا زعم جمال باشا في بيانه أنه ثبت له مما اعترف به بعض الشهداء أنهم ينتسبون إلى جمعية غايتها سلخ سورية والعراق عن راية السلطنة، وجعلهما إمارة مستقلة، فاستحقوا من أجل هذا عقوبة القتل، ولم يأتِ في بيانه بدليل واحد يدل على أدنى عمل عدائي ظهر من بعض أولئك الأفراد أو كلهم يبرر حكمه بمثل تلك العقوبة.

لو صح أن نية الاستقلال أو مطلق الرغبة فيه تستوجب عقوبة القتل لأُبِيدَتْ كل الشعوب التي فقدت استقلالها وهي ترغب فيه، ولكن قضاة جمال باشا لم يتعلموا أمثال هذه النظريات الفلسفية التي تحتاج إلى تحكيم العقل والوجدان والرحمة، بل تعلموا أن يعملوا بما يؤمرون به وأن يسألوا سؤالين أو ثلاثة ويقولون «حكمت»، ثم ينظم رئيس عصابتهم أسباب الحكم «وحيثياته» أو يكون قد وضعها من قبل.

والحقيقة التي لا ريب فيها أن نقمة الاتحاديين التي حلت بأهل سورية اليوم ترجع أسبابها إلى أمرين؛ الأول: أنه منذ أُعْلِنَ الدستور الصوري أرادوا أن يجعلوا وسيلة لاستئثارهم بأمور السلطنة، فقامت في وجوههم الجمعيات والأحزاب، كحزب الأهالي والحزب الحر وحزب الائتلاف، فطاردوها أشد مطاردة، وشردوا زعماءها في أطراف البلاد، وقتلوا بعضهم شر قتلة.

والثاني: تصميمهم على أن «يتركوا» العناصر ولو بالقوة، وأن يمحوا من البلاد كل صبغة غير تركية، ولما شعرت الأمة العربية بما في ذلك من الخطر على كيانها وجنسيتها ولغتها، وهي أمة ذات مدنية وتاريخ لا تسمح بأن تصبح وإياهما أثرًا بعد عين باندماجها بعنصر آخر؛ هب علماؤها وأدباؤها وذوو الرأي فيها إلى مقاومة هذه الفكرة الاتحادية بالطرق القانونية والوسائل الدستورية، فألفوا الجمعيات والأحزاب؛ كجمعية الإصلاح البيروتية، وحزب اللامركزية، وجمعية شبان العرب بالأستانة، وكلها ترمي بمبادئها إلى غرض واحد، وإن اختلفت في التفاصيل، وهو الحصول على نوع من الاستقلال الإداري، ومن مقتضى هذا النوع من الحكم أن يكون التعليم منوطًا

بالحكومة المحلية، وأن تكون معاملات الحكومة كلها بلغة البلاد، وكان المراد من هذا أن تبقى لغة العرب وجنسيتهم مصونة في بلادهم من عبث الاتحاديين الأغرار، ولم يكن يدور في خلد أحد من القائمين بهذه الحركة التحدث بالانفصال عن راية السلطنة قط، بل إن فكرة الاستقلال الإداري نفسها لم تكن لتطرأ على بال أحد منهم لو لم يبادئهم الاتحاديون بما في نفوسهم من الغرض وما يضمرونه للعرب من الشر.

وهذا ما أدى بالعرب أيضًا إلى عقد مؤتمرهم الذي لم يكن الغرض منه إلا رفع صوتهم عاليًا لدى العالم أجمع بأنهم لا يسمحون بلغتهم وجنسيتهم أن تكونا هدفًا لأغراض الاتحاديين، وقد وافق على هذا المؤتمر وقراراته سائر عقلاء الأمة العربية والمتنورين فيها في كل أنحاء البلاد، ولو كان للعرب يومئذ غرض بالانفصال عن تركيا أو نية سيئة نحو إخوانهم الأتراك لكان لهم مندوحة عن أمثال هذه المؤتمرات بالقيام في وجه الاتحاديين بقوة السلاح، وقد كانت تركيا خارجة من حرب البلقان مضعضعة القوة فاقدة الحول، ولكن للعرب من طول أناتهم وشرف نفوسهم ورجاحة عقولهم ما يمنعهم من إتيان مثل ذلك الأمر، وهم عنه راغبون وبالقليل من حقوقهم مقتنعون.

ولما هال الاتحاديين أمر هذا المؤتمر وعلموا أن الأمة العربية لا تؤخذ على غرة، ولا تسمح بوجه من الوجوه أن تتجرد من جنسيتها، وأن أساس كل نهضة في الأمم وحياة في جسم الشعوب مبني على كواهل المتعلمين والعقلاء والنابغين فيها، وأن الفكرة التي حاولوا تنفيذها في بلاد العرب لا تتم إلا بالقضاء على هذه الطبقة المتنورة وهدم ذلك الأساس المتين؛ أخذوا يدارون رجال هذه النهضة وشبانها وعقلاءها، فوعدوا الإصلاحيين مواعيد كثيرة، وأخذوا بعضهم إلى الأستانة، ووسدوا إليهم بعض المناصب، كالزهراوي — رحمه الله، وتقربوا من بعض أعضاء الجمعية الإصلاحية في بيروت، وأخذوا يحبذون في دمشق نشاط شبان العرب؛ كل هذا ليأنسوا بالاتحاديين، ويأمنوا إليهم، فلا يفلت منهم أحد إلى خارج البلاد، وذلك كله تحيُّنًا للفرص التي تمكنهم من رقاب هذه الطبقة من المتنورين كافةً؛ ليستأصلوها استئصالًا، وربما كانوا عارفين بأنهم سيدخلون في حرب عامة في صف الألمان، وأن البلاد ستُقْفَل أبوابها من كل جهة، والقوة الذاتية التي في البلاد سيُقْذَفُ بها إلى أقصى ميادين الحرب، فتكون الفرصة سانحة لهم لتنفيذ خطتهم الشنعاء التي أدمت قلوب العرب اليوم.

جاءت الساعة وأُعْلِنَتْ الحرب ودخلت حكومة الاتحاديين فيها، فماذا كان من العرب؟ كان منهم إن كفوا عن كل طلب من مطالب الإصلاح، واندفعوا كجسم

واحد لخدمة الجيش والدفاع عن دولة الترك، ولم يكونوا يعلمون ما خبأه لهم أولئك الغادرون الماكرون الذين بعدما فرقوا الجنود السورية، وأقفروا البلاد من شبانها وأهلها الأقوياء أخذوا يقبضون على كل من تنسموا منه ريح الحرية، وكل من كان يطالب مع المطالبين بالإصلاح من شبان البلاد ومتنوريها، ويقدمونهم إلى المشانق جماعات جماعات؛ فقبضوا على أعضاء جمعية الشبان، وعلى أعضاء جمعية الإصلاح البيروتية، وعلى بعض المنتسبين إلى حزب اللامركزية، وعلى أفراد كثيرين من الذين لا علاقة لهم بحزب من الأحزاب العربية، ولا سبب للقبض عليهم إلا نبوغهم أو ذنوب قديمة لهم، هي معارضتهم للاتحاديين معارضة شديدة لما كانوا أعضاء في مجلس المبعوثان؛ مثل: رشدي بك الشمعة، وشفيق بك المؤيد، وشكري بك العسلي ... وغيرهم. فهؤلاء لم يكن لأحدهم أدنى دخل في الجمعيات والأحزاب العربية، وما قُتِلُوا إلا لأن عصابة الاتحاديين حكمت عليهم بالإعدام منذ كانوا في مجلس النواب وناقشوا حكومة الاتحاديين الحساب في القروض التي اقترضتها باسم الدولة ولم تنتفع منها الدولة بشيء؛ يدلك على هذا أن المرحوم شفيق بك لما أُعْلِنَتْ الحرب انقلبت عواطفه نحو الاتحاديين انقلابًا غريبًا جدًّا حتى استوجب لوم بعض أخصائه وأصدقائه، ولما قبضوا عليه وزجوه في السجن قابل صديقه الدكتور ... أحد أذناب جمال باشا، وقال له إني أستغرب قبض إخوانك على شفيق بك وحبسه وعواطفُهُ نحوكم ومساعدته لكم على ما تعلم، فقال له إن لشفيق بك ذنبًا قديمًا ستر كل حسناته، وهو إهانته لطلعت بك لما كان عضوًا في مجلس المبعوثان، ولا بد أن يُقْتَلَ بهذا الذنب قتلًا، وقد كان.

ثم إن هناك أشخاصًا آخرين لم يكونوا في سورية منذ بضع سنين، ولم يكن لهم علم ولا دخل في كل ما هو حاصل فيها، مثل المرحوم سليم بك الجزائري البكباشي أركان الحرب، فإنه كان يقيم في الأستانة ثم في أزمير منذ أكثر من خمس سنين، وقد جِيء به من أزمير وقُتِلَ، ومثله المرحوم عبد الوهاب بك الإنكليزي، فقد كان مفتشًا في أنحاء الأناضول، وجيء به إلى الأستانة ثم إلى سورية وقُتِلَ، وغيرهما من الذين لم تحضرني أسماؤهم، وقُتِلَ أناس آخرون من اللبنانيين مثل المرحومين الشيخ فريد والشيخ فيليب الخازن وغيرهم من الذين لا علاقة لهم أبدًا بالآخرين.

وقد كان كلما حُكِمَ على جماعة من هؤلاء بالقتل ينشر جمال باشا بيانًا ينتحل فيه سببًا من الأسباب لقتلهم؛ فأعضاء الجمعية الإصلاحية انتحل لهم سببًا، وما السبب الحقيقي إلا أنهم من مؤسسي جمعية الإصلاح وأعضاء المؤتمر العربي. وأعضاء

جمعية الشبان انتحل لهم سببًا، واللامركزية كذلك، والأسباب كلها ترجع إلى أصل واحد، وهو عزم الاتحاديين على استئصال العلماء والمفكرين من سورية وبلاد العرب عامة، لكي يتسنى لهم تتريك البلاد العربية على أهون سبيل، يدلك على ذلك أن تلك العصبة السفاحة بعدما فرغت من إزهاق النفوس البريئة في سورية مدت يدها إلى العراق، فجاءت منها إلى مجزرة جمال في عاليه بلبنان بجماعة من علماء بغداد وأدبائها كالعلامة شكري أفندي الألوسي، والسويدي، وشلبي، وغيرهم من الذين لم نقف على أسمائهم بعد، وكان في عزمه أن يمد يده إلى الحجاز أيضًا لو لم يقف دونها صد من الحديد والنار كما يعلم القراء.

ومن الأدلة الناصعة على أن جمال باشا ينتحل لكل جماعة سببًا يبرر حكمه عليهم بالقتل قوله في بيانه عن الشهداء الذين وردت أسماؤهم في ذلك البيان إنهم منتسبون إلى حزب اللامركزية المؤلف في مصر والبلاد العثمانية، وأن غايتهم استقلال سورية والعراق، على أن الذي نعلمه ونتحققه أنه ليس بين هذه الأسماء سوى اسم واحد أو اسمين من هذا الحزب بشهادة سجلات الحزب نفسه التي سيأتي يوم تُنْشَرُ فيه صورته على الملأ بالفوتوغراف لتبرهن على قيمة أقوال عصابة السفاحين التي يموهون بها اليوم على عقول الشعب وبيناتها. وليت شعري كيف يتسنى لحزب قانوني جديد موجود في نفس البلاد العثمانية أن يعمل للانفصال عن الأتراك، وقد قال جمال باشا في بيانه إن كل الذين قُبِضَ عليهم وحُوكِمُوا وحُكِمَ عليهم بأحكام مختلفة لم يتجاوز عددهم مائتي نفس، وأنهم من جماعات مختلفة لا يجمعهم غرض واحد، وقد حكم عليهم لأسباب مختلفة أيضًا، فأية قوة وأية حول لدى هذا العدد القليل ليعمل لاستقلال سورية والعراق، وكيف جمع جمال باشا بين أغراض هؤلاء الجماعات المختلفة ليؤلف من مائتي شخص جيشًا عرمرمًا يقاتل في سبيل استقلال سورية والعراق.

إن الحقيقة التي يجب أن تُقال هي أن الاتحاديين — كما قلنا — أرادوا اغتنام فرصة هذه الحرب ليبدأوا بتطبيق بيانهم العقيم باستئصال نوابغ الأمة العربية، وأخطأوا في تقديرهم قوة الحياة التي في هذه الأمة، فكان من هوسهم وتعجلهم في تنفيذ خطة التتريك ومحو كل أثر وكل صبغة عربية من البلاد ما يُضْحِكُ ويُبْكِي في آن واحد.

فما يُضْحِكُ أنهم عجَّلوا بصبغ البلاد بالصبغة التركية، فأول ما صنعوه هو أنه بينما كانت المشانق تُنْصَبُ في دمشق وبيروت كان أعوانهم يحطمون اللوحات التي

توضع على المخازن والدكاكين؛ لأنها مكتوبة بالعربية، ويأمرون أصحابها باستبدالها بلوحات مكتوبة بالتركية حتى بلغ بهم الهوس أن أمروا الأطباء بتغيير لوحاتهم لتغيير حرف واحد هو الفارق بين التركية والعربية، وهو حرف الكاف من كلمة «دكتور» واستبداله بحرف القاف ليكون هكذا «دوقتور».

وأما المبكي فهو أنهم هدموا قبر المرحوم عبد القادر الجزائري، واستخرجوا رفاته، فذروها في الهواء؛ لأنه أمير عربي شهير كسب شهرته في سبيل الدفاع عن وطنه خمس عشرة سنة، وصار اسمه مُحْتَرَمًا ومُبَجَّلًا حتى عند الذين حاربهم كما يعرف ذلك كل قراء التاريخ.

وبعد، فإذا كان الرجال الأحياء متهمين بحب الاستقلال فَقُتِلُوا، واللوحات التي على الدكاكين متهمة بذلك فحُطِّمَتْ، والأموات متهمة بذلك فذروا رفاتهم في الهواء؛ فما ذنب النساء والأطفال؟! ما ذنب اليتامى والأيامى الذين قتلوا عائليهم؟ ما ذنب هؤلاء حتى يُسَاقُوا زرافات زرافات إلى بلاد الأناضول سوق الأغنام؟ وأي عدل أو أي قانون أو توحش وبربربة يسوغ لمثل أولئك الغلاظ القلوب إقفار البيوت من أهلها وانتهاك حرماتها، كما فعلوا في دمشق وغيرها!

إن المآزق التي زجوا أنفسهم ودولتهم فيها بأعمالهم الخرقاء وسياستهم العوجاء لمآزق ليس في استطاعة أمثال هؤلاء الخروج منها بهذه الدولة سالمة أبدًا، وستنالهم الندامة، ويلعنهم عند ظهور النتيجة حتى أشياعهم الذين يهللون اليوم لهم ويكبرون.»

وقال الأستاذ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وأحد زعماء حزب اللامركزية ما نصه:

> كل ما احتج به جمال باشا لسفك الدماء وإجلائه الناس عن أوطانهم أباطيل، وقد قتل بعد من ذكرهم في بيانه عددًا ليس بقليل، منهم السيد عبد الحميد الزهراوي الشهير، وأول أباطيله تسمية القتل برأيه ورأي ديوانه العرفي قصاصًا، وإنما القصاص في شرع الله أن يُقْتَلَ الجاني بمن قتله بغير حق، ومعناه في اللغة المساواة والمماثلة.
>
> ثم إنه يقول إن التهمة الموجبة للقتل والنفي هي الاشتراك في جمعية غايتها جعل العراق وسورية وفلسطين مملكة مستقلة بعد سلخها من راية الدولة، نحن نعتقد بطلان هذه التهمة بأدلة كثيرة؛ «منها»: أن الحزب الذي جعله موضعًا للتهمة التي رمى بها هؤلاء الناس له برنامج معروف مطبوع

ينطق بكذب تلك التهمة، «ومنها»: أن هؤلاء الذين اعترف الباشا بقتلهم في هذا البيان لا يوجد فيهم إلا واحد أو اثنان من الداخلين في هذا الحزب، «ومنها»: أننا نعلم باختبارنا لبعضهم واختبار من نثق به للآخرين أنهم لا يجمعهم رأي ولا مودة ولا سكنى ولا معرفة، فكيف يتفقون مع ذلك على أمر عظيم كالذي اتُّهِمُوا به؟ وإنما الجرم الأكبر الذي يجمعهم وبه استحقوا العقاب هو أنهم من أذكياء العرب الذين يقولون بوجوب محافظة قومهم على لغتهم، وأن يكون لهم حظ من مشاركة الحكومة في إدارة بلادهم، وأن لبعضهم ذنوبًا سابقة لا يغفرها الاتحاديون كإهانة شفيق بك لطلعت بك، والسعي لعدم إقراض أوروبا للاتحاديين عشرات من الملايين، يضيعونها وتبقى البلاد رهينة بها للدائنين، وتوثيق أعضاء المنتدى الأدبي في الأستانة عرى الإخاء بين طلبة العرب في مدارس الحكومة فيها، وإهانتهم لصاحب جريدة إقدام التركية في نشر تلك المقالة التي قال فيها كاتبها إن الطريقة المثلى للتنكيل بعرب الجزيرة إغراء بعضهم بقتال بعض بالمال؛ «لأن العرب تبيع كل شيء بالمال حتى العرض والناموس.»

ثم إنه يصرح بأنهم أخذوا بالظن، فلم تثبت عليهم تلك التهمة باليقين، ولو ثبتت لما جاز قتل أحد منهم بها شرعًا ولا قانونًا؛ لأنها عبارة عن رأي سياسي لم يَدَّعِ قاتلهم أنهم شرعوا في تنفيذه بالخروج على الدولة في أثناء النفير العام الذي حاكمهم بقانونه، وكيف يعقل أن يقوم نفر قليل كهؤلاء بالخروج على الدولة والسواد الأعظم من قومهم يخالفهم فيه باعتراف جمال باشا نفسه والدولة تحكم بلادهم بالأحكام العرفية القاسية وجميع شبان الأمة وكهولها جنود مسلحون بين يديها؟ ويا ليت شعري! ما تلك المنافع المادية الخسيسة التي ضحى أولئك الأذكياء الفضلاء دينهم ووطنهم لأجلها، إن كانت ما ذكره من غاية جمعيتهم المزعومة، فتلك غاية سياسية عالية لا مادية خسيسة، وإن كانت غيرها فما هي؟

وقال العرب في بيان سياسي نُشِرَ في المقطم في ١٧ شوال سنة ١٣٣٤ و١٦ أغسطس سنة ١٩١٦ ردًّا على بيان جمال باشا ما نصه:

ونحن نعلن رسميًّا على رءوس الأشهاد أنه ليس بين الذين شُنِقُوا أو اضطهدوا من ضباط العرب والقائمين بالفكرة العربية من كان يفكر في

الانضمام إلى دولة أجنبية أو الانفصال عن الدولة العثمانية. وقد ارتكب جمال باشا ما ارتكبه من الفظائع والموبقات من غير أن يبدر في البلاد العربية أقل بادرة تشتم منها رائحة العصيان، فلم يفعل جمال باشا إلا ما فعله من قبل تيمورلنك وجنكيزخان وهولاكو، وما يفعله الاتحاديون اليوم بقيادة عصبة من الأشرار السفاحين، لم يَخْشَ زعيمها طلعت بك أن يصرح على رءوس الأشهاد بأنه «ذبح المجرمين والأبرياء من الأرمن نساء وشيوخًا وأطفالًا مخافة أن يكونوا في المستقبل عضوًا فاسدًا في جسم الدولة العثمانية.

هذا ولم يكتفِ الاتحاديون بإعدام الأبرياء من العرب بحجة اشتغالهم بالسياسة قبل إعلان الحرب، بل ارتكبوا من الفظائع ما تقشعر لهوله الأبدان، فلم يتركوا شريعة من الشرائع إلا داسوها، ولا حرمة إلا انتهكوها، ولا حقًّا إلا اغتصبوه، ولو وضعنا أمامنا كتب الشرائع والقوانين المنزلة والموضوعة، وقابلنا بينها وبين أعمال الاتحاديين لما وجدنا شريعة واحدة أو قانونًا واحدًا لم يدوسوه بأقدامهم، فقد احتقروا الإسلام وخالفوا شرائعه كلها بكل عمل من أعمالهم، وحطوا من كرامة نبي المسلمين ﷺ وصحابته وأعظم خلفائه الراشدين بدليل ما سبقنا إلى ذكره من أقوالهم،[٣] وسعوا للقضاء على الدين الإسلامي، وانتهكوا حرمة الأديان الأخرى، وضربوا بشرائعها وقوانينها عرض الحائط، ثم عادوا إلى قوانين الدولة ونظاماتها قبل الدستور وبعده فمزقوها تمزيقًا، ولم يراعوا نظامًا من نظاماتها، ولم يحترموا قانونًا من قوانينها، وكل ذلك ظاهر في جميع أعمالهم، كالشمس في رائعة النهار، فأية جناية تستحق الإعدام ارتكبها الذين شُنِقُوا من أصحاب الفكرة العربية في بيروت ودمشق وغيرهما من مدن سورية والعراق، وهم لم يوقظوا فتنة ولا دعوا إلى ثورة أو عصيان، ولا فكروا في الاستقلال والانفصال عن الترك، بل كان جل آمالهم حمل الحكومة الاتحادية بالطرق القانونية على إجابة العرب إلى مطالبهم الحيوية التي لا تعيش أمة إلا بها.

وهب أن هؤلاء الأبرياء استحقوا الإعدام بغيرتهم على الوطن المشترك، فما هو ذنب نسائهم وأطفالهم وذوي قرباهم الذين نُفُوا إلى الأناضول؟ وإذا كان لهؤلاء المساكين ذنب، فما هو ذنب رفات ذلك العربي الكبير الأمير عبد القادر الجزائري التي أُخْرِجَتْ من قبرها وبُعْثِرَتْ ودِيسَتْ بالأقدام وذرتها الريح؟ وإذا كان لتلك الرفات الطاهرة ذنب، فما هو ذنب النساء والأطفال والشيوخ من أبناء سورية والعراق الذين يموتون اليوم جوعًا في أخصب بقاع الأرض؟

لقد أذنب كل هؤلاء في نظر الاتحاديين، ولكن ما هو ذنب المدارس التي أقفلوا أبوابها والجوامع والكنائس والمقابر التي انتهكوا حرمتها والآثار التي دمروها ونهبوها والأرض التي منعوا العالم من استغلالها والبلاد التي ساعدوا على نشر الأوبئة فيها، ونهبوا أموالها وغلالها وأقفروها من سكانها وجعلوها قاعًا صفصفًا ينعق فوقه البوم ويأوي إليه الغربان؟

المصائب لا تأتي فرادى

عانى العرب في سورية على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم من مسلمين ومسيحيين ودروز ونصيرية ويهود وغيرهم من الاضطهاد والشدة والضيق والجوع والفقر ما لم يسبق له مثيل في غابر العصور، فمصائب سنة الستين لم تكن شيئًا يُذْكَر في جانب مصائب هذا الحين، وتاريخ سورية الذي لا يضاهيه تاريخ في ويلات حروبه وضيقاته وشدائده لم يرد فيه في غابر الزمان نظير لما قاساه أهل سورية ويقاسونه هذه الأيام، كما روى بعض الرواة الصادقين الذين رأوا رأي العين ما حل بتلك البلاد التعسة من الفظائع والأهوال، وها نحن نثبت في هذا الكتاب خلاصة ما رواه بعض أولئك الرواة ريثما يُتاح لنا الوقت لنشر كل فظائع الاتحاديين على الرأي العام في أربعة أقطار المعمور.

نقل حضرة الكاتب الفاضل «الرحالة» إلى جريدة المقطم ما رواه له شاهد عيان وصل إلى القاهرة في أواسط شهر أكتوبر سنة ١٩١٦، فقال في مقالة طويلة له:

> أخبرني الصديق الذي وصل أخيرًا من سورية أن ابنة المرحوم رشدي بك الشمعة كانت مصابة بالحمى المعوية قبيل صدور الحكم على والدها، فأمر جمال باشا بإبعادها مع بقية أفراد العائلة قبيل التنفيذ بنحو أسبوع، ولكن الطبيب استرحم وأظهر ما في هذا الأمر من الخطر على حياتها، إلا أن أحمد جمال باشا «المسلم الصراح» الذي لا تشوبه شائبة أصر على رأيه وأصدر الأمر بنفي أسرة رشدي بك الشمعة مهما يكن مرض كريمته خطرًا، فحُمِلَتْ على ظهور الرجال، وسِيقَتْ هي ووالدتها وإخوتها إلى محطة البرامكة ومنها إلى محطة رياق؛ حيث أطل أخوها الصغير من الشباك عرضًا، فرأى أباه في قطار بيروت آتيًا من عاليه ليُشْنَقَ في دمشق مع من سيُشْنَق في ذلك اليوم، فصرخ الولد صراخ الفطيم عندما يرى مرضعه الحنون، وصار ينادي

«أبي! أبي!» ومدت مريضتنا رأسها من الشباك لتتحقق هذا الحلم بنفسها، فرأت والدها يبتسم في وجه ولده ابتسام المحروق على تقبيله، فصاحت من شدة الانفعال، وأرادت أن تخاطبه وتودعه الوداع الأخير وتطلب رضاه، ولكن الجندرمة الموكول إليهم حماية «المؤمنين» في هذا «الجهاد المقدس» لكموها على وجهها، فسقطت على المقعد أمام عيني أبيها الذي بقي مبتسمًا ابتسامة الاحتقار، وما أمسى المساء حتى فارقت الحياة قبيل وصولها إلى حماة، وهي تشير بيديها وفمها من غير وعي، كأنها تقبل الأيدي التي طالما حملتها في صغرها.

وقد عرف المشنوقون صدور الحكم عليهم بالإعدام قبل التبليغ بأربعة أيام، وكان وداع الشاب الضابط جلال البخاري لوالده الشيخ المسن الأستاذ سليم البخاري الذي كان مسجونًا مثله يفطر القلوب، وقد شجع الشاب أباه تشجيعًا مؤثرًا؛ فقال له «يا أبت، لا تخف، ولا تجزع، إن لي إخوة يعزونك عن فقدي، وإذا مت أنا فإن أمتي ما ماتت ولن تموت، والذي أرجوه لك وحُرِمَتْ نفسي منه أن يطيل الله عمرك حتى ترى بعينيك مصرع الباغين وعاقبة أهل الظلم والفساد»، فسقط الوالد المسكين فاقدًا صوابه، ولم يعد إليه رشده إلى الآن.

ونُقِلَ الذين شُنِقُوا في بيروت بالأتوموبيلات من عاليه إلى مدينة بيروت، وكان منظرهم يفتت الأكباد، وظلوا ينشدون الأناشيد الحماسية طول طريقهم، ويترنمون بالأهازيج القومية كمن شعر بقيامه بواجبه، وعرف أن دمه سيكون سببًا لتشديد عرى الرابطة القومية وتحرير البلاد من الأشرار. أما الذين شُنِقُوا في دمشق، فقد سيقوا إليها في قطار الركاب الاعتيادي الذي يسافر بين بيروت والشام مرتين، ولما وصل القطار إلى محطة الزبداني نزل منه المرحوم الأمير عمر الجزائري والمرحوم عبد الوهاب المليجي (الإنكليزي) لإراحة الجسم من عناء الجلوس والتمتع بآخر نظرة من رُبا «بلودات» فرآهما في المحطة صديق لهما، وقال لهما «خير إن شاء الله»، فأجابه عبد الوهاب بك بأن وضع يده على عنقه وضمها كمن يخنق شيئًا إشارة إلى المشنقة التي ستُنْصَبُ لهما ولرفقاهما تلك الليلة. وقد وصل المحكوم عليهم بالإعدام إلى دمشق في مساء ذلك اليوم، وأُنْزِلُوا في الثكنة العسكرية في البرامكة، وفي

منتصف الليل سيقوا إلى ساحة المرجة؛ حيث أُعِدَّتْ لهم السدد حوالي العمود التذكاري الحميدي، وأتى جمال باشا إلى نزل أميركا المطل على تلك البقعة ليمتع نظره بمشانق علماء سورية وأفاضلها ويشفي غلته من الأمة العربية.

تقدموا كلهم إلى المشانق برباطة جأش نادرة المثال، وكان في مقدمتهم شفيق بك المؤيد، وهو أكبرهم سنًّا، فألقى خطبة بليغة مختصرة بيَّن فيها الغاية الشريفة التي كان يسعى إلى تحقيقها رجال العرب والإصلاح الأساسي الذي كانوا ينشدونه للبلاد العثمانية، ثم طلب أن يكون الختام قراءة الفاتحة الشريفة، وسُمِعَ شكري بك العسلي يقول على سدة المشنقة — وهو آخر كلام نطق به — ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ولما أُزِيحَ الكرسي من تحت أقدام المرحوم السيد الزهراوي لم يحمله الحبل، فانقطع به، فرُفِعَ مرة ثانية وشد من رجليه شدًّا قويًّا.

هذا ما نقله «الرحالة» عن شاهد عيان، وقد نقل إلينا أحد الذين حضروا المشانق الأولى في بيروت أخبارًا تفتت الأكباد عن طريقة الشنق والقسوة التي عُومل بها أولئك الشهداء السعداء ونتفًا من الخطب التي ألقوها قبل صعودهم إلى المشنقة، فقال إن المرحوم الشيخ أحمد طبارة ألقى وهو على شدة المشنقة قصيدة حماسية كان نظمها في الطريق بين عاليه وبيروت، وأن المرحوم محمد المحمصاني صعد إلى سدة المشنقة بعدما ودع أخاه محمودًا الذي شنق معه بيوم واحد، فقال: «كنت في السجن أعرب تاريخ استقلال إيطاليا التي تحررت بدماء أخوين شهيدين، فما أسعد حظنا أنا وأخي محمود إذا كان موتنا حياة للأمة العربية.» ثم هتف «فليحي العرب» وأزاح سدة المشنقة من تحته.

وألقى المرحوم عبد الكريم الخليل خطبة وجيزة مؤثرة قال فيها:

إني أعرف السبب الحقيقي الذي شنقني جمال باشا من أجله، وسيعرفه التاريخ أيضًا.

وتقدم جميع المشنوقين إلى المشنقة بقدم ثابت وجأش رابط، وألقوا كلهم خطبًا بهذا المعنى لا سبيل إلى نشرها الآن، وستُنْشَرُ قريبًا مع سائر كتاباتهم وأقوالهم في السجن وفي الديوان العرفي.

ولا يعلم أحد عدد الذين شُنِقُوا من أبناء الأمة العربية في سورية والعراق، ولكنهم على كل حال يعدون بالألوف، فضلًا عن الضباط والجنود العرب الذين أُعْدِمُوا في الجيش.

ولو اكتفى الاتحاديون بإعدام الأفراد لهان الأمر، ولكنهم عمدوا إلى النفي والتجويع لقتل الأمة شيوخها ونسائها وأطفالها؛ فنفوا أسر الذين أُعْدِمُوا أو حُكِمَ عليهم بالإعدام مع أصدقائهم وذوي قرباهم ومعظم أصحاب النفوذ من السكان وكل الذين لم يؤيدوا جمعية الاتحاد والترقي في الماضي، وبديهي أن النفي طريقة من طرق الإعدام في تركيا، وأن ما حل بالذين نُفُوا من الأرمن يحل الآن بالعرب السوريين والعراقيين.

أما المجاعة فحدث عنها ولا حرج، فقد قدرت الصحف عدد الذين ماتوا جوعًا في لبنان فقط بخمسة وثمانين ألفًا في خلال ثلاثة أشهر، ووصف أحد الثقات الذين فروا من سورية الحال الاقتصادية في تلك البلاد كما يلي؛ قال:

«إذا وصل المسافر إلى بيروت وفاز بالدخول إليها بسلام، فأول ما يستوقف بصره فيها التغيير العظيم الذي طرأ عليها بعد إعلان الحرب، فحركة الأخذ والعطاء فيها ساكتة، ووجوه الناس قاتمة شاحبة، وأبدانهم هزيلة، وبطونهم خاوية، والأسواق التي تُبَاعُ فيها الكماليات كسوق الطويلة وغيره خاوية تقريبًا خالية، والأسواق التي تُبَاعُ فيها الحاجيات من مأكل وملبس لا تحوي إلا بضائع يسيرة بعدما كانت مملوءة بالبضائع الكثيرة.

وقد ارتفعت الأسعار ارتفاعًا هائلًا، فأسعار البضائع التي ترد من الخارج زادت أضعافًا مضاعفة، حريرية كانت أو قطنية أو كتانية أو حديدية أو خشبية أو غيرها، وامتنع الناس عن شراء الكماليات، فكل إنسان يقتصر على ما عنده، ومن النادر أن يفصل أحد بدلة جديدة، وأقفل الخياطون والتجار دكاكينهم ومخازنهم، وصار الخياط الذي يقصده زبون واحد في الشهر ليخيط ثوبًا جديدًا يعد نفسه سعيدًا.

ولو اقتصر الأمر على الكماليات لهان؛ لأن الإنسان يراعي مقتضى الحال، ولكن غلاء الأسعار عم الحاجيات كالكماليات؛ فالقمح وسائر الحبوب قلت جدًّا لانقطاع وسائل النقل بعدما صادرت الحكومة الخيل والبغال وغيرها من الدواب لقضاء حاجات الجيش، فارتفعت الأسعار حتى صار الناس يطلبون الخبز فلا يجدونه إلا بقدر، وهذا الخبز أسود قذر تعاف النفوس رؤيته، ومع ذلك فثمن الرطل الشامي ١٧ غرشًا، وإذا سعى موسر وفاز بشراء كيس من الدقيق فلا يجترئ أن ينقله إلى منزله خوفًا من أن يهجم الناس عليه ويتخاطفوه كما جرى مرارًا.

فكيف جُلْتَ ببيروت وأين أدرت نظرك رأيت رجالًا وأطفالًا ونساءً عراةً حفاةً يشكون من ألم الجوع جهارًا، ويقفون أمام كل من يدخل مطعمًا من المطاعم القليلة الباقية مفتوحة ليأكل فيه ويغبطونه على كل لقمة تدخل إلى فمه.

ومما زاد بلية ارتفاع الأسعار شدة على شدة سطو الجراد على سورية في سنة ١٩١٥، فالتهم جانبًا من الزرع في داخل البلاد، وذهب بمحصولات شتى.

واللبيب الذي يتدبر بلايا الجراد وبلايا حكومة الاتحاد والترقي لا يستغرب بعدها أن البلاد التي عُرِفَتْ منذ قديم الزمان بأنها بلاد تفيض لبنًا وعسلًا، واشتهرت باليسر والرخاء في الأقطار وعُرِفَتْ شرقًا وغربًا بقرى الضيف وإيلام الولائم؛ تمسي بلادًا خيم العسر والضيق عليها، وضرب الفقر والجوع أطنابه فيها، حتى صار فقراؤها يتزاحمون على قشور الليمون والبرتقال ومصاصة قصب السكر لكي يقتاتوا بها بعدما بارت فيها التجارة ووقف دولاب الصناعة وقلت الأيدي العاملة في الزراعة.»

وبيروت أحسن حالًا بكثير من سواها — ولا سيما لبنان — فإن الضيق الذي يحيق به والجوع الذي يقاسيه أهله، رأى أحد القادمين إلى القاهرة بعيني رأسه آثاره، فقال إنه كان لا يسير قليلًا في طريقه بين بيروت وطرابلس حتى يلتقي بأناس خائري القوى نحيلي الأبدان، ونساء وأطفال قد رقت أجسامهم حتى صارت كالخلال، وهم يشكون ويتألمون من الجوع، ورأى اثنين قد وقعا في الطريق خائرين، فأدركهما على آخر رمق، ومات أحدهما جوعًا أمام عينيه، وأخبره قائمقام قضاء في شمال لبنان أن عنده ٦٠٠ نفس يتضورون جوعًا، وقد ضاقت به الحيل في تدبير طعام يحفظ به رمقهم، قال: وما نبتت البقول في الحقول حتى انتشرت النساء والأولاد فيها لجمع الأعشاب البرية وجذور الشجر التي يقتاتون بها الآن.

وقد نفد الفحم في سورية، وقطعت الحكومة أشجار الغابات في لبنان وولايتي بيروت ودمشق، فصارت البلاد جرداء، ولم تقتصر مصائب سورية في هذه الحرب على تعطيل المتاجر والصنائع والحرف والمهن على اختلاف أنواعها، وانقطاع أسباب الرزق على اختلاف أبوابها، وغلاء أسعار الحاجيات والكماليات على تباين أصنافها، وزوال وسائل النقل على تعداد أشكالها، والتهام الجراد لكثير من المحصولات، وسلب الحكومة الاتحادية للمال القليل الباقي عند الناس بنقودها الورقية حتى اشتد الضيق على الناس وثقلت عليهم وطأة الفقر وأضناهم الجوع، بل دهمتهم الأمراض القتالة أيضًا لتساعد الجوع على قتلهم؛ فتفشت بهم حمى التيفوس في أماكن مختلفة، وانتشرت من حلب إلى

حمص وحماة وطرابلس حتى اتصلت بدمشق وما جاورها، وقد خلت البلاد من الأطباء بعدما أرسلتهم الحكومة مع جنودها إلى ساحات الحرب، وخلت الصيدليات من الأدوية بعدما أخذت الحكومة ما كان فيها لمداواة جنودها، وخلت البلاد كلها من الاحتياطات الصحية وممن يهتم باتخاذ الاحتياطات الصحية، اللهم إلا إذا استثنينا الأطباء القليلين في المدرسة الكلية الأميركية وبعض الأطباء الباقين في المدن المختلفة لتقدمهم في السن وعجزهم عن تحمل مشقات الحرب ومرافقة الجيوش.

وقد اتصل بقادم آخر من سورية أنه توفي ثمانية آلاف نفس بالتيفوس في ولاية حلب، وأنه مات في طرابلس يوم مفارقته لها ستون مصابًا بالتيفوس أيضًا، وقِسْ على ذلك سائر البلاد الموبوءة.

هذا ولو فرضنا أنه بقي في البلاد رجال قادرون على إغاثة الأهالي المساكين، فالاتحاديون يمنعونهم من ذلك كرهًا إن لم يمتنعوا عنه طوعًا، والشاهد على ذلك أن الأميركيين كانوا يجمعون الإعانات من المحسنين في بلادهم ثم يوزعونها على الفقراء أجرة لعملهم في إصلاح طرق المدن ونحو ذلك من الأعمال النافعة التي كانوا يستأجرونهم لها حتى يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم من جهة، وحتى تنتفع بلادهم بتعبهم من جهة أخرى، فمنع الاتحاديون الأميركيين من ذلك أولًا في بر الأناضول وأخيرًا في بر الشام، وقد نقل إلينا ثقة أن أميركيًّا التفت إلى الموظف الاتحادي الذي كان يمنعه عن إغاثة العثمانيين المرهقين في بر الأناضول، وقال له: إذا امتنعنا عن إغاثة هؤلاء المساكين ماتوا جوعًا. فغضب الموظف الاتحادي عند سماع كلامه، وقال له: «وهذا عين ما نقصده.»

وقال طبيب أميركي ذو مقام، عاد من سورية في صيف سنة ١٩١٦: «كنت أرى في طوافي في شوارع بيروت وبعض القرى اللبنانية الأولاد والنساء والرجال يلتقطون قشر البطيخ والليمون من الأوحال ويأكلونه، وشاهدت بأم عيني التراب وقشر الليمون في معد كثيرين ممن أجريت لهم العمليات الجراحية في أحد المستشفيات في بيروت، وقد استولت الحكومة على جميع الغلال في سورية ولبنان حتى التين والعنب والزيتون، وأخذت توزع على كل بلد تقريبًا ثلث ما تحتاج إليه من المأكولات، حتى إن تلاميذ الكلية الأميركية كانوا يفضلون البقاء في المدرسة على الذهاب إلى بيوتهم لعدم وجود الأكل الكافي فيها، ثم تفشت الأمراض في جميع البلدان، وقلما شفي أحد منها؛ لنفاد الأدوية والعقاقير الطبية ولقلة الأطباء والجراحين، وارتفعت أسعار الحاجيات والمأكولات ارتفاعًا فاحشًا حتى إن صندوق البترول بلغ سعره خمس ليرات، وقطعت السلطة

التركية أشجار الزيتون، واستعملتها لمد سكة الحديد، وفرضت على كل قرية من قرى لبنان عشرة جنود، ولربما كان ذلك مقدمة لتجنيد الباقين في قيد الحياة من اللبنانيين، ولا يقبض أصحاب الحوانيت والمكلفون بتوزيع الحنطة عملة الورق إلا بثلث قيمتها الذهبية، مما يدل على أن الترك احتكروا الغلال ليملأوا جيوبهم من الأموال المغموسة بدماء الأبرياء.»

وقالت سيدة أميركية: إن عشرات الألوف من السوريين يموتون جوعًا كل يوم، وإن الأصحاء لا يكفون لدفن الموتى.

وروى جميع الذين فروا من سورية روايات تفتت الأكباد وتسيل العبرات، خلاصتها أن الأمهات يمتن جوعًا على قارعة الطريق ضامات أطفالًا ناحلين إلى صدور نضب لبنها وتقوست عظامها، والرجال هائمون على وجوههم في الحقول والغابات، يحاولون انتزاع جذور الأشجار ليسدوا الرمق بما أبقى عليه الجراد، والجميع يرون المشانق منصوبة وأبواب السجون مفتوحة، والناس تُسَاقُ زرافات إلى المنفى في داخل الأناضول، فمن لم يمت من السوريين في ساحات الحرب مات شنقًا، ومن لم يمت شنقًا مات في السجن أو المنفى، ومن بقي حيًّا إلى الآن يتجرع الغصص ويتضور جوعًا إلى أن يموت موتًا بطيئًا في منزله المقفر وحقله القاحل بعدما يقاسي من العذاب والآلام أشكالًا وألوانًا.

وقد ألفت المراقبة الاتحادية هذه الحال في سورية، فلم تعد تعبأ بما يكتب عنها في الصحف السيارة، وأغرب ما قرأناه في هذا الموضوع قصيدة نُشِرَتْ في جريدة البلاغ البيروتية في مدح جمال باشا وتهنئته بحلول شهر رمضان المبارك؛ لأنها تشف عن حقائق لم يتمكن الشاعر من إخفاء مرارتها، ففاض مداد قلمه بها، وسمح الرقيب بنشرها لأنه رآها دون الحقيقة، وإلى القراء بعض أبيات من تلك القصيدة:

تخيرت لي شهر الصيام ذريعة ... إليك، فبعض الجوع فيهِ تعاني
تمنيت لو صح التفاهم بيننا ... فيغنيك عن هذا السماع عياني
وتسمع دقات القلوب قريبة ... فتعلم شأن البائسين وشاني
وتشهد حوليك العفاة فمائت ... وحي كميت من ضنًى وهوان
عيال قيام عند بابك خشع ... وأنت أب يحتاجه الثقلان
أزل حيف أصحاب الغنى واحتكارهم ... فهم شر خصم في بلادك ثان
فأدرك بنعماك البلاد فقد مشى ... بها الجوع والإملاق يصطحبان

ومنها:

إذا صمت فارحم من يصوم حياته وإن تفطر اذكر عادمًا لخوان
يبيت الدجى طاوٍ ويسحر طاويًا فيغتاله عند الضحى الحدثان

ومنها:

فلم أرَ قبلًا مجرمًا نال رفعة وإكليل فخر باهر اللمعان
ولا قاتلًا إخوانه عن طماعة يمجده التاريخ كل أوان

ومنها:

ولم أر كالسفاح يقرع صدره إذا قام يدع وهو أكبر جان

هذا وليست الحالة في العراق أحسن منها في سورية إلا في الأماكن التي تقلص منها ظل الترك والبلاد التي تقطن فيها القبائل.

هوامش

(١) لم يخدع جمال باشا العرب فقط بالسياسة التي اتبعها معهم في بدء الأمر، بل خدع العالم كله أيضًا حتى إن صحف الغرب ذكرت غير مرة خبر عصيانه على الاتحاديين واتفاقه مع العرب على إنشاء دولة عربية مستقلة.

(٢) نُشِرَ هذا البيان في جريدة المقطم الغراء نقلًا عن صحف بيروت.

(٣) انظر [الفصل السادس: معدات الاتحاديين لمحو الإسلام وسحق العرب – الاتحاديون والإسلام].

الفصل الثامن

انفجار البركان

العرب في محنتهم – منقذ العرب – فاتحة النهضة – الاستقلال منشور الشريف الأعظم

* * *

تكاثفت غيوم المصائب حول العرب فحجب عنهم نسيم الحياة، وتركتهم بين لهوات الموت ومخالب الفناء، ولكنها لم تفقدهم رشدهم ولا أضاعت صوابهم، فما لبثوا أن لموا شعثهم وصحوا مما أصابهم من الذهول، حتى وثبوا وثبة الأسود دفاعًا عن كيانهم وكيان أمتهم مفضلين الموت في سبيل الحياة على الموت أذلاء مهانين.

رأى العرب بعدما دهمتهم المصائب وتوالت عليهم النكبات أنهم وصلوا إلى حال من الخطر لم يسبق لها مثيل في أحرج الأزمات، فعملوا بهمة لا تعرف الكلل على درء ذلك الخطر العظيم متكلين على الله وعلى ما بقي عندهم من القوة في البلاد، وقد أدركوا أن وجود الجيوش التركية في سورية والعراق وإبعاد الجيوش العربية عنهما يحولان دون القيام بعمل ذي شأن فيهما، فقرروا أن يلتفوا كلهم جمعياتهم وأحزابهم وكل من نجا منهم من مذابح الاتحاديين حول زعيم كبير من زعمائهم البعيدين عن سيطرة الترك والأجانب، وأن ينظموا تحت إمرته قوة عربية كافية للوقوف في وجه الاتحاديين وإنقاذ الأمة العربية من مخالبهم، فلم يروا بين أمراء العرب أكبر نفسًا وأمضى همة من سيادة الشريف الأعظم «الحسين بن علي»[1] شريف مكة وأميرها المعظم. وقد ألفوا سيادته مدركًا لشعور الأمة العربية التي يعد نفسه منقذها والمسئول عنها والمشارك لها في عواطفها وأميالها، فألقوا عنده عصا الترحال مستغيثين مستنجدين، فكان خير من أغاث وأنجد.

أجاب سيادته العرب إلى ندائهم لأسباب دينية وقومية، فالأولى هي تلك الفظائع والفواجع التي ارتكبها الاتحاديون في البلاد العثمانية والتي ينكر الإسلام عليهم ارتكابها، ويعاف ذكرها كل ذي نفس أبية وعاطفة شريفة، ولما كان سيادته مسئولًا عن الإسلام ومجده وسمعته وعن إرث أجداده العظام الذي لطخه الاتحاديون بالعار، لم ير بُدًّا من القيام في وجوههم انتصارًا للإسلام وإنقاذًا له من ظلمهم وطغيانهم. أما الأسباب القومية، فأهمها تصميم الاتحاديين على استئصال الأمة العربية، باضطهادهم العرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ونفيهم لهم، وتجويعهم، وشنق زعمائهم وأدبائهم وأصحاب الرأي فيهم ظلمًا وعدوانًا «كعبد الحميد الزهراوي،[٢] الخليل،[٣] ورشدي الشمعة،[٤] وعبد الوهاب بك،[٥] وشكري بك العسلي،[٦] وتوفيق أفندي البساط،[٧] والأمير عارف الشهابي،[٨] وسليم بك الجزايري من ضباط أركان الحرب،[٩] ومحمد أفندي المحمصاني،[١٠] ورفيق أفندي رزق سلوم،[١١] ومختار بك بيهم،[١٢] وأحمد طبارة،[١٣] وجلال البخاري،[١٤] والأمير عمر الجزايري،[١٥] ومحمود المحمصاني،[١٦] وسيف الدين الخطيب،[١٧] وعبد الغني العريسي،[١٨] وسعيد عقل،[١٩] وشفيق المؤيد[٢٠] ... وغيرهم من شهداء الحرية الذين يرفع الوطن أقدارهم ويدون أسماءهم في أول صفحة من صفحات تاريخه الجديد التي كُتِبَتْ بدمائهم البرية».

وتمكن في تلك الأثناء بعض أعضاء الجمعيات العربية الذين نجوا من مذابح جمال باشا السفاح من ترك سورية والعراق إلى شبه جزيرة العرب وإلى خارج البلاد العثمانية، فتم التفاهم بواسطتهم بين زعماء العرب وجمعياتهم وبعض المقامات العالية، وقر القرار على إعلان الثورة في الحجاز، وقد اختاروا الحجاز للقيام بحركاتهم التمهيدية لأسباب سياسية وحربية؛ أهمها: أن صاحب الكلمة النافذة فيه أشرف العرب نسبًا، وأن بلاد الحجاز بعيدة عن مركز القوات التركية وقريبة من البحر في آن واحد، فضلًا عن وعورة مسالكها وحر صيفها، وتعذر وصول العدو إليها، وسهولة قطع سكة الحديد التي تصلها بسورية. وقد رأى العرب أن يكتفوا في بدء الأمر بقوة تلك البلاد لانتزاعها من يد الترك وجعلها بمأمن من كراتهم عليها، ريثما يكملون استعدادهم فيها فيتخذون خطة الهجوم ويقومون قومة واحدة لطرد عصبة الاتحاديين من البلاد العربية التي لا تزال تئن من جورهم وطغيانهم.

فاتحة النهضة

بدأ القتال بين العرب وجيوش الاتحاديين في الحجاز في (٩ شعبان سنة ١٣٣٤/ ١٠ يونيو سنة ١٩١٦) قُبَيْلَ الفجر، فهجم العرب على الثكنات العسكرية في مكة المكرمة، وحصروا الجنود التركية فيها، ولما أدرك قائد ثكنة «جرول» عجزه عن مقاومتهم طلب من سيادة الشريف الأعظم أن يعرف أسباب الحركة، فذهب قائمقام الإمارة حينئذ إلى الثكنة، وأبلغ قائدها أن البلاد أعلنت استقلالها، وأن المسألة لا تُحْسَمُ إلا بخروج الترك من الثكنات وتسليمها للعرب بكل ما فيها من الذخيرة والسلاح، فرفض الترك ذلك واستؤنف القتال بأقصى شدة إلى أن دخل الليل.

وفي صباح اليوم التالي أي يوم الأحد (١٠ شعبان/١١ يونيو سنة ١٩١٦) هجم العرب على «باش قره قول» الواقع حول الصفاء، واستولوا عليه عنوة.

وفي يوم الإثنين (١١ منه/١٢ يونيو) حمل العرب حملة شديدة على «الحميدية»؛ حيث كان وكيل الوالي، واستولوا عليها عنوة، وأسروا من فيها. ولما وصل وكيل الوالي مع الأسرى إلى دار الإمارة واطلع على حقائق الأمور أرسل كتابين بخط يده؛ الأول إلى قائد ثكنة جرول، والثاني إلى قائد قلعة جياد، يخبرهما بما كان من أمره وأمر جنوده، ويطلب منهما أن يسلما للعرب حقنًا للدماء؛ فرفضا ذلك. وجعلت القلعة تشدد إطلاق القنابل والرصاص على المنازل والمسجد الحرام، حتى تعطلت العبادة فيه تمامًا، وتعذر على المصلين الدخول إليه، وكان في هذه القلعة أربعة مدافع جبلية وكل مهمات المدفعية في فرقة الحجاز، فأطلق الترك منها قنبلتين على الكعبة الشريفة فوقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف والثانية تبعد عنه نحو ثلاثة أذرع، فالتهبت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب، واضطرهم الحال إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وما انتهى أمر الترك بهذا؛ بل عززوا الاثنتين بثالثة على بيت إبراهيم — عليه السلام — وهذا عدا ما وقع منها في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب منه. ولا يخفى أنه لا يقدم على مثل هذه الأعمال المنكرة التي وقعت أسوأ وقع في نفوس المسلمين قاطبة إلا الجبان من الأعداء.

وفي تلك الأثناء سقطت جدة بعد قتال ستة أيام، فأسر العرب فيها ١٣٤٦ أسيرًا تركيًّا، وغنموا عشرة مدافع ميدان وأربعة مدافع جبلية وأربعة مدافع من مدافع

المتراليوز ومستودع السلاح والذخيرة وكل المهمات الحربية التي كانت للترك فيها من غير أن يتلف منها شيء، ثم نقلوا المدافع التي غنموها إلى مكة المكرمة، ونصبوها أمام قلعة جياد، وهجموا عليها بعدما دمروا جانبًا منها، فاحتلوها عنوة، وأسروا كل حاميتها، وغنموا منها مدفعين من المدافع الكبيرة وثلاثة مدافع جبلية ونحو ثمانية آلاف بندقية ومقدارًا كبيرًا من القنابل والرصاص والبارود، وكان ذلك يوم الثلاثاء في (٤ رمضان المبارك سنة ١٣٣٤ / ٤ يوليو).

وبعدما فرغ رجال المدفعية من مهمتهم في قلعة «جياد» انضموا إلى الجيش العربي الذي كان يحاصر ثكنة «جرول» وأصلوها نارًا حامية من مدافعهم، وكانت حاميتها تحاول بين حين وآخر أن تخدع العرب برفع العلم الأبيض لتتمكن من الاستراحة وترميم ما دُمِّرَ من الثكنة، ولكن العرب لم ينخدعوا أكثر من مرة بهذه الحيلة الدنيئة التي زادتهم احتقارًا لرجال الحامية، فهجموا عليهم بالسلاح الأبيض، وأكرهوهم على التسليم، وكان ذلك يوم الأحد في (٩ رمضان المبارك/٩ يوليو) بعد غروب الشمس، وبلغ عدد الأسرى الذين أسرهم العرب من حامية هذه الثكنة ثلاثين ضابطًا و١١٢٠ جنديًّا.

ثم استولى العرب على ثغري ليث وأوملج على البحر الأحمر، وكان سقوط أوملج يوم الثلاثاء في ١٦ شوال و١٥ أغسطس.

وفي (٢٤ ذي القعدة/٢٢ سبتمبر) أعلن الأمير عبد الله نجل سيادة الشريف الأعظم وأحد قواد الجيوش العربية سقوط الطائف في قبضة يده بتلغراف أرسله إلى سيادة والده في مكة المكرمة، وقال فيه ما خلاصته: «حضر غالب باشا والي الحجاز وجميع الضباط إلى المعسكر العربي، وسلموا أنفسهم عند منتصف الليل، وانصرف جيشي حينئذ إلى احتلال ثكنات الجنود ومرابطهم في المدينة، فسلمت القوات التركية سلاحها، وخرجت منها، وطوق الفرسان العرب المدينة. وكان جميع السكان يجهلون ما هو جار إلا الذين كان لهم دخل في المفاوضات، وعند الصباح دخلنا المدينة واحتللناها.

وقد بلغ مجموع الأسرى الذين أسرناهم في الطائف ٨٣ ضابطًا و١٩٨٢ جنديًّا و٧٢ موظفًا. وغنمنا عشرة مدافع «ما عدا مدفعًا كنا قد غنمناه منذ أيام»، ووجدنا في مخازن الجيش أكثر من ١٧٠٠ بندقية و٨٠٠ قنبلة وقذيفة و١٦٠٣١٠٨ رصاصة من رصاص موزر.»

وشفع الشريف عبد الله هذا البلاغ المرفوع إلى سيادة والده بقوله: «وإني ألتمس من سيادتكم أن تتفضلوا بالتجاوز عن الضرر الذي لحق بنا من جراء عملهم حتى

يوفقنا الله في جميع أعمالنا، كما أني أسأل سيادتكم أن يُعَامَلَ الأسرى بكل لطف؛ فإن العالم الإسلامي كله ينظر إلينا.»

هذا وقد طهر العرب قسمًا كبيرًا من بلادهم، وبدأوا يعدون المعدات الحربية فيه ليواصلوا زحفهم إلى الأمام. ولما كان احتلال البلاد لا يؤثر كثيرًا في نتيجة الحرب رأوا أن يصرفوا هممهم إلى تنظيم جيوشهم وجعلها قادرة على القيام بالمهمة العظيمة التي أخذوا قضاءها على عاتقهم، وهم لا يحسبون للترك اليوم أقل حساب في البلاد التي صارت في قبضة يدهم؛ لأنهم دمروا سكة الحديد الوحيدة التي تصل شبة جزيرة العرب بمركز القوات التركية، ولأن جميع أمراء العرب وجمعياتهم وزعمائهم وقادة أمورهم يحبذون هذه الحركة ويستعدون للاشتراك فيها، فقد جاهر السيد الإدريسي وأمراء العرب في جنوب الحجاز بصداقتهم لسيادة الشريف الأعظم، ونهجوا خطة العداوة مع الترك، وكذلك الأمير نوري الشعلان. أما الإمام يحيى وابن السعود فأحوالهما الخصوصية ومصالحهما القومية تقتضي بأن يتحدا مع سيادة الشريف والجمعيات العربية عاجلًا أو آجلًا؛ لأن ابن السعود عهد في تنظيم جيوشه إلى بعض المنتسبين إلى تلك الجمعيات، وجعل يعد معداته لتحقيق آمال العرب قاطبة، ولأن معظم قبائله من بني حرب الذين يجلون سيادة الشريف الأعظم ويشدون أزره.

أما الإمام يحيى فعداوته للترك مشهورة، وقد صار الجيش التركي الذي في اليمن في قبضة يده؛ لأن المؤن والمهمات التي كانت ترد على هذا الجيش بطريق الحجاز قُطِعَتْ بقطع سكة الحديد[٢١] واستقلال العرب في تلك الأنحاء، فاليوم الذي تجتمع فيه كلمة أمراء العرب وزعمائهم وقادة أمورهم بعد إعداد معداتهم الحربية بات قريبًا جدًّا، وسيكون يومًا عصيبًا ينال الاتحاديون فيه جزاء الفظائع التي اقترفوها في الأمة العربية باغتيال الأفراد من أبنائها وتصميمهم على سحقها والقضاء عليها.

وبديهي أنه كان في طاقة العرب أن يفعلوا أكثر مما فعلوا إلى الآن، ولكن سيادة الشريف الأعظم أبى سفك الدماء في الحجاز، فأصدر أوامره المشددة إلى قواد جيوشه بتضييق نطاق الحصار على الجنود التركية وإرغامها على التسليم واجتناب سفك الدماء جهد الإمكان، وهو مهتم من جهة أخرى بإعداد جيوشه وتنظيمها وجعلها — كما تقدم — قادرة على القيام بالمهمة التي أخذت على عاتقها قضاءها.

وقد أعلن سيادته الاستقلال والانفصال عن حكومة الاتحاديين بخطاب خطير الشأن وجهه إلى العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها؛ وهذا هو نص الخطاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

كل من له إلمام بالتاريخ يعلم أن أمراء مكة المكرمة هم أول من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم؛ رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين وتحكيمًا لعرى جامعتهم لتمسك سلاطينها «من آل عثمان» العظام طاب ثراهم وجُعِلَ دار الخلد مثواهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله — صلوات الله عليه — وتفانيهم في إنفاذ أحكامهما. ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة ما زال الأمراء المشار إليهم يحافظون عليها، حتى إنني حملت بالعرب على العرب بذاتي في سنة ١٣٢٧ ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين لفك حصار «أبها» محافظة على شرف الدولة. وفي السنة التي تلتها جرت عين هذه الحركة تحت قيادة أحد أبنائي ... إلى غير ذلك مما هو في هذا المعنى كما هو مشهور ومعهود، إلى أن نشأت في الدولة جمعية الاتحاد والترقي، وتوصلت إلى القبض على إداراتها وكافة شئونها، فكانت نتيجته انتقاصها من الممالك ما قوض عظمتها مما عرفه أفراد العالم، وخصوصًا بخوضهم غمرات الحروب الحاضرة وإلقائهم إياها في موقف الهلكة التي لا تحتاج إلى بيان.

هذا لمحض غايات معلومة تأبى إحساساتنا البحث فيها، وتستدعي تفطر قلوب مسلمي المعمورة أسى وحزنًا على دولة الإسلام وتمزيق ما بقي من سكان ممالكها مسلميهم وذمييهم؛[٢٢] فريق منهم بالصلب وأنواع الإعدام، وفريق بإجلائه عن وطنه وعلى الصورة المعهودة والحالة المشهودة، علاوة على ما أُصِيبُوا به في أموالهم وأنفسهم من آفات الحروب، ولا سيما هذه الأخيرة التي كان للأرض المقدسة منها النصيب الأعظم، كما يُعْلَمُ بالإجمال من اضطرار الكثيرين حتى أبناء الدرجة الثانية من الأهالي إلى بيع أبواب دورهم ودواليبها وأخشاب سقفها بعد بيعهم لجميع ما يملكون؛ وذلك للحصول على سد الرمق.

كل هذا وكأن جمعية الاتحاد لم تَرَهُ كافيًا لغرضها، كما يظهر من تجاوزها وإقدامها على إخلال الرابطة الوحيدة بين السلطنة السنية العثمانية وجميع مسلمي المعمورة: ألا وهي التمسك بالكتاب والسنة؛ فقد وصفت إحدى صحفها الموسومة «بالاجتهاد» الصادرة في دار السلطنة السنية سِيَرَهُ

— صلوات الله عليه وسلامه — بشر السير (نسأل الله العافية)، وهذا بمرأى ومسمع من وزير الدولة الأعظم وشيخ إسلامها وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها.

وشُفِعَتْ هذه الجرأة بإلغاء قوله — تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، فساوت بينهما في الميراث، وعززتهما بالطامة الكبرى، وهي هدم أحد أركان الإسلام الخمس: وهو صوم رمضان؛ إذ أمرت الجنود المقيمين بالمدينة المنورة أو مكة المكرمة أو الشام مثلًا بالإفطار في رمضان للمساواة بينهم وبين الجنود الذين يقاتلون في حدود الروس، ولفقت لهذا أقاويل لمعارضة صراحة قوله — تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ ... إلى غير ذلك مما يمس بأساسات الإسلام؛ من الإقدام على المنكرات المعلومة أحكام مرتكبيها من الدين بالضرورة، بعد أن ضربت على يدي شوكة السلطان المعظم وسلبته حتى حق الاقتدار على انتخاب رئيس كتاب (ما بين) سلطنته الشريفة أو رئيس خاصته المبجلة المنيفة، فضلًا عن النظر في أمور المسلمين ومصالح البلاد والعباد، وما في هذا من إسقاطهم لشروط الخلافة التي يطالب بها المسلمون. فوجوب البراءة منهم والحالة هذه مما لا مشاحة فيه، ومع هذا ما زلنا نتناول صحة هذه الجرأة هربًا وحذرًا من نسبة تهمة التفرقة وبواعث الاختلاف، حتى ظهر الخفاء وانكشف الغطاء واتضح أن الدولة أصبحت في يد أنور باشا وجمال باشا وطلعت بك؛ يحكمون فيها بما يشاءون، ويفعلون بها ما يريدون. وأبسط دليل على صحة هذا الأمر الذي ورد أخيرًا لقاضي محكمة مكة الشرعية بأن لا يحكم إلا بالشهادة التي تحررت في محكمته وبين يديه، ولا يلتفت إلى الشهادات التي يكتبها المسلمون فيما بينهم غير مبالين بما في آية البقرة؛ هذا كله من جهة، ومن الأخرى صلبهم في آن واحد لكثير من عظماء أفاضل المسلمين وكبراء نوابغ العرب[٢٣] من «قبل ومن بعد «كالأمير عمر الجزائري، والأمير عارف الشهابي، وشفيق بك المؤيد، وشكري بك العسلي، وعبد الوهاب بك، وتوفيق بك البساط، وعبد الحميد الزهراوي، وعبد الغني العريسي»»، ولا ريب أنه يصعب حتى على ذوي القلوب القاسية إزهاق أنفس الجماعات الكثيرة في آن واحد، ولو كانت من بهائم الأنعام.

وهب أننا التمسنا لهم عذرًا وانتحلنا لهم مسوغًا في قتل هؤلاء الأفاضل، فما المسوغ لنفي عائلاتهم البائسة البريئة من كل ذنب وفيها من الأطفال

والشيوخ وربات الخدور من تنفطر لهم القلوب وتذهب الأنفس حسرات عليهم، ولإذاقتهم أنواع العذاب فوق ما قد جرعوه من سم المصيبة بقتل عميدهم الذي خربت بفقده منازلهم، والله — تعالى — يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؟![٢٤] وإذا انتحلنا لهذه مسوغًا أيضًا، فما الذي يسوغ لهم مصادرة أملاكهم وأموالهم التي يأوون إليها ويعيشون بها بعد أن قضوا على عزيزهم وسلبوا من أيديهم أسباب عزهم؟! وإذا تعامينا عن هذا كله أيضًا وقلنا ربما كان لهم مسوغ سوغه لهم فكيف يمكن أن ننتحل مسوغًا لجرأتهم على قبر الأمير الأبَر والمجاهد التقي الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الجزائري الحسني وإهانته وتحقيره؟!

هذا بعض ما أبدوه من الأعمال، أتينا به مختصرًا تاركين الحكم فيه للعالم الإنساني عمومًا والعالم الإسلامي خصوصًا، وحسبنا برهانًا على ما تكنه صدورهم للدين الإسلامي والعرب رميهم للبيت العتيق الذي أضافتهُ العزة الأحدية لذاتها السبحانية في قوله — تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾، وهو قبلة المسلمين وكعبة الموحدين؛ بقنبلتين من قنابل مدافعهم التي بحصن جياد أثناء قيام البلاد بالمطالبة باستقلالها، وقعت إحداها فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع التهمت بنارهما أستار البيت، حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب، واضطروا إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة على مقام إبراهيم عدا ما وقع منها في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت، وفي هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمته ما نترك القول والحكم فيه أيضًا لعموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، «نعم» نترك الحكم في هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الإسلامي ولكنا لا نترك كياننا الديني والقومي ألعوبة في أيدي الاتحاديين، وقد يسر الله — تبارك وتعالى — للبلاد نهضتها كما وفقها بحوله وقوته لأخذ استقلالها وتكليل مساعيها بالفوز والنجاح بعد أن ضربت على أيدي موظفي الاتحاديين بيننا ورجال حامياتهم،

فاستقلت فعلًا، وانفصلت عن البلاد التي لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالًا تامًّا مطلقًا بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي، جاعلة غيتها ومبادئها نصرة دين الإسلام والسعي لإعلاء شأن المسلمين قائمة في كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه ولا مستند غيره في جميع الأحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول كل ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقي الحديث وأسباب النهضة الصحيحة، باذلة كل ما في الجهد والطاقة لإعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ما قد قمنا به لأداء الواجب الديني علينا، راجين من إخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوا كذلك ما يرونه واجبًا لنا عليهم من أحكام روابط الإخاء الإسلامي، رافعين أكف الضراعة لرب الأرباب ومتوسلين برسول الملك الوهاب، أن يتولانا بالتوفيق ويمدنا بالهداية إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين، والاعتماد على الله العلي الكبير، وهو حسبنا ونعم النصر.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

«وسينشر ملحق لهذا المنشور».[٢٥]

هوامش

(١) هو الشريف حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي محمد بن بركات الأمير بن محمد الأمير بن بركات بن حسن بن عجلان بن رمية أبو عرارة أسد الدين بن محمد أبي نمي نجم الدين بن أبي سعيد الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد الثائر بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الإمام محسن السبط ابن الإمام علي بن أبي طالب من زوجته السيد فاطمة الزهراء بنت «النبي محمد» ﷺ ابن عبد

الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر — قريش — بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركه بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن «عدنان» بن أد بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار بن إسماعيل بن «إبراهيم» — عليه السلام — ابن نارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر «أبو قحطان» بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن «نوح» — عليه السلام.

(٢) أحد أعضاء مجلس الأعيان العثماني، وقد كان — رحمه الله — معارضًا لحكومة الاتحاديين إلى سنة ١٩١٣ فجاء من باريس إلى الأستانة حينئذ واتفق مع جمعية الاتحاد والترقي على أمور لم تنفذ الجمعية شيئًا منها كما مر في هذا الكتاب، واكتفت بتعيينه وتعيين ستة من السوريين والعراقيين في مجلس الأعيان، فصار من ذلك الحين صديق الاتحاديين الحميم، حتى إن فريقًا كبيرًا من أبناء العرب نفر منه واتهمه بالخيانة والعمل مع الحكومة الاتحادية على الفتك ببعض زعماء العرب كعزيز بك علي وغيره. ولما أُعْلِنَتْ الحرب الأوروبية كان اتحاديًّا لا يقل غيرة على الاتحاديين عن أكبر زعمائهم، فوافق الحكومة على إصدار أمر التعبئة العامة، وسعى إلى استمالة العرب إليها. وقد جرى له مع كاتب هذه السطور حديث طويل في هذا الشأن لا مجال لذكره الآن. هذا هو المرحوم عبد الحميد الزهراوي الذي ساقه الاتحاديون ظلمًا وعدوانًا إلى المشنقة في دمشق الشام.

(٣) شاب لبناني خرج من مدرسة الحقوق والمدرسة الملكية في الأستانة، وقد كان من الذين سعوا للاتفاق بين العرب والترك سنة ١٩١٣ راجع [الفصل الثالث: الاتفاق المزعوم بين العرب والترك – وفد الإصلاح في الأستانة] ثم صار صديق الاتحاديين الحميم بعد ذلك التاريخ حتى نفر العرب منه، وكان يتقاضى راتبًا كبيرًا من صندوق جمعية الاتحاد والترقي مقابل خدم عظيمة لا يجهلها أحد من الواقفين على تاريخ المسألة العربية وأدوارها. وقد ظل — رحمة الله — يد الاتحاديين اليمنى في سورية إلى أن نصبت له المشنقة في بيروت، وكان إخلاصه لهم نتيجة حسن ظنه بهم واعتقاده التام بأنهم لا ينوون للعرب شرًّا وأن الأحوال الحاضرة تقضي على الأمتين العربية والتركية بتناسي المنازعات الماضية والاتحاد قلبًا وقالبًا دفاعًا عن الوطن المشترك راجع [الفصل الخامس: إخلاص العرب للاتحاديين – إخلاص أمراء العرب].

(٤) رشدي بك الشمعة أحد أعيان دمشق ومبعوثيها السابقين، انضم إلى الاتحاديين في سنة ١٩١٣ وأُرْسِلَ بمهمة سرية إلى سورية، ولما كشفت تلك المهمة عدل عن تنفيذها

وامتنع عن الاشتغال بالسياسية فلم يَعُدْ يُسْمَعُ له صوت فيها. وقد كان — رحمه الله — من أشد الناس غيرة على الدولة العثمانية، تؤيد ذلك خطبه في مجلس النواب وكتاباته وأعماله. وهو كاتب مجيد وشاعر بليغ ترك آثارًا عديدة تحيي ذكره في علم الأدب.

(٥) المرحوم عبد الوهاب المليجي الملقب بالإنكليزي من أدباء دمشق وخيرة رجالها، أخلص للاتحاديين واعتقد بإخلاصهم للعرب بعد الاتفاق الذي أبرمه معهم المرحوم عبد الحميد الزهراوي، فعُيِّنَ مفتشًا ملكيًّا في إحدى ولايات الأناضول، وخدم الدولة والحكومة الاتحادية خدمًا عظيمة بمعارفه ونشاطه وغيرته على الاتحاديين أنفسهم، وكان يعمل على تعزيز موقفهم في البلاد العربية وإنقاذ الدولة من عواقب الحرب التي خاضت غمارها يوم ساقوه إلى المشنقة في دمشق الشام ظلمًا وعدوانًا.

(٦) هو أحد مبعوثي دمشق، اشتهر بالخطب التي ألقاها في مجلس النواب العثماني دفاعًا عن العرب، ولكنه اعتقد بإخلاص الاتحاديين للأمة العربية بعد الاتفاق الذي أبرمته مع مندوبي الجمعيات العربية في المؤتمر وقبل أن يُعَيَّنَ مفتشًا ملكيًّا في إحدى الولايات العثمانية.

(٧) كان — رحمه الله — من أذكى شبان العرب، تخرج من مدرسة الحقوق والمدرسة الملكية في الأستانة، وكان دائمًا الأول في صفه بين أربعمائة تلميذ، ومما هو جدير بأن يُذْكَر به عظم وطنيته وإعجابه بنشاط الاتحاديين، وقد كان يعتقد أنهم أجدر الأحزاب بتقلد زمام الأحكام في البلاد العثمانية، وظل على هذا الاعتقاد إلى أن ظهرت له فظائعهم بأتم مظاهرها.

(٨) شاب لطيف المعشر، ذكي الفؤاد، تخرج من المدرسة الملكية في الأستانة، وعُيِّنَ موظفًا ملكيًّا في ولاية الشام، ولا يختلف في أفكاره وآرائه السياسية عن صديقه الحميم المرحوم توفيق البساط.

(٩) ضابط من كبار ضباط أركان الحرب في الجيش العثماني، كان — رحمه الله — من أشد الناس وطنية وأعظمهم للبلاد نفعًا، لم يفكر يومًا في الانضمام إلى دولة أجنبية أو الانفصال عن الترك، وقد قال لكاتب هذه السطور في اجتماعه الأخير به بعد إعلان الحرب الأوروبية: «على هذه الحرب يتوقف كيان الدولة ومصير الشرق الأدنى، وسيكون اتحاد العرب قلبًا وقالبًا مع إخوانهم الترك في هذا الحين العصيب أكبر ضمان للمستقبل المجيد الذي ينتظرنا والذي هو مكفول لنا بإخلاص كل فرد منا وتفانيه في

سبيل الوطن المشترك.» وقد اخترع رحمه الله «بركارًا» سماه «البركار العربي» يرسم الرسوم الهندسية على اختلافها، وقرر أن يرسل إلى أوروبا من يسجله له باسمه، ولكن الحرب حالت دون ذلك. قضى المرحوم سليم الجزايري حياته في خدمة الدولة؛ فتخرج من مكاتبها، ودرس في مدرستها الحربية زمنًا طويلًا، واشترك في قمع معظم الثورات الداخلية، وخاض غمار الحرب البلقانية الأولى في بولاير حيث كان رئيسًا لهيئة أركان حرب إحدى الفرق، واسترجعت فرقته مدينة أدرنة في الحرب البلقانية الثانية، وكان أول من دخلها من القواد والضباط العثمانيين، ولما أُعْلِنَتْ الحرب الأوروبية عينته وزارة الحربية في هيئة أركان الحرب في الدردنيل، فكان أحد الذين رسموا للجنرال فون ساندرس تلك الخطة الدفاعية البديعة التي أنقذت الأستانة وحالت دون وصول الحلفاء إليها، ثم عُيِّنَ بعد ذلك في أركان حرب الفيلق العثماني الذي كان مرابطًا في أزمير وضواحيها بقيادة بترو باشا. وبينما هو يحارب هناك دفاعًا عن الوطن المشترك أخذه الاتحاديون من ميدان القتال وساقوه إلى المشنقة في سورية مكافأة له على خدمه الباهرة، راجع [الفصل الخامس: إخلاص العرب للاتحاديين – إخلاص الأمراء العرب].

(١٠) من أدباء بيروت وخيرة شبانها، تخرج في المدارس العالية في فرنسا، وحرر جريد المفيد، جاء مصر بعد إعلان الحرب الأوروبية، وكان في إمكانه أن يبقى فيها إلى أن تنتهي الأزمة وتعود المياه إلى مجاريها، وقد أشار عليه بعض أصدقائه في مصر بذلك فكان جوابه: «إن الوطن في حاجة إلى كل فرد من أبنائه في هذا الأوان العصيب، فمن الخيانة أن لا نقوم بالواجب علينا نحوه.» فهذا الوطني العظيم الذي آثر خدمة الوطن على نعيم مصر ورغد عيشها وعدَّ تقاعده عن خدمته خيانة جازاه الاتحاديون بالإعدام باسم ذلك الوطن الذي خانوه ولطخوه بالعار، وألقوه في وهدة الهلاك والدمار.

(١١) كاتب وشاعر، وُلِدَ في حمص، وتلقى مبادئ العلوم في مدرسة كفتين الإكليركية، ثم تركها وسافر إلى الأستانة لدرس علم الحقوق، وله آثار فيه تدل على طول باعة، وكان — رحمه الله — من أصدقاء المرحوم عبد الحميد الزهراوي والذين سعوا معه لاتفاق العرب والترك وأيدوه في الاتفاق الذي أبرمه مع الاتحاديين، ولم يكن قبل الحرب ينتسب إلى جمعية من الجمعيات، ولكنه كان كثير التردد على المنتدى الأدبي؛ حيث عُيِّنَ مدرسًا للغة الإنكليزية، ومما يُذْكَرُ عنه أنه كان شديد التعلق بالترك، غيورًا على المصلحة العثمانية، وقد قابل خبر التعبئة العامة في بدء الحرب بسرور عظيم، وتطوع في الجيش العثماني ضابطًا في الاحتياطي، وكان يدافع عن الدولة يوم ساقه الاتحاديون إلى المشنقة.

(١٢) من أذكى رجال العرب وأشدهم غيرة على الدولة، زار الأستانة مرتين بعد رجوعه من باريس، فتعرف بزعماء الاتحاديين ولا سيما جمال باشا الذي كان من أعز أصدقائه، ونال من الحكومة امتيازًا بتجفيف أراضي الحولة، وغير ذلك من الامتيازات التي تدل على ميل الاتحاديين إليه. وقد عُيِّنَ رئيسًا لبلدية بيروت بعد إعلان الحرب الأوروبية، وعُهِدَ إليه في تأليف حكومة محلية للدفاع عن المدينة إذا هاجمها الحلفاء، وذلك بعدما قررت القيادة العثمانية الجلاء عنها راجع [الفصل الخامس: إخلاص العرب للاتحاديين – إخلاص أمراء العرب]، وبعد كتابة هذه السطور وردت صحف أميركا إلى القاهرة في أوائل نوفمبر، وفيها أن مختار بيهم لا يزال حيًّا يُرْزَقُ، فنتمنى ذلك من صميم الفؤاد.

(١٣) هو صاحب جريدة الاتحاد العثماني وأحد أعضاء المؤتمر العربي الذي عُقِدَ في باريس والوفد الذي قدم منها إلى الأستانة. كاتب بليغ وخطيب مفوَّه، وُلِدَ في بيروت وشُنِقَ فيها راجع [الفصل الثالث: الاتفاق المزعوم بين العرب والترك – وفد الإصلاح في الأستانة].

(١٤) تخرج في مدرسة الحقوق السلطانية في الأستانة، وعُيِّنَ عضوًا في إحدى المحاكم، ثم دخل في الجيش برتبة ضابط في الاحتياطي. وكان — رحمه الله — لطيف المعشر، ذكي الفؤاد، حسن الصوت، نبيل الخلق، بعيدًا عن كل ما له صله بالسياسة.

(١٥) هو أحد أنجال القائد العربي الكبير الأمير عبد القادر الجزائري، وقد كان — رحمه الله — من رعايا فرنسا.

(١٦) هو شقيق المرحوم محمد المحمصاني، وقد كان موظفًا في مصلحة البريد العثمانية، وشُنِقَ مع أخيه بيوم واحد في بيروت.

(١٧) شاب أديب نبيه، تخرج من مدرسة الحقوق في الأستانة سنة ١٩١٤، ثم عُيِّنَ عضوًا في محكمة بداية حيفا، وقد كان — رحمه الله — من أعضاء المنتدى الأدبي ومؤسسيه.

(١٨) هو صاحب جريدة المفيد التي كانت تصدر في بيروت، ومن خيرة شبان سورية، أتم دروسه العالية في باريس، واشترك في المؤتمر العربي الأول، وهو كاتب بليغ وخطيب مفوه، زار الأستانة مع صديقه مختار بك بيهم سنة ١٩١٤، واجتمع بزعماء الاتحاديين فيها، فاستمالوه بكذبهم وريائهم، وأقنعوه بإخلاصهم وحسن سياستهم وعظم صداقتهم للعرب، وجعلوه يعدل سياسة جريدته «المفيد» التي صارت بعد

رجوعه إلى بيروت من الصحف الموالية لهم. وقد تمكن من الفرار بعدما أدرك سوء نية الاتحاديين، ولكنهم قبضوا عليه لسوء الحظ بجوار مدائن صالح مع رفيقه وصديقه المرحوم توفيق البساط.

(١٩) شاب لبناني من معلقة الدامور، كان رئيس تحرير جريدة النصير التي تصدر في بيروت ومن أدباء سورية وخطبائها المشهورين، ولم يكن له أقل صلة بالأحزاب العربية، أما آراؤه السياسية فتظهر للقراء من كتاب أرسله إلى صديق له في الأستانة في ٢٩ مارس سنة ١٩١٠، وقال فيه ما نصه:

> النصير جريدة عثمانية ولكنها عربية وفي بلاد العرب، وعلى الإنسان أن يخدم المبدأ الأعم ثم المبدأ العمومي؛ فنحن نخدم العثمانية أولًا، ثم العربية ثانيًا، وخطة بعض إخواننا في مسألة الترك والعرب أوجبت علينا أن نتنصل مما يُرْمَى به العرب أجمعهم بدون استثناء؛ لأن مبدأنا وخطتنا هي «أن صالحنا كعرب أن نكون مع إخواننا الأتراك»، هذا وأرجوك أن تلفت نظر طنين إلى ما نكتبه حينًا بعد آخر عن السياسة الداخلية ولا سيما مقالتنا «حياة الدولة بحياة الجمعية» الموقعة باسمي والمنشورة في عدد الإثنين.

(٢٠) هو شفيق بك المؤيد العظم، من أسرة العظم الشهيرة في سورية، ومن مبعوثي دمشق السابقين، وأكبر الماليين في البلاد العثمانية، تقلب في أعظم وظائف الدولة، واكتسب خبرة عظيمة في الشئون السياسية والاقتصادية والإدارية، وقد كان من حزب المعارضين في الماضي وكانت له وقائع مشهورة في مجلس النواب مع طلعت بك وجاويد بك وغيرهما من زعماء الاتحاديين، ولكنه كان من أشد الناس تمسكًا بالعثمانية وأعظمهم غيرة عليها، وقد انفصل عن المعارضين في أثناء الحرب البلقانية، وخدم الحكومة الاتحادية خدمًا عظيمة بعد ذلك، حتى إن فريقًا كبيرًا من أصدقائه السياسيين اعتقد بدخوله في جمعية الاتحاد والترقي. فهذا الوطني الغيور والسياسي المحنك أُعْدِمَ شنقًا في دمشق لسبب حقيقي واحد وهو حقد طلعت بك عليه لما كانا معًا في مجلس النواب العثماني.

(٢١) دمر العرب سكة حديد المدينة للمرة الثانية تدميرًا فنيًّا بخلاف المرة الأولى، ونسفوا الجسور والكباري نسفًا على مسافة ١٥ كيلو مترًا.

(٢٢) قال النبي ﷺ «من آذى ذميًّا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة.» رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود. ومن الأحاديث المخيفة في

هذا الباب ما رواه الطبراني من حديث جابر: «إذا ظُلِمَ أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو.» وفي الوصية بحفظ حقوق أهل الذمة والعهد أحاديث في الصحاح والسنن.

(٢٣) قال الحافظ العراقي: حدثنا سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «يا سلمان، لا تبغضني فتفارق دينك.» قلت: «يا رسول، كيف أبغضك وبك هداني الله — عز وجل؟» قال: «تبغض العرب فتبغضني.» أخرجه الترمذي هكذا في جامعه، ورواه غيره لكن بلفظ «هدانا» بضمير الجمع. أورد هذا الحديث ابن حجر في مبلغ الأدب ولكن بلفظ «لا تبغضني يفارقك دينك.» وقال العراقي أيضًا: عن علي — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبغض العرب إلا منافق.» وعن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يبغض العرب مؤمن ولا يحب ثقيفًا مؤمن.» وقد أورد هذين الحديثين ابن حجر أيضًا في كتابه مبلغ الأدب. وقال العراقي أيضًا في القرب: حدثنا جرير عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول ﷺ قال: «أحبوا العرب لثلاث؛ لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي.» هكذا رواه الطبراني في المعجم الكبير، ورواه الحاكم في المستدرك بعينه. ولحديث ابن عباس شاهد من حديث أبي هريرة رويناه في المعجم الأوسط للطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي.»

وحديث ابن عباس المتقدم حديث صحيح، أورده السيوطي أيضًا في الجامع الصغير عن المعجم الكبير للطبراني والمستدرك للحاكم وشعب الإيمان للبيهقي، وأورده العلامة ابن حجر الهيتمي في كتابه «مبلغ الأدب في فضل العرب»، وأورد فيه لفظًا أخر أيضًا وهو «احفظوني في العرب لثلاث.»

وقال العراقي أيضًا: أخبرنا الهيثم بن جماز عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حب قريش إيمان، وبغضهم كفر، من أحب العرب فقد أحبني، ومن أبغض العرب فقد أبغضني.» أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: حسن صحيح، وله شاهد من حديث ابن عمر رويناه في المعجم الكبير للطبراني من رواية عمرو بن دينار عن ابن عمرو عن النبي ﷺ في أثناء حديث قال فيه: «فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم.» وقد تقدم بإسناده.

وقال أيضًا: حدثنا سالم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «حب العرب إيمان، وبغضهم نفاق.»

وفي مبلغ الأدب لابن حجر: قال رسول الله ﷺ: «من أحب العرب أحبني حقًّا.» أخرجه حبان.

(٢٤) جعل الله — تعالى — أمر نفي المرء من وطنه مقارنًا لأمر قتاله ليرتد عن دينه وسببًا لمشروعية القتال، فقال — تعالى — في تعليل الإذن بالجهاد ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الآية، وفي شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والإحسان ﴿لَا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

(٢٥) لم نتعرض الآن لوصف المسائل السياسية والحربية المتعلقة بحركة العرب، ولعلنا فاعلون إن شاء الله حين سنوح الفرصة المناسبة.

الفصل التاسع

أوروبا واستقلال العرب

إنكلترا والعرب – فرنسا والعرب – الحركة العربية والرأي الإسلامي العام – البلاغات والتلغرافات الرسمية – وفود المسلمين في مكة المكرمة – آراء صحف الغرب وأقوالها

* * *

وقع خبر استقلال العرب أعظم وقع في العالم كله، فماد له الإسلام طربًا، وقابله الحلفاء بابتهاج عظيم والمحايدون بالارتياح التام والجرمان بقلق واضطراب لا مزيد عليهما.

إنكلترا والعرب

ففي (٢٨ يوليو/٢٨ رمضان المبارك) نشرت صحف لندن البلاغ الرسمي التالي، وهذا نصه كما عربته إدارة المطبوعات في مصر:

> منذ سنين والعرب المعذبون بسوء الحكم التركي ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه من استرجاع حريتهم السابقة، وقد قاموا في الماضي بثورات عديدة ضد الاستبداد التركي في البلاد العربية.
>
> وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية في الأستانة وخضوعها التام لسلطة الألمان إلى دخول تركيا مضطرة في حرب مشئومة أوصلت الأحوال فيها إلى حد النهاية، فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء في البلاد العربية.
>
> أن الأوان قد آن لخلع النير التركي عن أعناقهم والمناداة باستقلالهم.

وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائمًا على العرب، ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها في الماضي إلى البقاء على الحياد، أما الآن وقد انضمت تركيا إلى صف الدول الوسطى (ألمانيا والنمسا) فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة في إظهار عطفها على أولئك العرب الذين انخرطوا في عداد الحلفاء ضد العدو المشترك.

على أن بريطانيا العظمى ستبقى محافظة على سياستها السابقة في الابتعاد عن أية مداخلة في الشئون الدينية وعلى بذل غاية جهدها في إبقاء الأماكن المقدسة أمينة من كل طارئ خارجي.

ومن النقط المهمة التي لا تقبل التبديل والتغيير في سياسة بريطانيا العظمى هو أن تبقى هذه الأماكن المقدسة في أيدي حكومة إسلامية مستقلة.

ولا يخفى أن أحوال الحرب الحاضرة تلقي العقاب الكثيرة والأخطار في سبيل الذين يرغبون في القيام بفريضة الحج، ولكن العمل الذي قام به شريف مكة يجعل الأمر كبيرًا في اتخاذ التدابير اللازمة التي تمكن الحجاج في المستقبل من زيارة الأراضي المقدسة بسلام واطمئنان.

وفي (١٨ يونيو/٢٧ شعبان) وقف اللورد كرومر في مجلس الأعيان البريطاني، وألقى خطبة عن ثورة العرب قال فيها ما خلاصته نقلًا عن جريدة التيمس:

إن الأخبار التي نشرتها الصحف عما جرى في جزيرة العرب عظيمة الشأن جدًّا، ومن رأيي أنها داعية إلى الارتياح أيضًا، ومما يزيدها وقعًا في النفوس أنها حدثت على حين غرة وبلا انتظار؛ أما كونها خطيرة الشأن فلأن كل ما يختص بالمواطن المقدسة يثير اهتمام العالم الإسلامي كله تقريبًا، وأما كونها داعية إلى الارتياح فلأن في العمل الذي قام شريف مكة وسائر المشتركين معه دليلًا على ثقتهم التامة في الإعلان الذي أصابت حكومة جلالة الملك في نشره في أول الحرب، وهو أنها لا تنوي الدخول في شئون إدارة أهل الحجاز أو استقلالهم.

قلت إن هذه الحركة لم تكن منتظرة، ومع أن جزيرة العرب كانت في حالة ثورة مزمنة في السنين العديدة الماضية، فلو سئل المطلع على شئون الشرق لَنَفَى احتمال حدوث ثورة فيها، وقد كانت ظواهر الحال تدل على أن

الفوز الذي أحرزه الأتراك (العثمانيون) في كوت الإمارة يكفي لخنق فكرة الثورة في بلاد العرب قبل اكتمالها، ولكن الحقيقة جاءت مناقضة لها، فكان لنا من ذلك عبرة جديدة تضاف إلى مئات من العبر التي تقدمها، وهي أنه يستحيل على الأوروبي أن ينبئ بما سيقع في الشرق؛ إذ جل ما نعرفه عنه هو أن نتوقع فيه حدوث غير المنتظر وما ليس في الحسبان.

وعقبه اللورد بريس، فسأل عن صحة ما روته الصحف من أن شريف مكة دمر قسمًا من سكة الحديد شمال المدينة المنورة، وقال: «إني أود الوقوف على أحوال بلاد العرب ولا سيما سورية، تلك البلاد التعسة التي حلت بها المجاعة وتفشت فيها الأمراض بسبب جور الحكومة الاتحادية وما ابتدعته من المظالم التي لم يسمع بمثلها من قبل.»

فأجاب المركيز كرو بما يأتي باسم الحكومة قال: «لا يسعني أن أزيد على ما نشرته الصحف عن سير الحال في جزيرة العرب شيئًا يُذْكَر سوى أن حكومة جلالة الملك لم تُؤْخَذْ بأخبار بلاد العرب على غرة، فقد كانت خطة الحكومة من أول الأمر إلى آخره وجوب المحافظة على الأراضي المقدسة في الحجاز والعراق العربي تحت سلطة إسلامية، على أنه لما ظهر أن الحكومة العثمانية أخذت تضيع منزلتها كالدولة الممثلة للدين الإسلامي والعالم الإسلامي الحقيقي بفعل النفوذ الأجنبي والسيطرة الألمانية، اتضح أن حدوث ثورة كالثورة التي جرت الآن لم يكن بعيد الاحتمال؛ فإن الحكومة العثمانية أخذت تضيع حقها كممثلة للإسلام منذ مدة طويلة؛ ولذلك لم يَبْقَ مجال للدهشة والاستغراب مما قام به قوم يعدون أنفسهم الممثلين الحقيقيين للدين الإسلامي.»

قال: «ولا يسع أحد منا أن يردع نفسه عن العطف والميل إلى أولئك الذين يفرغون قصارى جهدهم في نزع النير الأجنبي عنهم.

أما العامل الآخر الذي يحملنا على العطف على المساعي التي يبذلها العرب لتحرير أنفسهم من ربقة السيادة التركية، فهو أن هذه الحرب أثرت في موسم الحج تأثيرًا عظيمًا أوجبته الضرورة الحربية على كره منا، وقد كان ألوف وألوف من رعايا جلالة الملك يحجون من الهند وما ورائها شرقًا إلى المواطن المقدسة، ويُحْتَمَل أن ما جرى الآن يسهل إعادة موسم الحج الذي قضت الضرورة بالدخول في شأنه بسبب حصر الموانئ العثمانية على سواحل جزيرة العرب وينشطه تنشيطًا عظيمًا.

وليس عند الحكومة ما ينفي صحة خبر تدمير سكة حديد الحجاز، ولكن ليس لديها أخبار أو معلومات أخرى بهذا الصدد.»

واستطرد الكلام إلى سورية فقال: «إن عند الحكومة ما يؤيد صحة الأخبار عن حالتها المفتتة للأكباد، فإن الأتراك أطلقوا تحت جمال باشا عقال الجور فيها، ومدوا يد الشدة والقسوة إلى أعيان السوريين الذين وقعت عليهم الشبهة عند الحكومة الاتحادية، وقد أُعْدِمَ عشرون على الأقل من أصحاب المكانة والوجاهة ونُفِيَ كثيرون سواهم أو سُجِنُوا، وعلاوة على ذلك أن في سورية الآن تلك الحالة المرعبة التي أشار إليها اللورد بريس. فقد ضرب الأتراك نطاقًا محكمًا على لبنان وأخذوا يجوعون أهله بهذا الحصر ويحرمونهم من حاجيات المعيشة، وقد خاطبت الحكومة الأميركية الحكومة العثمانية — أو هي تخاطبها الآن — مشيرة إلى ما في هذا العمل من المخالفة للسير المعتاد الذي تجري عليه الحكومات المتمدنة.

ولكن يصعب أن نفكر بطريقة أخرى تمكننا من تفريج كربة هذا الشعب التعس.

ولا غرو إذا قلقنا أشد القلق لسوء المصير الذي يحيق بأهل سورية بعد الذي رسخ في الأذهان مما حل بأرمينية، وأن الفرنسويين الذين يهتمون بمصير مسيحيي سورية أشد اهتمام يهمهم مصير المسلمين السوريين أيضًا، ومن البديهي أن مستقبل سورية يشغل بال الحكومة جدًّا، ورجاؤها الوحيد أن الفوز الذي يمكن إحرازه في أنحاء العالم المختلفة من الوجهة الحربية قد يساعد على حل هذا المشكل.

وقد ظهر الآن أن الأتراك هاجموا كربلاء وأطلقوا النار على أحد مشاهدها، ويُسْتَنْتَجُ من ذلك أن الجانب الأكبر من العرب سكان تلك الشقة في العراق العربي معادٍ للحكومة التركية وناقم على حكمها.»

وقالت جريدة التيمس الشهيرة في مقالة افتتاحية أنشأتها عن ثورة العرب ما ترجمته:

> إن الخبر المدهش الذي أُذِيعَ اليوم عن أن عرب الحجاز طردوا الأتراك من مكة المكرمة وأعلنوا استقلال بلاد العرب سيكون له أعظم وقع في العالم الإسلامي، ويحدث هزة في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وقد استولى العرب أيضًا على جدة ميناء مكة، وسلمت حاميتها التركية إليهم، ودانت لهم مدينة الطائف الواقعة على مسافة سبعين ميلًا إلى الجنوب الشرقي من مكة وهي الآن في قبضة يدهم.

وحاصر العرب الآن المدينة ثاني الحرمين الشريفين؛ حيث قبر نبي المسلمين، والأدلة متوفرة على أن الثورة العربية أخذت تمتد وراء الحجاز ويتسع نطاقها.

وزعيم الحركة العربية الحاضرة سيادة شريف مكة، ولا نخطئ إذا استنتجتا أن لأنجاله الموصوفين بالمقدرة والكفاءة يدًا كبيرة فيها، أما «الشريف الأعظم» فهو أمير مكة الحقيقي، وقد كان له دائمًا نفوذ كبير وسلطة واسعة في غرب شبة جزيرة العرب وأوسطها، وهو سليل بيت إمارة متحدرة من نبي المسلمين، ووظيفته زمنية ومصطبغة بالصبغة الدينية. ومع أن سلطان تركيا كان يعين أشراف مكة في عقود السنين الأخيرة، فإن معظم هؤلاء الأشراف كانوا يتمتعون بشيء كثير من الاستقلال، والمسلمون يحترمون شريف مكة احترامًا عظيمًا؛ لأنه من عترة النبي وصميم قريش قبيلة النبي.

وعندنا أن الثورة التي شبت نارها في مكة تقدمتها فتنة مثلها في كربلاء بالعراق العربي، وهي مدينة يجلها الشيعة لاحتوائها على قبر الحسين سبط النبي، والمفهوم أن الأتراك طُردُوا كلهم منها.

وليست هذه أول مرة انتُزِعَتْ فيها الولاية على الأراضي المقدسة من يد الترك العثمانيين الذين ادعوا حق الولاية عليها منذ أربعة قرون فقط، فقد قام منذ مائة سنة الوهابيون الذين راموا إحياء شعائر الدين الإسلامي القديمة وطردوا الأتراك من الحرمين الشريفين وسائر شبه جزيرة العرب وكربلاء أيضًا.

واعترض للترك منذ حاولوا بسط سيادتهم على شبه جزيرة العرب فتن متوالية وثورات متعاقبة، اضطروا إلى قمعها وإخماد نارها بسوق الجيش وإراقة الدماء، ولم يتسن للترك غزوة ولاية اليمن إلا في سنة ١٨٧٢، ومع ذلك لم يتمكنوا من تدويخها، وقضوا تلك السنين الطوال يحاربون أهلها حربًا عوانًا لم تخمد لها نار.

وقام العرب في سنة ١٩١٣ على الحامية التركية في الحسا وطردوها من تلك الأنحاء ذليلة مهانة، فالتجأت إلى باخرة بريطانية كانت منحدرة في خليج العجم فنحت.

أما في بلاد العسير جنوبي الحجاز تمامًا فقد ثار السيد الإدريسي منذ سنة ١٩٠٩، وشق عصا الطاعة على تركيا ونادى باستقلاله.

ولا نعيد في هذا المقام ذكر الحوادث المتقدمة، وهي قليل من كثير مما جرى في بلاد العرب؛ إلا لنظهر أن ما يجري في مكة والمدينة الآن ليس إلا النتيجة الكبرى للأميال التي انقضى عليها زمن طويل، وهي تنمو وتتأصل في نفوس العرب وتتعاظم تدريجيًّا.

وقد أنبأت التيمس بحدوث هذه الحوادث في مقالة افتتاحية نشرتها في ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٣ أشارت فيها إلى تجدد القوة العربية وملازمة الضعف للترك في شبه جزيرة العرب، وقالت إن طرق الحرمين الشريفين «باتت الآن تحت رحمة زعماء العرب المنصورين.»

وللثورة التي شبت نارها الآن في الحجاز عاملان؛ أحدهما كان يعمل منذ قرون عديدة، والآخر منذ سنوات، أما العامل الأول فهو أن العرب لم يذعنوا لحكم الترك ولا تمكن الترك من تدويخ بلاد العرب وإخضاعها إخضاعًا حقيقيًّا، ولم يمد عبد الحميد سكة حديد الحجاز إلى المدينة إلا توقعًا لقيام العرب يومًا وانتزاعهم الأماكن المقدسة من الترك مرة أخرى، فأنشأ هذه السكة ليتمكن من نقل الجنود بها إلى الحجاز على جناح السرعة وبأعظم عدد ممكن.

أما العامل الثاني وهو الأهم، فهو أن جماعة المتآمرين الذين استبدوا بالحكم في تركيا جحدوا الدين الإسلامي وارتدوا عنه، فلما اشتد ساعد عصابة الغجر الغرباء والملحدين المسيطرين على الجمعية الاتحادية ثبت حينئذ أنه لا بد للمسلمين الحقيقيين في بلاد العرب الذين أكبر زعمائهم شريف مكة من طرد الترك من مكة المكرمة.

ولما رأى الناس في الخريف الماضي أن تركيا زال كيانها كدولة، وأن أنور باشا وزملاءه باعوا البلاد للألمان وقبضوا ثمنها ذهبًا وهاجًا، وأن الضباط البروسيين صاروا الوراثين الحقيقيين للسلطة التركية وقد استأثروا بالسيادة كلها؛ اتضح لهم أن آخرة تركيا دَنَتْ وأجلها قرب.

وكان لتركيا مقام في العالم الإسلامي واحترام في نفوس المسلمين لما كانت متمتعة باستقلالها، ولكنها بعدما صارت ولاية ألمانية وصار وزراؤها يتلقون الأوامر من برلين جهارًا أضاعت سلطتها وهيبتها وقضت على نفسها بنفسها.

وقد أنبأ أغا خان بما سيقع من الحوادث في رسالته التاريخية إلى مسلمي الهند وسائر الأملاك البريطانية لما شبت نار الحرب مع تركيا، فقال إنه إذا فازت ألمانيا فتركيا تصبح خاضعة لألمانيا ويصير «المقيم» النائب عن إمبراطور ألمانيا الحاكم الحقيقي لتركيا والمشرف على إدارة شئون الحرمين الشريفين، ثم قال: «أما الآن وقد جعلت تركيا نفسها آلة بيد الألمان، فإنها لم تخرب نفسها فقط، بل أضاعت ما كان لها من الزعامة على الإسلام، ولا بد أن يدركها الشر.»

فطرد الأتراك من مكة الآن هو ما قصده أغا خان وعناه بكلامه الآنف الذكر، فقد أنكر العرب الذين نقموا للإسلام ثأروا له ما يدعيه الترك لأنفسهم من حق السيادة وخدمة الحرمين الشريفين.

والواجب علينا أن لا نغفل الوجهة الزمنية من هذه الثورة الغريبة، فإن للعرب أسبابًا عديدة عظيمة الشأن للشكوى، فقد عوملوا في سورية أخيرًا معاملة تقشعر منها الأبدان وعلى آخر طرز ابتكرته القرائح الألمانية من أساليب الجور والفظاعة، وعلاوة على ذلك أن الأتراك عكفوا في كل مكان دخلوه في بلاد العرب على ضرب الضرائب الباهظة وجمعها وابتزاز أموال الناس، ولم يحسنوا حكمه ولا أعاروا إدارة شئونه أقل التفات، فالحركة العربية القومية ليست إلا نتيجة مباشرة لسوء الحكم والعسف، والمرجح أن الذين قاموا بها اغتنموا فرصة فوز الغرندوق نقولا في أرمينية فهبوا إلى الثورة.

إن زعماء العرب موصوفون بالفطنة والحصافة، وآراؤهم السياسية صحيحة، وأحكامهم فيها بوجه الإجمال صائبة سديدة، فلم يُخْدَعُوا بانسحابنا من الدردنيل ولا بالحادث المشئوم الذي اتفق لنا في كوت الإمارة، بل رأوا النبوءة بقرب زوال تركيا مسطورة على لوح القدر، فاتخذوا لذلك عدتهم، وعمدوا إلى التدابير التي أقروها منذ زمن طويل لمثل هذا الأوان.

وإذا نظرنا إلى ما جرى في الحجاز حتى الآن من الوجهة الزمنية ألفيناه من شئون العرب البحتة ومسائلهم الداخلية، أما إذا نظرنا إليه من الوجهة الدينية فإننا نراه يهم العالم الإسلامي أيضًا، ولكنه لا يتعداه إلى سواه.

وقد أعلن الحلفاء في أوائل سنة ١٩١٥ إعلانًا قاطعًا فاصلًا أنهم لا يدخلون في المسائل الإسلامية التي تكون مصطبغة بالصبغة الدينية البحتة،

فأحسنوا صنعًا؛ لأن مثل هذه المسائل التي تؤثر في أمر الولاية على المواطن الإسلامية المقدسة قد تؤدي إلى مشاكل عويصة عظيمة الشأن.

ولا بد لنا في الختام من التنبيه إلى أمرين؛ أولهما: أنه وإن يكن العرب قد استولوا على مكة فقد بقي عليهم أن يحافظوا عليها، فإن للأتراك عددًا كبيرًا من الجنود المحشودة في فلسطين، ثم إن قبائل العرب كانت تنقصها روابط التآزر والاتحاد في القرون العديدة الماضية، وعليها أن تبرهن الآن على اجتماع كلمتها وشدة اتحادها وتآزرها ونبذ عوامل التفريق بينها.

أما الأمر الثاني: فهو أن الواجب على صحف هذه البلاد — بريطانيا العظمى — أن تراعي الحذر والاحتراس وعدم الاندفاع في ما تعلقه على الأخبار التي تصل إليها من بلاد العرب، فلا تحاول أن تؤول البلاغات والأنباء بأكثر مما تتضمنه حقيقة أو تسوغه الحال في هذا الأوان؛ لأن كل كلمة لا يُعْنَى بكتابتها العناية التامة يصل صداها إلى الشرق وتترك فيه أثرًا في الأذهان.

فرنسا والعرب

وما كادت تظهر الحركة العربية في أرض الحجاز المباركة حتى فكرت فرنسا في الإعراب عن صداقتها نحوها وعطفها عليها، فأرسلت إلى سيادة الشريف حسين شريف مكة وأميرها ورافع العلم العربي بعد انطوائه وفدًا من خيرة رجال المسلمين في المغرب الأقصى والجزائر وتونس، يعربون له عن ميل الحكومة الفرنسوية والمسلمين الذين تحت حكمها إلى العرب وحكومتهم الجديدة، فأرسل سيادته تلغراف شكر إلى رئيس الجمهورية الفرنسوية إثر وصول رجال هذا الوفد إلى الحجاز، وهذه ترجمة التلغراف:

> أبشركم بسرور لا مزيد عليه بوصول الوفد الإسلامي الفرنساوي المؤلف من ملكيين وعسكريين، فقد استقبله الأهالي استقبالًا فخيمًا يليق بمقامه، فأهلًا ومرحبًا به، وإنا لنشكر من صميم الفؤاد الذين أوفدوه إلينا، ونعرب للأمة الفرنسوية عن إعجابنا بعملها في هذا الوقت الذي تدافع به هي وحلفاؤها عن المدينة وحقوق الأمم، وما خلا ذلك فإن التاريخ لأكبر شاهد على العواطف الكريمة التي أظهرتها الأمة الفرنسوية للإسلام والمسلمين؛ لهذا أتمنى من

صميم فؤادي دوام هذه العواطف، وأعرب لحضرتكم عن أخلص عواطفي لشخصكم الكريم وللأمة الفرنسوية.

حسين

فأجاب المسيو بوانكاره بالتلغراف التالي. وهذه ترجمته:

عن قصر الإليزه في باريس
إلى صاحب العظمة الحسين بن علي شريف مكة المكرمة وأميرها

إنني أشكر لعظمتكم تفضلكم بذاتكم بإخباري عن وصول الوفد الذي ندبته إلى عظمتكم حكومة الجمهورية الفرنسوية، ولم يكن عندي أدنى شك بالمقابلة الودية التي أقمتموها له، وليكن لعظمتكم تمام الثقة بأن الأمة الفرنسوية تتمنى بمنتهى الإخلاص النصر المبين لجيوشكم، وإني أشاطرها بنفسي هذه العواطف، وأتمنى لعظمتكم الفوز.

رايمون بوانكاره

وأنشأت جريدة الطان الشهيرة مقالة في العرب قالت فيها ما ترجمته:

إن الفوز الجديد الذي أحرزته جنود الشريف حسين[١] وسع الدائرة التي قامت على أسس ثورة مكة، معيدة استقلال العرب. ولم يعترف أمراء مكة بسلطة الحكومة العثمانية إلا رغبة منهم بتعزيز شأن الإسلام؛ لذلك أبوا اليوم أن يخضعوا لنفوذ حركة تركية بيعت للأجنبي يديرها أناس أصحاب بدع وزندقة، فلما رأى الشريف الأعظم الذي يسميه العرب «ابن النبي» الواقف على مجاري السياسة في العالم ضغط يد الألماني على الأستانة، وأن هذه اليد تزداد عليها ضغطًا يومًا فيومًا؛ بدأ يحاذر المطامع الألمانية التي استكشفها تحت ستار مواثيق الحاج غليوم[٢] الكاذبة، فبدأ منذ ذلك العهد الجديد الذي حمل إمبراطور ألمانيا شيخ إسلام الأستانة عليه، ولكنه بدأ ضد الأتراك عبيد ألمانيا وأذلائها لا ضدنا.

إن الحركة العربية التي بدأت في مكة ذات شأن على رغم كونها محلية إلى الآن، والفوز الذي يؤيد هذه الحركة التي قام بها شعب مظلوم ويدعمها

ينزع من يد سلطان الأستانة النفوذ الذي أكسبه إياه بسط نفوذه على أرض الحجاز، فالسلطنة العثمانية التي كُسِرَتْ في أرمينيا والتي ستُقْطَعُ صلاتها غدًا بأوروبا أخذت منذ اليوم تتهدم في جهة الجنوب من بلادها، فالثورة تتمخض اليوم في صدور العرب الأبية بعد أن لبثت منذ قرن مضى؛ أي منذ ثورة الوهابيين تظهر للوجود حينا بعد حين في ثورات اليمن المتوالية.

لقد استعادت أرض الحجاز المقدسة استقلالها، وتبادل الأمير حسين الشريف الأعظم الرسائل البرقية مع رئيس حكومة الجمهورية، وهي توازي الاعتراف بهذه الحكومة الإسلامية الجديدة صديقة فرنسا، فقد شكر الشريف حسين رئيس الحكومة على إرسال البعثة الإسلامية الملكية العسكرية التي ذهبت لتحييه ولتعرب له عن صداقة فرنسا للعالم الإسلامي وإخلاصها له. ويستطيع المسلمون اليوم زيارة مكة المكرمة أحرارًا بعد أن ارتفع عنها نير الاتحاديين. ففرنسا مسرورة في الإعراب عن صداقتها لهم بمساعدتهم على الحج، وفي تحية الشريف حسين تحية الرئيس الديني والمدني الذي أعاد إلى قلب بلاد العرب حكومة عربية مستقلة، لا تزعجها أية مداخلة أجنبية وأي نفوذ خارجي.

وأنشأت الطان مقالة أخرى بعنوان «مذابح سورية واستقلال الحجاز» قالت فيها ما خلاصتُه:

«طلبت اللجنة الخارجية في مجلس النواب الفرنسوي من حكومة الجمهورية أن تتخذ التدابير الفعالة لتوقيف الفظائع التي جعل الأتراك يرتكبونها في سكان سورية، في حين أن عرب الحجاز قاموا على الترك وضربوهم ضربة شديدة، وخلعوا النير العثماني عن عاتقهم. فبينما العرب العثمانيون يُضطهدون ويموتون جوعًا ويُشْنَقُون في لبنان ودمشق، نراهم بين جده والمدينة المنورة يعمدون إلى القوة دفاعًا عن حقوقهم. وهاتان الحادثتان مهما اختلفت أسبابهما تعرضان أمامنا الخطة السياسية التي اتبعناها في تركيا، فإن فرنسا التي راعت التقاليد أكثر من العقل والمنطق نهجت في البلاد العثمانية خطتين متناقضتين قبل الحرب، فكانت تدافع عن الأمم المحكومة من جهة، وتعمل على تقوية مركز الاتحاديين المالي من جهة أخرى، ثم إنها جعلت حمايتها لتلك الأمم دينية محضة مراعاة للتقاليد، فرمت بسياستها إلى الدفاع عن لبنان وهي تجهل أحوال سورية وبالتالي أحوال بلاد العرب أكثر من سورية.

ولقد كانت هذه الحماية مذبذبة وغير فعالة، فأدت إلى إيقاع الأمة التي تود حمايتها في المشاكل من غير أن تعمل على توقيتها سياسيًّا واقتصاديًّا، وكنا في تلك الأثناء نوالي عقد القروض مع الاتحاديين الذين أخذوا عن عبد الحميد سياسة اضطهاد العناصر غير التركية التي كانت ولا تزال سببًا في الحروب الداخلية والخارجية أيضًا، فلما أُعْلِنَتْ الحرب الأوروبية أسفنا على الملايين التي أقرضناها للترك، ولكن سبق السيف العذل.

قام الشريف اليوم وأعلن الثورة في الحجاز، فقلقت حكومة الترك لذلك قلقًا شديدًا؛ لأن غاية هذه الثورة الدفاع عن حقوق أمة مضطهدة.

أما السوريون ولا سيما اللبنانيين منهم فلم يساعدهم الحظ على إظهار كفاءتهم في هذه الحرب، وكل ما أصابهم منها أنهم حُوصِرُوا واضطهدوا ونالوا نصيبهم من مصائبها وويلاتها، ومما زادهم شقاء من الوجهة الاقتصادية الحصر البحري الذي اضطر الحلفاء إلى إعلانه لأسباب حربية، فعضهم الجوع بنابه قبل أن يُلْقَوا في غياهب السجون، وقد كان في طاقتنا — على ما يُظَن — أن نخفف ويلاتهم ومصائبهم بواسطة الدول المحايدة أو بمساعدتهم على الخروج من بلادهم بطريق البحر.

وقد صار اليوم المفكرون اللبنانيون وأعيان العرب في دمشق عرضة لما يسمونه بالعدل التركي؛ فتوالت حوادث النفي والشنق بلا انقطاع، وساد حكم الإرهاب البلاد.

زار أنور باشا سورية وبرحها بعدما أصدر أوامره القطعية إلى حكامها بدليل ما نراه فيها اليوم؛ إذ الفعل ينم على فاعله، فلماذا لم نسلح السوريين؟ سؤال كان يحتمل الأخذ والرد يوم كنا نخشى أن تقع الشبهات عليهم، أما اليوم فيجب أن نفكر في إنقاذهم فقط.

إن الحالة في سورية حرجة، وإنكار هذه الحقيقة يدل على التشيع، وقد كان في إمكاننا أن نمنع عن السوريين قسمًا كبيرًا من المصائب التي نزلت بهم لو فكرنا في ذلك قبل الآن؛ إذ لا يكفي أن نقول للعرب إننا نحبكم، بل يجب أن نساعدهم ونشد أزرهم في الدفاع عن كيانهم ومستقبل بلادهم.»

وأنشأ المسيو هربيت الكاتب والسياسي المشهور فصلًا في جريدة «ايكو-دي باري» بمناسبة إرسال البعثة الإسلامية إلى الحجاز قال فيه: «إن فرنسا لا تحاول أن تستعمل حول الأماكن الإسلامية المقدسة أدنى نوع من النفوذ السياسي أو الديني، وأنها ترى لسيادة شريف مكة الحق في الاستقلال التام، وتترك للمسلمين أمر انتقاء الرجل الذي يحق له أن يكون خليفة.»

ونصح أحد كبار الكتاب الفرنسويين حكومته بإبرام اتفاق دائم بين فرنسا وإنكلترا والعرب ... إلى آخر ما ذُكِرَ في هذا الموضوع، ويضيق نطاق الكتاب عن نشره.[٣]

العرب والدول الأوروبية الأخرى

وقع خبر استقلال العرب أعظم وقع في أوروبا؛ فأعرب القائد الروسي لجيش القوقاس عن سرور جنوده المسلمين بحركة العرب، وأصدرت حكومة بتروغراد أمرها بمعاملة الأسرى العرب العثمانيين معاملة خاصة، وأعربت إيطاليا وسائر دول الحلفاء عن عطف شديد على العرب.

أما المحايدون فقد قابلوا خبر استقلال الشريف الأعظم بارتياح عظيم، واعترفوا بما للعرب من المزايا التي تؤهلهم للاستقلال وتكفل لهم تجديد مجدهم المندثر.

واستولى القلق على الألمان والترك وحلفائهم من جراء الحركة العربية، فقال أحد رجال الترك إن هذه الحركة أكبر ضربة على تركيا أصابت منها مقتلًا. وأنشأ الكاتب الألماني الشهير الهرمكسميليان هاردن فصلًا سياسيًّا خطير الشأن، تكلم فيه عن ثورة العرب فقال: «إذا تمكن الأمير حسين شريف مكة من استمالة العرب إليه، فإن إرادته تصبح أمرًا مطاعًا لا يُخَالَفُ ولا يُنَازَعُ في سورية والعراق وطهران وأصفهان وأفغانستان، ويقضي على نفوذ ألمانيا في الشرق القضاء المبرم.»

وقال كاتب كبير مقيم في سويسرا: «وصلت الأخبار إلى هنا — سويسرا — بأن جمال باشا أصبح في وجل وخوف لا مزيد عليهما من النهضة الحجازية، خصوصًا بعدما يئس من مساعدة الأستانة له بالجيش، فقد طلب عشرين ألف جندي للمحافظة على سوريا، فجاء الجواب برفض طلبه؛ لأن الأستانة لا تستطيع أن تستغني عن جندي واحد، ولأن الذخيرة والمدافع قليلة جدًّا.

وقد بحثت مع كثير من الاتحاديين الموجودين في سويسرا، ومن جملتهم جاويد بك وأحمد رضا بك ورفعت باشا، فوجدتهم مقدرين أهمية الحركة العربية وعالمين بأنه لا يقف شيء في طريق وصول العرب إلى الاستقلال.»

المسلمون واستقلال العرب

نشرت جريدة التيمس في ٢٦ يونيو و٢٥ شعبان تلغرافًا من مكاتبها في بومباي في الهند قال فيه:

> إن المسلمين الهنود يرقبون سير ثورة العرب في الحجاز باهتمام لا مزيد عليه، وهم يرجون أن يتمكن سيادة الشريف الأعظم من تأمين طريق الحج، والمسألة التي تشغل بال المسلمين الهنود هي: هل يفوز الشريف حسين ببسط سيادته الزمنية على البلاد؛ لأن مسلمي الهند يحترمون السلطة الزمنية كالسلطة الروحية.

وأذاع شبان البوسنة والهرسك المسلمون المقيمون في خارج بلادهم المنشور التالي وهو:

> نحن شبان البوسنة والهرسك المسلمين راضون بالإجماع عن عمل الشريف حسين أمير مكة المكرمة، ونبرر قيامه على الاتحاديين الذين سببوا خراب البلاد الإسلامية وهلاك أهلها في سائر الأنحاء باتخاذهم سياسة عوجاء تضر بمصالح الإسلام والمسلمين، وقد رأينا من الواجب إظهار اعتمادنا وموافقتنا لجميع الوسائل التي يتخذها سيادة الأمير لتحقيق شعائرنا الدينية وحفظ كيان الإسلام الذي يتلاعب به فتيان الترك، ونرى أن ما عمله الاتحاديون الملاحدة المارقون لشد أزر الدولتين التوتونيتين عار علينا وعلى الإسلام.
>
> وليس لتركيا أدنى عذر تبرر به تهورها بإعلان الجهاد في مصلحة الدولتين الجرمانيتين اللتين تُحْسَبَان عدوتين للإسلام، فهي إذن مسئولة عن سياستها العوجاء أمام سيادة الشريف والعالم الإسلامي، ونحن نعلم الأساليب التي تحكم بها الحكومة الجرمانية رعاياها، ونعرف تلاعبها بأمورنا الدينية.
>
> ولا يسعنا إلا الهتاف للأمة العربية التي نهضت للدفاع عن حرمة الدين القويم ولإغاثة المسلمين. نسأل الله أن يوفق الشريف حسين وجميع الأبطال القائمين لنصرة كيان الدين. فعليه نرى من الواجب إظهار إخلاصنا وعواطفنا للذين يبذلون أثمن ما عندهم للدفاع عن مبادئ حرية الأديان والشعوب.

وقد سبقت الإشارة إلى الوفود الإسلامية التي وصلت إلى مكة المكرمة في أواخر شهر ذي القعدة (سبتمبر) للإعراب عن عواطف المسلمين نحو العرب، فرأينا أن نجمل في هذا المقام الخطب التي ألقوها على مسامع سيادة الشريف الأعظم في مقابلته الرسمية لهم، قال مندوب جلالة سلطان المغرب الأقصى:

سيدي، إني أرفع لجنابكم العالي بالله ما أمرني به جلالة أميرنا المؤيد سلطان المغرب مولانا يوسف ابن السلطان مولانا الحسن: بعد التهنئة لمقامكم الرفيع الجليل، وتأدية التحيات اللائقة بمنصبكم الأسمى الملحوظ بعين الاحترام والتبجيل:

فإني بحسب النيابة عن جنابة الشريف أعرب لكم بلسان العجز عما داخله من السرور باسترجاع السيطرة العربية إلى مقرها الأصلي، باستقلالكم التام، مجددًا الروابط الودية والتذكار فيما سلف لسلفه الطاهر مع سلفكم الطاهر من المصاهرة.

فأرجو من حضرتكم قبول احتراماتي وتشكراتي لجنابكم في الإشارة بما يناسب في النظر في الوقف الذي عزمت الحضرة الشريفة على إبرامه وفق ما تشيرون به بعد المفاوضة فيه مع جنابكم الشريف ورئيس الوفد والخديم.

وها كتاب مولانا — أيده الله — مزفوف لسيادتكم بكل سرور، فاقبلوا هديته المباركة، ولكم مزيد الشكر ودوام الجود.

وقال مندوب سمو باي تونس:

أيها الأمير الخطير

لقد كان لاستقلالكم رنة عظيمة بين جميع طبقات المسلمين بأفريقية، وقد أسرع سمو مولانا — دام عزه وعلاه — سيدنا ومولانا محمد الناصر باشا باي صاحب المملكة التونسية بتبليغ واجب التهاني. وأصدر للعاجز إذنه المطاع في تأسيس حبس من خزينته الخاصة على بيت الله الحرام، وأرى نفسي من السعداء لمباشرة هذا المشروع المحمود، وأرجو من حضرتكم السامية ومن همتكم الهاشمية أن تأمروا من يرشدنا لما عسى أن نحتاج إليه من الإرشاد حتى يحصل المراد.

وقال حضرة رئيس البعثة الإسلامية الفرنسوية في خطبة طويلة ما نصه:

سيدنا ومولانا الأمير

مما يحق أن يُذْكَر فيُشْكَر ويُحْمَد أمره ولا يُنْكَر ما نهضت به حضرة سيدنا الأمير الموفق المنيف شريف مكة المشرفة الجامع بين كمال السياسة الدينية والدنيوية بإتقان معرفة مولانا الحسين الذي أقر الله به للإسلام العينين — دامت راياته بالنصر خافقة، وآياته باهرة باهية متناسقة — وذلك بنهضته في الحجاز لحفظ شعائر الإسلام واتخاذ الوسائل في تأمين البلد الحرام.

وإن أجل من اعترف لحضرته بهذه الفضيلة التي قام بها أحسن قيام وسلك من الطرق فيها ما يبلغ المسلمين المرام بحفظ سيطرة الأمة العربية ذات النفوس الأبية؛ هم رجال الدولة الفرنسوية الفخيمة التي هي أم المدنية والإنسانية.

وقد شرفنا فخامة رئيس جمهوريتنا بالمثول بين يديكم الكريمتين مع بقية الوفد الذي بمعيتي للتشرف بملاقاتكم الفخيمة؛ لتبليغ مراسم التهاني الصادرة من صميم الأفئدة الدالة على خلوص المودة القلبية في استرجاع حقوق أسلافكم الكرام إليكم في منابعها الأصلية.

وإن نهضتكم المشكورة والإعلان باستقلال حضرتكم المبرورة قد أخلا سرورًا كبيرًا على دولة فرنسا؛ حيث رأت في ذلك حسم مواد المظالم الفادحة التي ارتكبها ذوو الأغراض من حزب فتيان الأتراك الذين استحوذ عليهم حزب الشيطان وغرهم، حتى نبذوا وراء ظهورهم الإيمان، ونظروا للعرب أينما كانوا بعيون البغض، وأملوا محو اللغة العربية ونفي أهلها من كل أرض، وما قصروا بالعتو في تخريب القصور والديار، وفتكوا بأجلة أحرار أبرار، ومدوا يد التعدي لكل عائلة محترمة مع هتك الحرمات المعظمة، مثل عائلة الأمير عبد القادر الجزائري بشنق بعض أفاضلهم، وعدم توقير ضريحه، وغير هذه الفعال الشنيعة التي يأباها الدين وتمجها الإنسانية والمدنية إلى يوم الدين.

ولكن جرت عادة الله في الخلق بالانتصار لأهل الحق من أحياء وأموات على طول الأوقات، فكان الانتقام من هؤلاء الأحزاب المعتدين بما مد الله به حضرتكم السامية من النصر المكين والفتح المبين.

وقد أثرت هذه النهضة الجنسية في نفوس الملايين من المسلمين الساكنين بإفريقيا الذين تحت ظل حماية هذه الدولة الموقرة للأمة الإسلامية والمحترمة للعوائد الدينية، بما جبلت عليه من المدنية والإنسانية سرورًا وحبورًا ما عليه من مزيد.

وهؤلاء المسلمون كلهم كانوا في كدر خشية حدوث حادث في هذه الديار المقدسة مما تقتضيه الظروف الحربية، وقد نشطوا وفرحوا واستبشروا وانشرحوا بنهضتكم القويمة التي تحقق فيها تحرير القطر الحجازي بوجودكم من كل مداخلة أجنبية.

والشاهد على ما حصل لهم من السرور الذي انشرحت به الصدور:

أولًا: ما شاهده مولانا من مثول أعيان هذا الوفد بين يديه لأداء حقوق التهاني المبنية على أقوم المباني.

ثانيًا: أن جمًّا غفيرًا من أعيان مسلمي قطر الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ممن تحت ظل حكم الدولة الفرنسوية قد تاقت نفوسهم إلى حج بيت الله الحرام والتشرف بالوقوف بين الركن والمقام؛ فأعلنوا للحكومة بمطلوبهم، فسُوعِدُوا منها في الحين بكمال مرغوبهم؛ فهيأت لهم المراكب الحسنة، ووقفت معهم أتم وقوف على طريقة مستحسنة؛ لما لها من الاحترام لعقائد المسلمين وديانتهم والاهتمام بإدخال السرور عليهم في عادتهم وعبادتهم، وسيرد في الأثر هؤلاء المسلمون في كمال ونشاط وارتياح، وقد أُخْبِرْتُ أمس أنهم حلوا جدة المحروسة بسلامة حلول احتلال وكرامة.

ولا بأس أن نقول في الختام لسيدنا الأمير الهمام بأنه في قريب بحول الله يشاهد النصر النهائي في الحالة الحاضرة، بجانب الدول المتمدنة المتحدة المؤيدة للإنسانية بالحقوق الخفية والظاهرة المادية يد المساعدة للمسلمين الضاربة على يد من صير المغرور منهم في ضلال مبين. ولا شك أن الباغي باغر وسوف على الباغي تدور الدوائر.

ونسأل الله لمولانا الشريف التأييد المبين على ممر السنين، ويمد في عمره البركة، ويديم سلامته في كل سكون وحركة.

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف لها آلاف آمينًا

فأجاب سيادة الشريف الأعظم أعضاء الوفد الكرام بخطبة مرتجلة قال فيها:

أكرر الآن الترحيب بالوفد وموفديه، وأشكركم على تجشمكم العناء في القدوم إلينا، ثم أقول: «إن نهضتنا التي أشرتم إليها إنما قامت لتأييد الحق ونصرة العدل وإعزاز كتاب الله وإحياء سنة رسوله ﷺ، ولم أرد لنفسي زيادة جاه وثروة في هذه الدنيا بعد أن كنت حاصلًا على كل شيء من ذلك، ولو أردت الدنيا مع المسايرة في إغماض العين عما يستلزمه حق الإنسانية والإصلاح لما امتنع عليَّ شيء منها، وها إني أشهدكم وأشهد الله بأني مستعد لأن أضع يدي في يد كل من يرى فيه المسلمون الكفاءة للقيام بأعباء هذا الأمر.

وإني لم أكن أخشى شيئًا غير أن يسيء أحد من المسلمين الظن بهذه النهضة لعدم وقوفهم على حقيقتها فيفسروها بغير الواقع، ولكن أقوالكم السديدة قد طمنتني من هذه الجهة، فاستبشرت بأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأن النية الخالصة لا تخفى على أحد مهما أراد أعداء الحق إخفاءها.

فالغضب للحق والغيرة على سلامة البلاد وأهلها هو الذي حملني على الجهاد بالنفس والولد والقوم؛ لصيانة كل ما يزيدنا قربًا من رحمة الله ورضاه مما أمرنا الله باتباعه وأوصانا سلفنا الصالح بالتزامه.

من هذا ترون أن أعظم غاياتنا المحافظة على كياننا الديني والقومي، كما صرحت بذلك في منشوري الذي أعربت فيه بالاختصار عن أسباب هذه النهضة ومقاصدها. وإننا سنبذل كل ما نستطيعه للحصول على هاتين الغايتين ومقاومة كل من يحول بيننا وبينهما، وإعداد الأسباب المالية والوسائل الشريفة السامية التي تخلد للمسلمين عامة والعرب خاصة العزَّ والمنعة.

وإننا لا ننسى مزايا الحكومة الفرنسوية الفخيمة ومحاسن أمتها الموقرة وحسن معاضدتها للإنسانية ومؤازرتها للإسلام والمسلمين كما شهد لها التاريخ بذلك في أوقات الشدة والضيق؛ لذلك لا يُسْتَنْكَرُ عليها إذا تلقت نهضة العرب الحديثة بما تستحقه من التعضيد والتأييد كما أشرتم إلى ذلك في خطابكم، وتلك منقبة جديدة لها تُذْكَرُ فتُشْكَر، وإن أعظم دليل حسي

أتخذه على ذلك إيفادها حضراتكم إلينا بما تحملونه من عبارات الود والوفاء والنفائس الكريمة، وذلك كما صرحتم لمحض المعاضدة والمؤازرة لحكومتنا الإسلامية، فبلساني ولسان قومي خاصة وبلسان كل من يعرف هذا من المسلمين عامة أعترف لها بهذه اليد اللاحقة لعواطفها السابقة نحو المسلمين، ولتكن حكومتكم على ثقة من ثقتنا بها وبحسن مؤازرتها.

وإننا معاشر العرب والمسلمين قد فُطِرْنَا على أن نمد يدنا إلى كل من يمد يد المصافحة والمصادقة لنا، فنقابل الحسنة بأعظم منها على حسب استطاعتنا، ونعترف بالجميل لأهله مهما تقادمت عليه الدهور، وإذا كانت هذه خطتنا مع حلفائنا الدول الخارجية كما تقضي بذلك شريعتنا المطهرة، فإن سيرتنا مع رعيتنا وساكني ديارنا وأهل ذمتنا على اختلاف الأجناس والنزعات هي سيرة العدل والإحسان التي أمر بها شرعنا وسار عليها أسلافنا، فنال بها المسلمون والعرب في كل زمان حسن الأحدوثة وجميل الذكر.

هذا وإني أشكر لِحَضْرَتَي الأميرين العظيمين جلالة سلطان المغرب الأقصى المعظم وسمو باي تونس المحترم عنايتهما بنهضتنا واهتمامهما بتوثيق أواصر المودة والمحبة، وأحييهما في شَخْصَي حَضْرَتَي ممثليهما الفاضلين. وفقنا الله لما فيه الخير والصلاح والله ولي المصلحين.

هذا ومن مناسك الحج أن يقيم الحجاج في منى المجاورة لمكة المكرمة يوم العيد الأكبر وأيام التشريق الثلاثة بعده؛ لذكر الله وذبح الذبائح التي يهدونها لأهل الحرم، وهي تسمى الأضاحي في غير الحجاز من بلاد الإسلام.

وقد جرت العادة بأن تكون حفلة العيد الأكبر التي يهنئ بها الناس شريف مكة وأميرها بالعيد في أول أيام التشريف؛ لأنه يهبط يوم العيد مكة المكرمة لصلاة العيد وطواف الإفاضة وكسوة الكعبة المعظمة، وهذه الحفلة يحضرها في العادة أميرا المحملين الشامي والمصري وكبراء الحجاج من كل بلاد الإسلام، وكان يُتْلَى فيها الفرمان السلطاني المرسل لشريف مكة مع الأوسمة وغيرها من الهدايا، ففي هذه الحفلة العظيمة من الحج الأخير سنة ١٣٣٤ هجرية ألقى فضيلة الأستاذ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الإسلامية خطبة شائقة بين يدي سيادة الشريف الأعظم، جاء فيها على ذكر كثير من الحقائق السياسية التي تهم المسلمين عامة. وهذه خلاصة تلك الخطبة النفيسة:

«أيها المسلمون الكرام، من سكان حرم الله وحجاج بيته الحرام، إنكم تعلمون أن الإسلام دين سيادة وسلطة، وأن شريعته أُنْزِلَتْ ليقيم أحكامها أهله لقوله — تعالى ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ على التأويل المشهور للآية. وتعلمون أن الله — تعالى — قد جعل هذا الدين عربيًّا؛ إذ أنزل القرآن الذي هو أصله وأساسه باللغة العربية على لسان النبي الأمي العربي محمد — صلى الله عليه وآله وسلم. قد بين الله — تعالى — ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، فهذه الآية أخص من الآيات الناطقة بإنزال القرآن عربيًّا؛ لأنها مصرحة بأن حكم هذا الدين عربي، مع العلم بأن كتابة الْمُتَعَبَّد به عربي. وهذه البلاد العربية هي مهد هذا الدين ومهبط وحيه ومشرق نوره، وكان أهلها هم السابقين إلى تلقيه والاهتداء به، ثم تبعهم فيه غيرهم من عرب الحجاز، فسائر هذه الجزيرة العربية، ثم حمله العرب إلى سائر الأقطار، ونشروه فيها، فامتد في الجيل الأول منهم حتى عم نوره الشرق والغرب، وأروا الأمم بإقامة أحكامه من العدل والرحمة ما لم يعرفوا ولم يسمعوا له نظيرًا، كما اعترف بذلك المنصفون من الإفرنج وغيرهم.

طرأ الضعف على السلطة الإسلامية بتفرق الوحدة العربية الكافلة لها وتغلغل الأعاجم في الدول الإسلامية التي تعددت بسبب ضعف سلطة الخلافة، فبعد أن كانت الفتوحات الإسلامية في مد لا جزر معه صارت دول الطوائف الإسلامية بين مد وجزر وقوة وضعف، حتى وصلت الدولة العثمانية منها إلى درجة عالية ومكانة سامية من القوة الحربية وسعة الفتح والتغلب، فسر بها المسلمون، ورضي بعض حكامهم المستقلين بسيادتها طوعًا واختيارًا، كما دخل بعضهم تحتها اضطرارًا، وقد كان أمراء مكة العظام أهل بيت سيدنا هذا (وأشار الخطيب إلى جلالة الملك) في مقدمة من أيد هذه الدولة، واعترفوا بسلطتها وسيادتها؛ لأجل جمع كلمة المسلمين بها، وإعلاء شأن الشريعة الإسلامية بنفوذها (ها هنا قال جلالة الملك للخطيب: صدقت).

ثم إن هذه الدولة قد سرى إليها الضعف ودب إليها الوهن من زهاء ثلاثة قرون.»

وذكر الخطيب لمحة تاريخية سياسية عن الأدوار التي مرت بها الدولة العثمانية إلى عهد عبد الحميد. ثم قال: «وأما سيرة السلطان عبد الحميد فهي معروفة؛ لأن العهد بها قريب، وقد خلعته جمعية الاتحاد والترقي بقوة جند الدولة، واعتقلته، وتولت الجمعية السيطرة على الدولة بعده، فماذا كان من أمرها: هل كانت خيرًا من أولئك السلاطين العظام الذين لم يقدروا أن يصلحوا ملكهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم؟ كلا! إن

زعماء هذه الجمعية الذين غلبوا الدولة على أمرها هم من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد عودتية سلانيك وشركائهم في النمسا وألمانيا أقوى أنصارهم؛ ولذلك نرى أكبر همهم جمع المال، فلا هم على دين هذه الدولة فيغارون عليه، بل هم يقاومونه ويهدمونه، ولا هم من أصل راسخ فيها فيكونون أحرص على حياتها من أبناء سلاطينها وأساطينها.

وإذا نظرنا إلى أعمالهم دون عقيدتهم وآرائهم نرى أنهم قد فعلوا في الدولة من الإفساد والتخريب ما لم يفعله غيرهم فيها منذ أُصِيبَتْ بالضعف إلى أن أصيبت بهم.

ثبت أنهم أخذوا من مال الدولة لنظارة الحربية خمسين مليون جنيه ليجددوا قوتها العسكرية، ثم رأينا دولة البلغار — التي كانت ولاية من ولايات الدولة، ولم يتم لها الاستقلال إلا في عهدكم — قد كسرت جيوش الدولة، وكادت مدافعها في شطلجة تمزق مسامع أهل الأستانة، وكان السبب الحسي لذلك قلة ما عند الجيش العثماني من المؤنة والذخيرة والدواب وسائر أسباب الحرب.

وقد خسرت الدولة في عهدهم المشئوم من الممالك ما لم تخسر مثله في عدة أجيال: خسرت البوسنة والهرسك ببيع الجمعية إياهما للنمسا، وطرابلس الغرب وبرقة ببيعها إياهما لإيطاليا، ومكدونيا وألبانيا وكريت وجزائر الأرخبيل. ونسكت عما خسرته في هذه الحرب من الولايات؛ فقد أضاعوا نصف الدولة في بضع سنين، وحملوها فيها من أثقال الديون ما لم تحمل مثله قبلهم في بضعة قرون، ثم عادوا إلى الأمة فأفقروها كما أفقروا الدولة. فهذا هو الإصلاح الذي خلعوا لأجل القيام به سلطان الدولة وخليفتها عبد الحميد وحجروا على خلفه من بعده!

فيا أيها المسلمون الغيورون المبصرون، إذا كان قد ثبت من تاريخ الدولة الرسمي بما ذكرته لكم من شواهده أنها كانت ضعيفة يُخْشَى عليها من الزوال قبل هذه الأرزاء والمصائب التي مُنِيَتْ بها بشؤم هذه الجمعية، فكيف يكون حالها الآن وقد اصطلت بنار هذه الحرب وتعرضت لعداوة أكبر دول الأرض؟!

إن سواد المسلمين الأعظم يغارون على هذه الدولة ويتمنون لها دوام الاستقلال وكمال القوة للسبب الذي بيناه في فاتحة الكلام، ولكن يقل في المسلمين من يعرف حقيقة حالها وكنه الخطر الحائق بها، ويقل فيمن يعرف ذلك من يسعى لتدارك ما يترتب على هذا الخطر إذا وقع؛ من فقد الإسلام لما بقي من أحكام شريعته، وحرمان المسلمين من آخر ما كان لهم من الاستقلال السياسي على علاته.

لم نر أحدًا من زعماء المسلمين وكبرائهم قدر الحال الخطرة التي وصل إليها الإسلام قدرها وانبرى لتداركها، إلا هذا الرجل العظيم (وأشار إلى جلالة الملك)؛ فإنه رأى أن الدولة — وهو أعلم أهلها بحالها — قد أمست على شفا جرف، وأن ملاحدة الاتحاديين قد اتخذوا الأحكام العرفية والقوة العسكرية ذريعة للتنكيل بالأمة العربية بتقتيل رجال الفكر والعمل، ومصادرة أموال أهل الثروة؛ حتى لا يبقى فيها رجاء في عامل ولا عمل، فانتدب لتدارك الخطب ومصارعة الخطر بنفسه الكريمة وأنفس أنجاله النجباء، ولو استطاع أن ينقذ الدولة نفسها من الخطر لفعل ولو بذل في ذلك دمه ودم هؤلاء الأنجال الكرام (هنا قال جلالة الملك للخطيب: صدقت).

لكن العمل لإنقاذ الدولة نفسها من الخطر قد أصبح فوق طاقته وطاقة غيره (صدقت)، فرأى أن يبدأ بالمستطاع وهو إنقاذ الحجاز مهد الإسلام ومشرق نوره مما نزل به من البلاء والشقاء، ثم إنقاذ غيره مما يمكن إنقاذه من البلاد العربية؛ ليكون ذلك بيئة لحفظ الاستقلال الإسلامي وعدم زواله بما يُخْشَى ويُتَوَقَّعُ أن يحل بالدولة العثمانية والعياذ بالله — تعالى.

ولا يخفى على ذي بصيرة أن الاتحاديين ما حشدوا الألوف من جيوشهم في الحجاز إلا بنية سيئة؛ لأنهم يعلمون كما نعلم أن أعداءهم من الحلفاء لا يحاولون الاستيلاء على الحجاز ولا يحاربون أهله، فكان من المعقول أن يرسلوا تلك الجيوش إلى قتال أعدائهم الروس وإنقاذ ما فتحوه من الولايات التركية، ولكن التنكيل بالعرب أهم عندهم من دفع الروس عن عقر دارهم، ولو تم لهم ما أرادوا لرأينا من فظائعهم في الحجاز ما هو أشد من فظائعهم في الشام (تصديق).

نعم إن الحلفاء لا يحاربون الحجاز، ولكن وجود الجيوش الاتحادية فيه ألجأهم إلى ضرب الحصر البحري على ثغوره، فضاقت المعيشة على أهله حتى باعوا حليهم وأثاثهم وأبواب بيوتهم وخشب سقفها، ولو طال عليهم أمد ذلك سنة أخرى لأكلتهم المجاعة وما يتبعها عادة من الأوبئة (تصديق).

أعلن سيدنا هذا استقلال العرب في الحجاز، والحاجة قد اشتدت إليه حتى وصل إلى حد الضرورة، وما كان ليوجد في الأمة العربية ولا الأمة الإسلامية كلها من آتاه الله من البصيرة والشجاعة والثقة بالله والتوكل عليه ما ينهض به للقيام بهذا العبء العظيم، ولولا ثقته بالله وتوكله عليه لما تجرأ على ذلك؛ لأننا كلنا نعلم أنه لا يوجد في الحجاز قوة عسكرية ولا ثروة مالية يعتمد عليها في مثل هذا العمل (تصديق).

كلنا نعلم أنه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة إسلامية تخلف الدولة العثمانية إذا وقع بها ما نخشاه عليها إلا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية لما خص الله — تعالى — به هذه البقعة وأهلها من الخصائص، ولا يعقل أن يُحْفَظَ استقلال الإسلام في مثل بلاد الأفغان إن هو زال من مهده وموطن نشأته ومحل إقامة شعائره. انفردت هذه البقاع الطاهرة المقدسة بأنها أجدر بقاع العالم الإسلامي لإقامة استقلاله، وكذلك انفرد سيدها وأميرها في هذا العصر للنهوض بما يجب من العمل والاستعداد لتجديد هذا الاستقلال، فكان له بعمله أكبر منه في أعناق أهل هذه البلاد وفي أعناق جميع المسلمين الذين يشعرون بأن أمر هذا الاستقلال هو أهم المصالح العامة الدينية والاجتماعية، ولكن منهم من فقد هذا الشعور.

أيها الحجازيون، إن من يكفر لهذا الرجل المصلح المنقذ هذه النعمة فهو أكفر الناس للنعم. أيها المسلمون، يجب أن تعلموا أن هذا العمل أعظم خدمة للإسلام في هذا الزمن؛ فإن الدولة العثمانية إن سلمت من السقوط وحُفِظَ استقلالها لم يكن استقلال العرب في الحجاز وغيره مانعًا من ذلك، ولا من تعاضد العرب والترك مع حفظ حقوق كل منهم، وإن سقطت وفقدت استقلالها لم يكن هذا الاستقلال هو السبب فيه، ولكنه يكون سبب حفظ استقلال الحكم الإسلامي في أشرف بقاع الإسلام. هل يغيب عن أذهانكم أنه لولا إعلان هذا الاستقلال لترتب على سقوط الدولة العثمانية وقوع حرم الله — تعالى — وحرم رسوله ﷺ غنيمة في أيدي الدول الفاتحة، فإن تركوها بعد ذلك لنا كان لهم مِنَّةُ التصدق بهما علينا، وإلا كانا تحت سيادتهم والعياذ بالله — تعالى. وبهذا يتبين لكم أن هذا العمل العظيم الذي قام به هذا الزعيم العظيم قد أنقذ الحرمين الشريفين وما حولهما من الخطر الجسيم، ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الإسلامي بإنشاء دولة جديدة له، فله بهذا أكبر منة على جميع المسلمين، وما أقول هذا تملقًا له ولا مدحًا شعريًّا، وإنما الحقيقة البيضاء الناصعة بينتها لكم بالإيجاز الذي يحتمله المقام. والسلام.»

وقد أثنى جلالة الملك على الخطيب ثناء عاطرًا؛ لأنه عبر عن حقيقة أفكاره وآرائه ثم قال: «إن وجودنا السياسي مكفول لنا بالاستقلال التام الذي لا تشوبه شائبة، وإني لواثق بالله — سبحانه وتعالى — من حسن النتيجة وماضٍ في سبيلي، ولو أن هذا العمل الذي أعتقد فيه كل الصلاح لقومي وبلادي وديني يعترضه أحد بسوء ولو كان أحد أولادي لصلبته بيدي غير آسف عليه؛ لأني أحب قومي وبلادي وديني أكثر من كل شيء

في هذا الوجود، ولولا هذه المحبة لما نهضت هذه النهضة، وسأبقى مستمرًّا في خطتي غير متزعزع فيها ولا متحول عنها حتى يقضي الله أمره. ولينصرن الله من ينصره.»

ثم أكد سيادته ولاءه لحلفائه ولكل من يساعده على الخير وقال: «إن هذه النهضة عربية تشمل كل عربي كائنًا من كان، على شرط أن يكون صادقًا لوطنه مخلصًا لقومه.»

هوامش

(١) كُتِبَتْ هذه المقالة على إثر سقوط الطائف.

(٢) لقب اختاره الإمبراطور غليوم لخدع المسلمين.

(٣) اقتصرنا على إجمال ما قالته أهم صحف الغرب التي تنطق بلسان الحكومات وتعبر عن آراء الأمم؛ وذلك لضيق المقام في هذا الكتاب وكثرة المقالات التي نُشِرَتْ في صحف العالم على إثر استقلال العرب.

الفصل العاشر

الملك في العرب

الوزارة العربية – مجلس الشيوخ الأعلى – الحسين بن علي ملك العرب البيعة العامة

* * *

تألفت أول وزارة عربية في العهد الجديد في ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ و٥ أكتوبر سنة ١٩١٦، وهذه هي صورة الإرادة السنية المؤذنة بتأليف تلك الوزارة:

حضرة العالم الكامل الشيخ عبد الله سراج

إنه لما كانت مصالح الرعايا وانتظام شئون المجتمع وتوفر أسباب العمران لا بد لها من دواوين يتوزع عليها النظر في الحكومة، وما هو في معنى ذلك من المصالح العامة والخاصة، ويتعين بها أساس الوظائف الذي تُبْنَى عليه المسئولية وتكوين حكومة لبلادنا المحروسة، وبالنظر إلى ما تحققناه فيكم من الكفاءة والاستقامة؛ عزمنا بعد الاستعانة بالله — عز وجل — على توجيه منصب قاضي القضاة لعهدتكم وتعيينكم وكيلًا عن رئيس الوكلاء العظام، وقد اخترنا لبقية الوكالات حضرات الذوات الآتية أسماؤهم؛ وهم: ولدنا عبد الله بن الحسين لوكالة الخارجية، ويكون وكيلًا عن وكيل الداخلية، وعبد العزيز بن علي رئيس أركان حرب ووكيل رياسة الجند مع ترفيع درجته عن رتبته الحاضرة، والشيخ علي مالكي وكيلًا للمعارف، والشيخ يوسف بن سالم رئيس البلدية سابقًا وكيلًا للمنافع العمومية، والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف سابقًا وكيلًا للأوقاف مع بقائه في نظارة أمور الحرم وكل ما يتعلق بوظيفته الشريفة، والشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجة وكيلًا للمالية؛

وذلك لما توسمناه من درايتهم واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها على ما يرضي الله، وإننا ننتظر منكم المبادرة إلى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية وتعيين العمال والموظفين لها، وأرجو الله — سبحانه — أن يجعلنا مظهر توفيقه وهداه في كل ما يحبه ويرضاه.

في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٤

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

وفي اليوم عينه صدرت إرادة سنية أخرى بتأليف مجلس الشيوخ الأعلى. وهذا نصها:

بما أننا قد استنسبنا تعيين هيئة أطلقنا عليها اسم «مجلس الشيوخ»، وجعلنا وظيفة هذا المجلس النظر في كل ما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على أعمال الدواوين والدوائر الرسمية وإبداء الرأي فيما تعرضه الدوائر على مقام وكيل رئيس الوكلاء، وسيقرر فيما بعد صلاحية هذا المجلس العالي. وقد جعلنا رئيسًا له جناب الفاضل الأجل فاتح بيت الله الحرام الشيخ محمد صالح الشيبي، وأعضاءه حضرات الأفاضل الأجلاء: مفتي الشافعية السيد عبد الله بن محمد صالح الزواوي، ومفتي المالكية الشيخ عابدين حسين، والشيخ عبد القادر بن علي الشيبي، ونائب الحرم السيد إبراهيم بن علي، ووكيل شيخ السادة السيد محمد بن علوي السقاف، والشيخ عبد الله علي رضا، والشيخ علي بن عبد الله الشرباصي، والشيخ أبو بكر بن محمد خوقير، وذوي السيادة والشرف حمزة بن عبد الله الفعر، وفتن بن محسن، وسليمان بن أحمد بن سعيد، وناصر بن شكر. ولتبليغهم ما ذُكِرَ اقتضى تحريره في ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٤.

شريف مكة وأميرها

حسين

هذا ولم تعين الحكومة العربية إلى الآن معتمدين لها في عواصم دول الحلفاء والدول المحايدة، ولعلها تفعل ذلك قريبًا. أما معتمدها الحالي في القاهرة فشاب من

خيرة شبان العرب وأشرف الأسر العربية في العراق، جاء مصر في أوائل سنة ١٩١٦، فخدم العرب فيها خدمًا عظيمًا بما أوتيه من الفطنة والإخلاص والتفاني في سبيل المصلحة العامة، وقد سافر إلى الحجاز قبيل إعلان الثورة العربية، فتفاهم مع القائمين بها، ثم عُيِّنَ وكيلًا لجلالة ملك العرب في القطر المصري، فما لبث أن عاد إليه بعدما أقام في الأقطار الحجازية أسبوعًا وبعض الأسبوع.

فليحيَ ملك العرب

بايع العرب صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي بالملك عليهم يوم الخميس في ٦ محرم سنة ١٣٣٥ هجرية الموافق ليوم ٦ أكتوبر سنة ١٩١٦ مسيحية، فما أزفت الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم حتى كان جلالة الملك المعظم قد جاء من القصر الملكي إلى مدرسته الملاصقة لبيت الله الحرام، فدخلها يحف به آل البيت وعلماء الشرع ووجوه الأمة. ولما استقر بهم المقام سلم حضرة صاحب الفضيلة نائب رئيس الوزارة عريضة أهل الحل والعقد إلى حضرة الشيخ عبد الله الخطيب ليتلوها على مسامع من لم يسمعها من رجال الأمة، فصعد حضرة الخطيب على دكه أُقِيمَتْ أمام رواق الحرم الشريف، وقرأها على الجماهير، فقابلوها بسرور لا يُوصَف، ثم أقبل حضرة قاضي القضاة على يد صاحب الجلالة الهاشمية ملك البلاد العربية فبايعه بالملك، وتبعه حضرات الأشراف والسادة ورجال الدولة والعلماء والأعيان ووفود البلاد فجماهير الأمة على اختلاف طبقاتها، وكان رجال الشرطة يحافظون على النظام بكل دقة وانتباه، وقد رأى حضرة قاضي القضاة بعد أن تشرف بضعة ألوف من الناس بشرف المبايعة السعيدة أن الوقت لا يتسع لاستمرار الألوف الكثيرة في ذلك، فطلب منهم أن يجيزوه في أخذ البيعة عنهم، فأجازوه إجازة إجماع عام مطلق، فبايع عنهم على مسمع منهم، ثم صعد حضرة الشيخ عبد الملك مرداد على الدكة فتلا دعاءً بليغًا خشعت له القلوب وأمنت عليه الألسنة، وعند ختام الدعاء عاد جلالة الملك المحبوب إلى المدرسة، فلبث فيها برهة ثم سار في موكبه الفخم إلى الديوان الهاشمي العالي، وجماهير الأمة تهتف له بالنصر والعز والتأييد، وتلاميذ المدارس مصطفة تحت الأعلام العربية المنصورة تنشد أناشيد الحماسة والاستبشار بالمستقبل الباهر السعيد. ولما وصل الموكب الفخم إلى القصر الملكي العالي أقبلت ألوف الناس من العظماء والأعيان والتجار ومن في طبقتهم

للتشرف بالأعتاب الهاشمية، وأخذ الخطباء والشعراء يتبارون في بيان عواطف الأمة بهذا العيد الأعظم للعرب والإسلام.

وأبلغت وزارة الخارجية العربية خبر مبايعة صاحب الجلالة الهاشمية بالملك إلى وزارات الخارجية في دول الحلفاء وفي الدول المحايدة، طالبة منها الاعتراف بجلالة الملك حسين ملكًا على العرب واسترداد ملك العرب من الترك مغتصبيه.

ولقد رأى جلالة ملك العرب أن يبدأ ملكه السعيد الجد الميمون الطالع بالذكر الحسن والأثر الخالد، فأمر بأن تُوَزَّعَ خمسة وعشرون ألف جنيه من جيبه الخاص على ذوي الحاجة، تفريجًا للكرب وإزالة لأسباب الضيق والضنك، وصدرت إرادته السنية بأن تُؤَلَّفَ لجنة من الكبراء والعظماء تتولى توزيع تلك النقود وتسوية مشاكل الأجور والرهون والديون تسوية ترضي الخاصة ويقبلها العامة، فتم الأمر على ما يُرَام، وأُزِيلَ الضيق، وسُوِّيَ كل خلاف بين المؤجر والمستأجر والمدين والدائن، فشكر العرب لصاحب الجلالة الهاشمية كرمه الذي عم وشمل جميع المحتاجين منهم وما كان من عظم اهتمامه بشئونهم.

وكان لعقد البيعة بالملك لصاحب الجلالة حسين بن علي سرور عام في البلاد العربية من أقصائها إلى أقصائها، فأتت وفود العرب مكة المكرمة من كل حدب وصوب يحدوها الإخلاص وصدق الولاء داعية لجلالته بالعز والتأييد ولجيشه الباسل بالفوز والنصر.

الفصل الحادي عشر

مستقبل العرب

إن المصائب التي نزلت بالعرب في مختلف الأزمنة كانت قاسية بتأثيرها، مُرة بنتائجها، ولكنها لم تقتل فيهم روحًا كبيرة عُرِفُوا بها، ولا أبادت منهم آمالًا طالما طمحت إلى العلى وذهبت بهم إلى المجد كل مذهب، فما ابتسمت لهم سوانح الفرص حتى انتهزوها، ونهضوا نهضة الأسد الرئبال لاسترجاع حقوقهم المهضومة واستعادة مجدهم المندثر، وها هم يسيرون الآن في طريق حياة جديدة إلى مدنية حية راقية.

لقد برهن العرب في إبان دولتهم على أنهم كبار بنفوسهم، كبار بأعمالهم، كبار بآمالهم، لا تأخذهم برقشة الظواهر، ولا ينخدعون بكذب المظاهر، قيمة المال عندهم قيمة ما يحتاجون إليه في تعزيز العلم ونشر لواء الحضارة، وقيمة الفرد بينهم قيمة النفع المرجو منه للأمة والبلاد، ومن راجع تاريخهم المجيد ورأى ما امتازوا به من الخلال الفريدة والخصال الجميلة والأخلاق السامية التي بلغت بهم ذروة المجد ولا تزال متأصلة في نفوس أحفادهم إلى الآن؛ استطاع أن يحكم بما سيكون لهم من عظم الشأن.

إن العصور التي مرت بالعرب كانت قاتلة بحوادثها؛ فمن اضطهاد واستعباد ونفي وقتل واغتيال إلى أمراض نفسية ولد جراثيمها الجهل الذي اندس في أساس المدنية العربية القديمة فأفسده، ثم جاءت التعاليم التركية وغير التركية فضربت على نغماتها ما يلائم مشرب كل منها، بحيث أصبحت الأمة العربية لعبة بيد الأجانب كما كانت لعبة بيد القدر وهدفًا لحوادثه الفظيعة. ومع أن كل عامل من هذه العوامل يكفي وحده لأن يقتل أمة مهما بلغت من القوة والمنعة، فقد اجتمعت كلها على الأمة العربية وصوبت نحوها سهامها القاتلة، فلم تَنَلْ من عزة نفوس العرب قلامة ظفر، ولا تمكنت من خضد شوكتهم والقضاء على قوميتهم، وجل ما فعلته أنها سدلت على

عيونهم نقابًا كثيفًا من نسيج الجهل، فحجبت عنهم نور الهداية وتركتهم يتخبطون في دياجي الظلمة زمنًا انقضى الآن بتمزيق ذلك الحجاب، فبرزت من ورائه العروس العربية في أجمل ما عُرِفَتْ به من البهاء والجمال.

أجل برزت اليوم الأمة العربية إلى ميدان الحياة عروسًا في مقتبل العمر لها من حميتها ونشاطها واستعدادها ما يثبت قدمها ويدفعها إلى الأمام، كما أن لها في طريق الوطنية الصادقة التي سلكتها ما يكفل لها أسمى مقام بين الأنام؛ لذلك لا يُخْشَى عليها من العثار، لا سيما وقد علمتها الحوادث بمواقع الأخطار، فثقتنا عظيمة في هذه الحال بأن العرب سيسيرون في سبلٍ أمينة مهدتها اختباراتهم وروتها دماؤهم وظللتها أرواح شهدائهم.

ومما يقوي الآمال بنجاح الأمة العربية الكريمة أن فيها رجالًا زانهم الله بعقول ثاقبة، يقويها الإخلاص والتفاني في مصلحة الأمة، وطرق كل باب فيه خير البلاد وترقية العلوم والفنون والصنائع وتوفير موارد الثروة، وبذل كل وسيلة لإنهاض العرب ماديًّا وأدبيًّا.

ومتى وُجِدَ في الأمة رجال مفكرون أصحاب رأي وحجى سهلت قيادة مجموعها واستقامت سبلها، ولا سيما أن الأمة العربية الآن على فطرتها الطبيعية طفلة نقية الصفيحة لم تلطخها المظاهر الكاذبة ولم تشوهها التقاليد الفاسدة، فهي على استعداد لأن تنطبع فيها المبادئ الصحيحة على أقوم طريق تلائم حالها ومزاجها والغاية التي تتوخاها، ولنا من إجراءات العرب حتى اليوم ما يحقق ثقتنا بأنهم لا يهملون وسيلة صغيرة أو كبيرة لإنهاض الأمة ودعم الأساس الذي ستقوم عليه مدنية العرب الجديدة.

على أننا لا نجهل أن في بعض الجهات العربية أنحاء غُرِسَتْ فيها بزور مدنية لا تلائمها، ونمت بين أفراد لم يستعدوا للتغذي بها؛ فثقلت على معدهم الضعيفة وأورثتهم من سوء الهضم سقمًا في أخلاقهم وانحرافًا في نظرهم، فباتوا من جرائه يتخبطون في فيافي الضلال، عكازهم تقليد خلاب، ونبراسهم في ظلماتهم سراب، على أن لنا من اهتمام الدولة العربية الجديدة بشئون العرب على اختلاف نزعاتهم وأميالهم ما يكفل إصلاح الخلل ومداواة العلل، كما أن لنا من حزم العربي ومحكم رؤيته وصدق وطنيته وما سيراه من عدل حكومته واعتنائها بشئونه؛ ما يستميلهُ على عجل إلى السبيل السوي.

كان العرب في القرون الأخيرة أقوامًا مشتتين لا وطنية تجمعهم فيلجأون إليها، ولا حكومة تعنى بهم فيتكاتفون على خدمتها، ولا مدنية خاصة بهم فيرتبطون بها، ولا

آلات تستخرج كنوز تربتهم فيعملون بها ويرتزقون من خيراتها؛ فلا عجب والحالة هذه إذا هجروا أوطانهم العزيزة وتجنبوا حكومتهم الظالمة، وخجلوا بجنسيتهم المستعارة؛ لما يلقون من انحطاطها في نظر الأمم الراقية.

ولكنهم متى رأوا مناعة ملكهم واعتزاز شأن أمتهم وعدل حكومتهم عادوا إلى أوطانهم فرحين، وانضووا تحت العلم العربي الجميل مهللين وهاتفين بصوت واحد: «فليحيَ العرب، ولتحيَ الأمة العربية.»

كل إنسان في العالم يود أن تكون له دولة قوية يعتز بها وأمة راقية يفاخر بالانتساب إليها، ولا مشاحة في أن العرب على اختلاف نحلهم وتباين درجات أفهامهم وأحوالهم سينضوون تحت ظل العلم العربي ويكونون جميعهم قلبًا واحدًا ويدًا واحدة في العمل لخير أمتهم وإنهاض بلادهم وتجديد مدنيتهم.

ومما يقوي فينا هذه الآمال شكل الإدارة التي تُدَارُ بها البلاد العربية. فالأحزاب العربية التي ساعدت على استقلال العرب في الحجاز كانت ترى في عهد الترك أن خير الطرق لإدارة بلاد مترامية الأطراف مختلفة العادات والأخلاق كالبلاد العثمانية إنما هي الإدارة اللامركزية الواسعة؛ فقد جاء في المادة الثانية من برنامج حزب اللامركزية: «أن القصد من تأليف هذا الحزب بيان لحسنات الإدارة اللامركزية والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تُؤَسَّسُ على قواعد اللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية.»

وجاء في المادة الثالثة من برنامج هذا الحزب أنه يعتقد يقينًا «أن الدولة لا تبقي في العالم السياسي إلا إذا بُنِيَتْ حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية.»[1]

وكذلك جمعية الإصلاح البيروتية والعراقية والمنتدى الأدبي وسائر الأحزاب العربية؛ فقد كانت غايتها الحصول على إدارة لامركزية في البلاد، فجاء في المادة الثالثة من قرارات المؤتمر العربي الأول الذي عُقِدَ في باريس، وكان يمثل معظم الأحزاب العربية أنه «يجب أن تُنْشَأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها»،[2] وليس ما يدلنا الآن على أن مفكري العرب وزعماءهم وأحزابهم عدلوا عن رأيهم في الإدارة اللامركزية.

وقال جلالة ملك العرب في الخطاب الديني الذي وجههُ إلى العالم الإسلامي قبل أن يُبَايَعَ بالملك: «وقد يسر الله — تبارك وتعالى — للبلاد نهضتها، كما وفقها بحوله وقوته لأخذ استقلالها وتتويج مساعيها بالفوز والنجاح بعد أن ضربت على أيدي

موظفي الاتحاديين بيننا ورجال حامياتهم، فاستقلت — فعلًا — وانفصلت عن البلاد التي لا تزال تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالًا تامًّا مطلقًا بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي، جاعلة غايتها ومبادءها نصرة دين الإسلام والسعي لإعلاء شأن المسلمين، قائمة في كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواهُ ولا مستند غيرهُ في جميع الأحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول كل ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقي الحديث وأسباب النهضة الصحيحة، باذلة الجهد الجهيد في تعزيز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.»[٣]

فعلى هذا المنوال يسير العرب في سياستهم الداخلية متوخين إنهاض البلاد وإسعاد العباد وإعلاء شأن الأمة ماديًّا وأدبيًّا.

وستقوم سياستهم الخارجية على الصدق في القول والإخلاص في العمل والانتصار للحرية والمدنية اليوم وفي مستقبل الأيام. وقد قالوا في بيان سياسي نُشِرَ في مصر في ١٨ شوال سنة ١٣٣٤ و١٧ أغسطس سنة ١٩١٦: «ولا نرمي في سياستنا الخارجية إلى أكثر مما يمكننا الحصول عليه»، وهو تصريح على جانب عظيم من الأهمية؛ لأنه لا يترك أقل مجال للخلاف في المستقبل.

هذا وإذا كان مستقبل الأمة يتوقف على صدق وطنية أفرادها وثروة بلادها الطبيعية فمستقبل العرب مجيد باهر، وقد أظهر رجال العرب من صدق الوطنية وبعد النظر والتفاني في سبيل المصلحة العامة ما يحملنا على الإيقان بأنهم يحسنون الانتفاع بمواهبم العظيمة ويعنون باستثمار موارد بلادهم التي هي من أغنى بلاد العالم فينهضون بها إلى أسمى درجات المتعة والمجد.

هوامش

(١) راجع [الفصل السادس: معدات الاتحاديين لمحو الإسلام وسحق العرب – حزب اللامركزية].

(٢) راجع [الفصل الثاني: المسألة العربية – غاية المؤتمر].

(٣) راجع [الفصل الثامن: انفجار البركان – فاتحة النهضة].

الفصل الثاني عشر

وصية شهيد وتحية مجاهد

إن الشهيد الذي نود أن ندون وصيته لِلأمة العربية الكريمة في ختام هذا الكتاب هو المرحوم عبد الغني العريسي، الذي أدركته يد السلطة الاتحادية في مدائن صالح، وشُنِقَ في بيروت مع شهداء الوطن المخلصين بعدما أرسل الخطاب التالي إلى جميع الناطقين بالضاد. قال — رحمه الله:

يا بني يعرب، ويا سلالة قحطان، يا نسل الأركام الأماجد، ويا خلف الأشاوس الصيد الذين دوخوا العالم بعزمهم وملكوا الدنيا بعدلهم، يا ذوي الهمم الشماء والنفوس العصماء والمآثر الغراء، يا أباة الضيم، ويا حماة الذمار وحافظي العهود، يا أيها الإخوان المنتشرون في جميع أنحاء العالم المعمور وأقطاره سلام.

أوجه خطابي هذا إليكم، وأنا على شفير هاوية الموت، وبين براثن الوحش التركي الذي خرب بلادكم، ودمر بيوتكم، ويتم أطفالكم، ورمل نساءكم، وأذل أخواتكم، وامتهن حرمتكم، وحبس ملاك الحياة وقوامها عن أطفالكم المعولين وأولادكم الصارخين؛ ليقدمها طعامًا لأطماعه وليقيت بها أبناء عنصره الخبيث. أوجه إليكم خطابي هذا من بادية الشام، من بين مضارب إخوانكم الأعراب الأسود الذين عليهم المعول الأكبر في إنقاذ البلاد، ودك عرش الظلم والبغي والجور وكل فاحشة ومنكر.

وقد لا يصلكم كلامي هذا قبل وصول منعاي؛ لأن الأتراك الظالمين الكفرة قد أصدروا أحكامهم الجائرة عليَّ وعلى عشرات غيري من خيرة أبناء سورية، وبعدما أفلت من أيديهم وأصبحت حرًّا — حيث تتجلى الحرية بأسمى مظاهرها بين خيام الأسود ومضارب الظباء — أرى الواجب عليَّ يدعوني إلى

نواحي الشام، وإني مبكر غدًا بعد أن أعهد إلى أخي في الجهاد … النجدي في إبلاغكم خطابي بالطريقة التي يراها، فإن تيسر لي الخلاص والإفلات مرة ثانية أتممت الواجب، وإلا فحسبي أنني خدمت أمتي وبلادي حتى آخر نقطة من دمي، ولست بالفدائي الأول الذي يموت اليوم في سبيل القومية العربية، فالرفاق كثروا، والغاية النبيلة التي نقوم بها وندعو إليها تقتضي ضحايا كثيرة؛ لأن أركان الحرية والاستقلال لا تثبت إلا على الدماء الزكية، ولا تُصَان بغير النفوس الأبية، فلا تيأسوا إذا بلغكم غدًا أن مئات من نخبة رجال الأمة العربية قُتِلُوا، فالغد يتلوه غد أيضًا، وبعد غد فرج إن شاء الله.

ستسمعون — وربما سمعتم — بما ترتعد له الفرائص وتقشعر له الأبدان من الفظائع التي يمثلها أبناء جنكيز خان المغولي وسلالة تيمورلنك الوحش الضاري في الأمة العربية النجيبة؛ لأنهم قد قرروا إفناء الشعب السوري برمته حتى الأطفال، وهم منذ أشهر عاملون على احتكار الأقوات تحت سلطتهم العسكرية، وقد قرروا أيضًا محق العراقيين الأباة، ولكنهم في العراق أقصر يدًا مما هم في سورية.

ربما خلت سورية من ثلثي سكانها الحاليين؛ لأن من ينجو من المشنقة يميتونه تجويعًا وهزالًا، ومن كُتِبَ له عمر في دفتر القدر ينفونه إلى الأناضول والروملي، فيندغم هناك في العنصر التركي ويصبح تركيًّا بعد قليل من الزمن لا يذكر أحفاده أصلهم الشريف، وقد باشر هؤلاء الكفرة الذين رفع العرب مجدهم وصانوا عرشهم إذلال العرب وإبادتهم؛ فأعملوا السيف والمشنقة، ونفوا عائلات كثيرة من سورية ولبنان المحبوبين، وأخذوا يعدون معدات الهلاك ويفرغون البيوت ويخلون القرى والمدن — في سورية المفداة — من سكانها لكي يسكنوا مهاجري الأكراد والأتراك، ويعيدوا بواسطتهم تمثيل المأساة المفجعة التي مثلوها بالعنصر الأرمني الشريف الباسل بالأمة العربية الكريمة.

لقد حاولوا قتل لغتنا، وجربوا أن يميتوا عاطفتنا القومية، وبذلوا الجهد في تتريكنا، فلم يفلحوا. كل هذا ونحن صابرون صبر الكرام، أما وقد باشروا إبادتنا وإجلاء من يبقى من المزارعين والعمال عن البلاد السورية إلى حيث يفقد جوهر عنصره الشريف فلا صبر على هذا ولا طاقة.

إن قائد الفيلق الرابع جمال باشا الجاسوس الأكبر قد عرقل بحيله مساعينا، وأخر قيامنا، فإنه بعد خيبته بغزوة مصر واسترجاع القطر الشقيق إلى العبودية تظاهر بالميل إلى العرب، وأسرَّ إلى عشرات من كبار الشعب السوري أنه يريد الاستقلال بسورية، وقد ألمع مرات في الولائم الخاصة التي كانت تُقام له إلى استقلال سورية، وحث المتنفذين على النهوض والقيام وشق عصا الطاعة على الحكومة، فوثق كثيرون منا به، ولكن البعض الآخر منا لم يأمن غدره ولا تغافل عن تنبيه إخوانه إلى الحذر من الوقوع في حبائل مكره، وقد تمكن بهذه الأساليب الخداعة والأكاذيب السياسية من اكتشاف بعض دخائل السوريين، فأعمل فيهم السيف، وأمعن فيهم قتلًا، ولكن سيفه ومشنقة دواوينه العسكرية وأحكامه الجائرة ومنكراته الفظيعة هذه كلها كانت أكبر مساعد لنا على دعوتنا وأعظم منشط لنا في جهادنا، وهي وإن تكن أُخِّرت أو آن القيام بهِ إلا أنها وطدته وثبتته ودعتنا إلى التحفظ والتعقل والروية والتفكير.

نحن الآن نطلب حياتنا من براثن الموت، إن خطتنا منظمة كما يجب، وستجود سورية بالمبشرين بدين الاستقلال العربي، والفرج معقود على أسنة الأسل ومكتوب على شفار بيض الظبي، الفرج يأتي من البادية، والجذوة الميمونة المتقدة الآن في الحجاز هي فاتحة البركات للبلاد العربية جمعاء.

لا تلبث نجد أن تثور والأسد العراقي أن يثب عندما تصل إليه الأمداد، والشبل السوري الضعيف المحبوس في قفصه الحديدي، ستهبهُ النخوة القومية وتكسبه الغيرة الجنسية قوة وعزمًا، فيكسر قضبان سجنه الفولاذي ويحطم بقوائمه رأس مقيده، وقد لا ينقضي الخريف وتهب عواصف الشتاء إلا وتثور زوابعنا وتنقض صواعقنا على هامات الظلام الأوغاد الأجلاف العلوج.

فيا إخواني الأعزاء المهاجرين في الأصقاع البعيدة عن مظالم الأتراك وجورهم، أطلب إليكم باسم القومية الشريفة التي ننتمي إليها أن لا تتقاعسوا ولا تتقاعدوا ولا تتصاموا عن نداء الوطنية والحرية والاستقلال العذب الذي يدعوكم إلى الاتفاق إلى الاتحاد إلى التعاضد إلى الوئام إلى الانضمام والالتفاف؛ لما فيه خيركم وخير بلادكم ونجاة ذويكم وحريمكم وأعراضكم من الدمار والفناء والموت والانتهاك والدنس.

اعلموا أن إخوانكم هنا يقدمون أرواحهم، ويضحون نفوسهم في سبيل القومية، فلا تضنوا أنتم بالاتحاد والاتفاق. ألتمس منكم أن لا تفترقوا فرقًا وطوائف، فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني، بل الجميع عرب وفي العرب وللعرب، لا لبناني، ولا بيروتي، ولا شامي، ولا حلبي، ولا حمصي، ولا حموي، فحظ بيروت هو حظ لبنان وحظ الشام وحلب وفلسطين والعراق والحجاز واليمن.

إني لعلى ثقة مما أقول فلا تشكوا، وحدوا جمعياتكم، وحدوا أفكاركم، وحدوا آرائكم، وفقوا بين مشاربكم وأذواقكم ومساعيكم.

أدعوكم أيها الإخوان المحبوبون أينما كنتم وحيثما اجتمع منكم عشرة أن تبادروا إلى تأليف جمعيات باسم سورية، تتعارفون بها وتتفاهمون وتكرسون مما رزقكم الله من خيراته وبركاته ونعمه وأمواله لأجل سورية الجديدة لأجل سورية المستقلة.

أما المجاهد فهو الشاعر العربي فؤاد الخطيب الذي كان أول من حيا استقلال العرب في الحجاز بقصيدة شائقة كتبها بمداد الوطنية والإخلاص وهي:

حيِّ الشريف وحيِّ البيت والحرما   وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
يا صاحب الهمة الشماء أنت لها   إن كان غيرك يرضي الابن والسأما
وأسمع قصائد ثارت من مكامنها   إن شئتها شهبًا أو شئتها رجمًا
من شاعر عربي غير ذي عوج   قد بارك الله منه النفس والكلما

* * *

«يا آل جنكير»[١] إن تثقل مظالمكم   على الشعوب فقد كانت لهم نعما
فالظلم أيقظ منهم كل ذي سنة   ما كان ينهض لولا أنه ظُلِمَا
أرهقتم الشعب ضربًا في مفاصله   حتى استفاق وسل السيف منتقما
فالشنق عن حنق منكم وموجدة   قد أرهف العزمات الشم والهمما
هيهات يصفح عنكم أو يصافحكم   حر ولو عبد الطاغوت والصنما

* * *

بالله يا دار قسطنطين إن نطقت   فيك الرسوم وصاح البحر ملتطما

واقتص منك قضاء الله ثانية ... شر القصاص وأمضى فيك ما حكما
فحدثي آل جنكيز وصاحبهم ... عن مصرع الروم والعرش الذي انحطما
إن أمهلتهم فما كانت لتهملهم ... تلك الشرور التي تستأصل الأمما
أنحوا على أمة كانت لهم عضدًا ... في النائبات وردءًا يدفع النقما
وقد سكتُّ فلم أنبس ببادرة ... جاشت إليَّ كأني ما رُزِقْتُ فما
وكيف أقعد عن ثأر وأندبهم ... ندب العجائز حلس الدار مهتضما
هيهات أكتب منذ اليوم مرثية ... إلا إذا كان حد السيف لي قلمًا
فمن يكن عن أباة الضيم في صمم ... فليسمع اليوم صوتًا يحسم الصمما
فقد تكلم صوت النار مرتفعًا ... من الحجاز فشق البيد والأكما

* * *

يا ابن النبي وأنت اليوم ناصره ... قد عاد متصلًا ما كان منفصما
والتف حولك أبطال غطارفة ... شم الأنوف يرون الموت مغتنما
فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقًا ... صدًّا من الترك أن تعرض له انهدما
وابتر بسيفك عضوًا لا حياة له ... لولاه لم يكن الإسلام متهما
إن كان قد ورث المجد المدلَّ به ... عجبًا فلم يرث الأخلاق والشيما
أين المفاخر بل أين المكارم بل ... أين الحضارة، أمست كلها عدما
وقد تكون على الأيام وارفة ... في المشرقين تظل السهل والعلما
وكيف يصدر خير من بزنطية ... والشر يمسك بالأنفاس محتكما
لا كنت يا يوم جنكيز وعترته ... يومًا فلولاك لم تبك البلاد دما
فقد تهدم ركن كان ممتنعًا ... وقد تفرق شمل كان ملتئمًا

* * *

يا من ألح علينا في ملامته ... بعض الملام وجرب مثلنا الألما
لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها ... مضنًى لما ضج بالزعم الذي زعما

* * *

إيهٍ بني العرب الأحرار، إن لكم ... فجرًا أطل على الأكوان مبتسما
يستقبل الناس من أنفاسه أرج ... ما هب في الشرق حتى أنشر الرمما

تلك الحياة التي كانت محجبة ... في الغيب لا سأمًا تخشى ولا سقمًا
سارت مع الدهر من بدوٍ إلى حضر ... حتى استتبت فكانت نهضة عمما
من ذلك البيت — من تلك البطاح — على ... تلك الطريق مشت أجدادكم قدمًا
من كل أروع وثاب إذا انتسبت ... بيض الصوارم كان الصارم الخذما
وانقض من عدواء الدار منصلتًا ... وانغل في غمرات الموت مقتحمًا
لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ... إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
إلى الشآم، إلى أرض العراق، إلى ... أقصى الجزيرة، سيروا واحملوا العلما

هوامش

(١) يُقْصَدُ بها الاتحاديون، وهي التسمية التي اختاروها لأنفسهم ووضعوا فيها الأغاني والأناشيد.